مكتبة الدراسات الأدبية

٢٥

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

التفسير البيانى للقرآن الكريم

الجزء الأول

دار المعارف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
التفسير البيانى للقرآن الكريم ١
دار المعارف

فراغ

التفسير البياني للقرآن الكريم

الجزء الأول

سورة الضحى

سورة الشرح

سورة الزلزلة

سورة العاديات

سورة النازعات

سورة البلد

سورة التكاثر

فراغ

مكتبة الدراسات الأدبيّة

٢٥

التفسير البياني للقرآن الكريم

الجزء الأول

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

أستاذ الدراسات القرآنية العليا
بجامعة القرويين بالمغرب

الطبعة السابعة

دار المعارف

فراغ

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا الْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

صدق الله العظيم

فراغ

مقدمة الطبعة الخامسة

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٦٢ ، وكان مع معجم المحكم لابن سيده[١] ، وقيم جديدة لأدبنا العربى ، القديم والمعاصر[٢] — من المؤهلات التى نلت بها درجة أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها ، بجامعة عين شمس .

وتابعت فى الدراسات العليا بالجامعة ، التطبيق المنهجى لدراسة القرآن الكريم فى نصه المحكم وبيانه المعجز فهدى إلى أسرار غابت عنا من العربية ، وإلى حلول حاسمة لكثير من قضايا وجودنا القومى ومشكلات حياتنا المعاصرة .

ومن ذلك الحين وأنا مشغولة بخدمة هذا القرآن ، عاكفة على تدبر أسرار بيانه ، فكان من عطائه أن قدّمت إلى المكتبة القرآنية سبعة كتب ، فى التفسير والإعجاز ، والإنسان وقضايا العصر ، والشخصية الإسلامية ، والقرآن والتفسير العصرى .

وعلى ذلك المدى الطويل ، كنت أجد فى هذا القرآن ، النبع السخى الذى أنهل منه كلما دعيت إلى الجامعات العربية أو المؤتمرات الدولية والمواسم الثقافية :

« منهج التفسير البيانى » الجزائر ، أغسطس ١٩٦٣

بدعوة من وزير الأوقاف ، الأستاذ السيد أحمد توفيق المدنى .

« مشكلة الترادف اللغوى ، فى ضوء التفسير البيانى للقرآن » مؤتمر المستشرقين الدولى بالهند نيودلهى : يناير ١٩٦٤

« كتاب العربية الأكبر » مؤتمر أدباء العرب ، بغداد : ١٩٦٥

« تفسير سورة العصر : منهج وتطبيق » كلية الشريعة ببغداد : ١٩٦٥

« القرآن وحرية الإرادة » الموسم الثقافى للكويت : ١٩٦٥ .

« قضية الإعجاز» ندوة أسبوع القرآن ، جامعة أم درمان الإسلامية : فبراير ١٩٦٨ .

---

(١) المجلد الثالث نشرته ، فى نصه المحقق ، جامعة الدول العربية . طبع الحلبى بالقاهرة : ١٩٥٨ .

(٢) نشره معهد الدراسات العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٧ ثم دار المعارف ١٩٧٠ .

« إعجاز البيان القرآنى » ندوة علماء الإسلام بالمغرب الرباط : مايو ١٩٦٨ فى برنامج احتفال المغرب ، بمرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم

« جديد من الدراسة القرآنية » المجلس الإسلامى الأعلى بالجزائر مايو ١٩٦٨

« القرآن وقضايا الحرية » الموسم الثقافى لجامعة أم درمان الإسلامية الخرطوم وعطبرة ، والأبيّض : ١٩٦٨ .

« منهج الدراسة القرآنية » جامعة لاهور ، باكستان : ١٩٦٩

« القرآن وحقوق الإنسان » أبو ظبى : أبريل ١٩٧١

« من أسرار العربية فى البيان القرآنى » جامعة بيروت العربية : آذار ١٩٧٢

« الإسرائيليات والتفسير » طرابلس ، لبنان : آذار ١٩٧٢

« القرآن والفكر الإسلامى المعاصر » المركز الثقافى الإسلامى ، بيروت : نيسان ١٩٧٥ :

وأتم الله علىّ نعمته ، فتفرغت للدراسات القرآنية فى « جامعة القرويين بالمغرب » من سنة ١٩٧٠ إلى الآن .

و « الإعجاز البيانى » يأخذ موضعه من دروسى فى علوم القرآن ، فى دار الحديث الحسنية بالرباط .

و « التفسير البيانى » هو موضوع محاضراتى فى كلية الشريعة بفاس .

* * *

والمنهج قد شرحه أستاذنا الإمام « أمين الخولى » فى كتابه الجليل (مناهج تجديد) ولا بأس فى أن ألخص ضوابطه هنا :

١ — الأصل فى المنهج ، التناول الموضوعى لما يراد فهمه من كتاب الإسلام . ويبدأ بجمع كل ما فى الكتاب المحكم من سور وآيات فى الموضوع المدروس .

٢ — فى فهم ما حول النص : ترتب الآيات فيه على حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان ، كما يستأنس بالمرويات فى أسباب النزول من حيث هى قرائن لابست نزول الآية ، دون أن يفوتنا ما تكون العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى نزلت فيه الآية . وأن السبب فيها ليس بمعنى الحكمية أو العلية التى لولاها ما نزلت الآية ، والخلاف فى أسباب النزول يرجع غالباً إلى أن

الذين عاصروا نزول الآية أو السورة ، ربطها كل منهم بما فهم أو بما توهم أنه السبب فى نزولها .

٣ — فى فهم دلالات الألفاظ : نقدر أن العربية هى لغة القرآن ، فنلتمس الدلالة اللغوية الأصيلة التى تعطينا حس العربية للمادة فى مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية . ثم نخلص للمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما فى القرآن من صيغ اللفظ ، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، وسياقها العام فى القرآن كله .

٤ — فى فهم أسرار التعبير : نحتكم إلى سياق النص فى الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصًّا وروحًا . ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص ، ونتحاشى ما أُقحِم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية ، وبدع التأويل .

كما نحتكم إلى الكتاب العربى المبين المحكم فى التوجيه الإعرابى والأسرار البيانية ، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها ، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه ، لتسوية قواعد الصنعة النحوية وضوابط علوم البلاغة ، إذ القرآن هو الذروة العليا فى نقاء أصالته وإعجاز بيانه ، وهو النص الموثق الذى لم تشُبه من أى سبيل أدنى شائبة مما تعرضت له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع ، ثم إنه ليس بموضع ضرورة كالشواهد الشعرية ، ليجوز عليه ما يجوز عليها من تأويل .

* * *

وبعد ، فإذا كنت فى دروسى الجامعية بقسم اللغة العربية ، بمصر ، قد حرصت على توثيق علوم العربية بالبيان القرآنى ، فإنى فى دراساتى القرآنية بجامعة القرويين ، حريصة على توثيق علوم الإسلام بالعربية لغة وبياناً ، من حيث لا يصح لدارس فقه الإسلام دون رسوخ فى علوم العربية ، كما لا يصح له رسوخ فى العربية دون دراية بعلوم القرآن والإسلام .

وفى هذه المرحلة الخصبة من دراساتى القرآنية بأعرق الجامعات الإسلامية . أتيح لى أن أحقق وجودى العلمى فى أبنائى طلاب الدراسات العليا الذين أصحبهم

فى بحوثهم لدرجاتها العلمية العالية . ومَنّ الله علىّ ، فقدمت منهم إلى الحياة العلمية ، صفوة من شباب علماء الإسلام ، تخصص منهم فى الدراسات القرآنية :

« الأستاذ عبد السلام الكنونى ، الأستاذ المحاضر بكلية أصول الدين بتطوان » .

أنجز رسالته الأولى فى (المدرسة القرآنية فى المغرب ، من الفتح إلى ابن عطية) ويعد الآن رسالته للدكتوراه فى (مختصر تفسير يحيى بن سلام) لأبى عبد الله ابن أبى زمنين : تحقيق ودراسة .

« الأستاذ عبد الكبير المدغرى ، الأستاذ المحاضر بكلية الشريعة بفاس » أنجز معى رسالته للدكتوراه فى (الناسخ والمنسوخ ، للقاضى أبى بكر بن العربى) تحقيق ودراسة .

« الأستاذ محمد الراوندى ، الأستاذ المساعد بدار الحديث الحسنية » صحبته فى رسالته الجليلة (الصحابة الشعراء) التى حرر بها فهمنا لقضايا الإسلام والشعر ، وصحح أخطاء الدارسين الذين تناولوا هذه القضايا قبل أن يصح لنا علم بالجيل الإسلامى الأول من الشعراء الصحابة ، تلاميذ مدرسة النبوة ، الذين بلغ عددهم فى طبقة الزميل للصحابة الشعراء ، نحو أربعمائة شاعر!

كما قدمتُ فى هذه المرحلة إلى جامعة الأزهر العريقة ، ابنتى « سهير محمد خليفة ، المدرسة بالأزهر » فى رسالتيها :

(الشواهد القرآنية فى كتاب سيبويه) نالت بها درجة الماجستير من جامعة الأزهر ، بتقدير ممتاز .

و (الشواهد القرآنية ، فى كتاب مغنى اللبيب لابن هشام) نالت بها ، فى ١٢ / ٧ / ١٩٧٧ ، درجة العالمية ، الدكتوراه ، من مرتبة الشرف الأولى . مع توصية لجنة المناقشة ، بطبعها على نفقة جامعة الأزهر .

لله تعالى الحمدُ والمنة على ما هدَى ويسَّر وأعان : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . صدق الله العظيم

عائشة عبد الرحمن
أستاذ الدراسات القرآنية العليا
بجامعة القرويين

الرباط : رمضان ١٣٩٧
سبتمبر ١٩٧٧

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

له الحمد ، وبه المستعان

لكل لغة روائع من آدابها ، تعتبرها النماذج العالية لذوقها الأصيل ، والمثل الرفيعة لفنها القولى . وقد غبرت الأجيال منا تتجه إلى نصوص مختارة من شعر العربية ونثرها ، تضعها بين أيدى القراء أو تقدمها إلى التلاميذ والطلاب وشغلنا نحن أصحاب الدرس الأدبى ، أو شغلت الجمهرة منا ، بالمعلقات والنقائض والمفضليات ، ومشهور الخمريات والحماسيات والمراثى والمدائح والغزليات ، ومأثور الرسائل والأمالى والمقامات ، شغلنا بهذا ومثله عن « القرآن الكريم » الذى لا جدال فى أنه كتاب العربية الأكبر ، ومعجزتها البيانية الخالدة ، ومثلها العالى الذى يجب أن يتصل به كل عربى أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها ، ويستشف أسرارها فى البيان وخصائصها فى التعبير والأداء .

* * *

ونحن فى الجامعة ، نترك هذا الكنز الغالى لدرس التفسير ، وقلَّ فينا من حاول أن ينقله إلى مجال دراسات العربية التى قصرناها على دواوين الشعر ونثر مشهورى الكتّاب . وكان المنهج المتبع فى درس التفسير — إلى نحو ربع قرن من الزمان — تقليديًّا أثريًّا ، لا يتجاوز فهم النص القرآنى على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم . حتى جاء شيخنا الإمام « الأستاذ أمين الخولى » فخرج به عن ذلك النمط التقليدى ، وتناوله نصًّا لغويًّا بيانيًّا على منهج أصّله ، وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم . ولكن التفسير الأدبى للقرآن ظل حتى اليوم ، محصوراً فى نطاق مادة « التفسير » دون أن ينتقل إلى مجال الدرس البيانى مع تراث الفصحى وهيهات أن يرقى إليه نص منها .

وقلّ منا — نحن أساتذة العربية فى الجامعات — من حاول أن يجعل من النص القرآنى موضوعاً لدراسة منهجية، على غرار مانفعل بنصوص أخرى لاسبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم فى إعجازه البيانى . وقد حرصتُ لمدى ربع قرن قضيته فى الجامعة ، على أن أتتبع أسئلة الامتحان فى مواد اللغة والأدب ، فى أقسام اللغة العربية بمختلف الكليات ، فلم أجد من بينها سؤالا فى البيان القرآنى ، فدلّ **هذا على أن الفكرة لم تأخذ حظها الكافى من الوضوح والتمثل .**

والدراسات القرآنية ، فى المجال العام ، تسير على غير منهج ، ويتصدى لها من المؤلفين من ليسوا أهلا لها . ولم أنس محاولة الأستاذ « مصطفى صادق الرافعى » — رحمه الله — فى إعجاز القرآن ، والحديث عن قيمتها يأتى فى مدخل كتابى (الإعجاز البيانى)[1] .

* * *

ومنذ سنين وأنا أقوم بهذه المحاولة فى دراسة النص القرآنى لغةً وبيانا ، تطبيقاً للمنهج الذى تلقيته . . . وعلى كثرة ما اشتغلت به من روائع النصوص الأخرى ، فإنى لا أستطيع بحال ، أن أعبر عما كان يبهرنى من جلال هذه المحاولة، وما راضتنى به ، عقلا وذوقاً ووجداناً ، إلى الحد الذى جعلنى أتساءل فى ارتياب : **هل كنت قبلها ،قد صح لى فقه لغتى العربية ، وإدراك أسرار بيانها ؟**

ذلك لأنى بحكم نشأتى فى بيت علم ودين ، ألفت منذ الصغر أن أصغى بكل وجدانى إلى هذا القرآن ، وأن أتلو آياته فى تأثرٍ وخشوع ، لكنى لم أعِ بيانه حق الوعى ، إلا بعد تخصصى فى دراسة النصوص ، واتصالى بأصيلِ ما للعربية من تراث أدبى ، فكنت كلما ازددت تعمقاً فى الدرس ، وفقهاً للعربية ، وقفت مبهورة أمام جلال هذا النص المحكم ، وعدت أتلو من معجز آياته ما أدركت معه لماذا أعيا العرب — وهم أصحاب الفن القولى ، واللغة

---

(١) بعد الفراغ من دراستى هذه ، تحدثت عنها إلى عدد من أساتذة دمشق وعلمائها ، عندما دعيت لأحاضر بجامعتها فى يناير ١٩٦٠ ، فأهدى لى الأستاذ الدكتور محمد المبارك عميد كلية الشريعة ، نسخة من كتابه « من منهل الأدب الخالد » وفيه محاولة موفقة لاستجلاء بعض الملاحظ البلاغية فى القرآن الكريم ، لكن على غير منهجنا هذا فى التفسير البيانى .

طوع لسانهم – أن يأتوا بسورة من مثله ، فآمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لما تلا فيهم آيات القرآن معجزةَ نبوته وآية رسالته ، وإنه لبشر مثلهم ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

* * *

وإذا كنت أرجو بهذه المحاولة ، أن أتيح لمثلها – أو لما هو خير منها – مكانًا فى صميم الدرس الأدبى بالجامعة ، فإنى لأطمع كذلك فى أن أؤكد بها ما سبق أن قرره أستاذنا ، من أن الدراسة المنهجية لنصّ القرآن الكريم ، يجب أن تتقدم كل دراسة أخرى فيه ، لا لأنه كتاب العربية الأكبر فحسب ، ولكن – كذلك – لأن الذين يعنون بدراسة نواح أخرى فيه ، والتماس مقاصد بعينها منه ؛ لا يستطيعون أن يبلغوا من تلك المقاصد شيئاً دون أن يفقهوا أسلوبه الفريد ويهتدوا إلى أسراره البيانيـــة التى تعين على إدراك دلالاته . فســواء أكان الدارس يريـــد أن يستخرج من القرآن أحكامه الفقهية ، أو يستبين موقفه من القضايا الاجتماعية أو اللغوية أو البلاغية ، أم كان يريد أن يفسر آيات الذكر الحكيم على النحو الذى ألفناه فى كتب التفسير ، فهو مطالب بأن يتهيأ أولا لما يريد ، ويعد لمقصده عدته : من فهم مفردات القرآن وأساليبه ، فهمًا يقوم على الدرس المنهجى الاستقرائى ولمح أسراره فى التعبير .

* * *

ثم إن القرآن الكريم هو مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التى اتخذت العربية لسانًا لها ، ومهما تتعدد لهجاتها المحلية وتختلف أمزجتها وتتباين أساليبها الخاصة فى الفن القولى يبق القرآن الكريم ، فى نقاء أصالته ، كتابها القيم الذى تلتقى عنده هذه الشعوب العربية اللسان ، على اختلاف لهجاتها وأقطارها ، وتفاوت تأثرها بالعوامل الإقليمية ، كما تلتقى عنده كتابَ عقيدة وشريعة . ومنهاج .

غير أن الظروف الدينية والسياسية والتاريخية ، التى تعرض لها فهمُ العرب للقرآن الكريم ، وتعرض لها تأويله – وهو الكتاب الدينى لشعوب شتى –

قد حالت دون تذوقه نصًّا ممثلا لأنقى وآصل ما فى العربية لغةً وبيانا ، وذلك لما داخل هذا التذوقَ من شائبات مذهبية وطائفية جارت عليه .

وكل من له اتصال بالدراسات القرآنية ، يعرف ما حُشيت به كتب التفسير من إسرائيليات حاول بها يهود ، ممن دخلوا فى الإسلام طوعاً أو نفاقا ، تطعيم فهم المسلمين لكتابهم الدينى بعناصر إسرائيلية . وأنا أدع الكلام فى هذا الذائع المعروف ، لأشير إلى شوائب أخرى جاءت نتيجة لتباين أذواق المفسرين وعقلياتهم وبيئاتهم وأنماط شخصياتهم ، فى ذلك العالم الواسع العريض الذى امتد من الصين والهند فى أقصى المشرق ، إلى مراكش والأندلس فى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وطائفية ، فاقتضى هذا بطبيعة الحال أن تواردتْ على كتاب الإسلام الدينى أممٌ وطوائفُ شتى ، تتذوقه متأثرة بظروفها الخاصة ويفسره المفسرون منهم ... تفسيراً يوجه النص توجيهاً يعوزه فى كثير من الأحايين ، ذوقُ العربية النقى ومزاجها الأصيل ؛ وقد ينحرف به عن وجهته ضلالُ التعصب أو خطأ المنهج أو قصور التناول .

والمكتبة القرآنية غنية بكتب التفسير ، ومنها ما أظهر عناية خاصة بالتوجيه الإعرابى أو البلاغى ، ومنها ما اختص بالنظر فى مفرداته أو فى مجازه أو فى أقسامه أو فى نظمه ، من ذلك مثلا : عناية الزمخشرى بالبلاغة فى تفسيره (الكشاف) . وعناية عبد القاهر الجرجانى والقاضى الباقلانى ، بالنظم فى : (الإعجاز ودلائله) وكتب الماوردى وابن حزم والقاضى ابن العربى والشاطبى والجصاص ، فى (الأحكام) ، وكتاب محب الدين أبى البقاء العكبرى فى (وجوه الإعراب والقراءات) وكتاب ابن خالويه فى (إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم) وكتاب ابن قيم الجوزية فى (أقسام القرآن) وكتاب الراغب الأصفهانى فى (مفردات القرآن) ، وكتاب أبى عبيدة فى (مجاز القرآن) وكتب : (معانى القرآن وإعرابه) لأبى إسحاق الزجاج . و (إعراب القرآن) لأبى جعفر ابن النحاس ، و (غريب القرآن) لابن قتيبة ، ولمكى بن أبى طالب حموش القيسى ، وأبى البركات ابن الأنبارى . . . وغيرها مما لا أذكره هنا على وجه الإحصاء . وما يجرؤ منصف على أن يجحد فضل أحد من هؤلاء جميعاً ، هم الذين بذلوا فى خدمة القرآن جهوداً جليلة ، وتركوا آثارهم زاداً لمن بعدهم .

ولكن التفسير ظل – باعترافهم – من علوم العربية التى لم تنضج ولم تحترق ، وهذا الاعتراف يفسح لى العذر حين أتقدم إلى هذا الميدان الجليل فى حدود جهدى وطاقتى واختصاصى ، كما يشفع لى حين أضطر أحياناً إلى رفض بعض أقوال لهم وتأولات واتجاهات ، قد أراها ، والله أعلم بعيدة عن روح العربية الأصيلة ، مجافية نصًّا وروحًا ، لبيان القرآن المحكم .

* * *

واليوم إذ تتداعى الشعوب العربية بالوحدة ، نلوذ بكتابنا الأكبر الذى نلتقى عنده لسانًا ووجدانًا على اختلاف بيئاتنا ولهجاتنا وتباين ميراثنا الحضارى والفنى ، كما يلتقى المسلمون عنده ، فى شتى أقطارهم وعلى اختلاف ألسنتهم ، عقيدة وشريعة ومنهاجًا .

ولن يكون هذا التلاقى عند كتابنا العربى المبين ، إلا إذا جددت محاولتنا فى درسه وفهمه وتذوقه ، على منهج دقيق محرر ، ينفذ من وراء الحجب التى أسدلتها التأويلات المذهبية والطائفية ، والأذواق الأعجمية ، إلى الجوهر الكريم فى ذروة نقائه وجلال أصالته .

وما أعرضه هنا ، ليس إلا محاولة فى هذا التفسير البيانى للمعجزة الخالدة ، حرصت فيها – ما استطعت – على أن أخلص لفهم النص القرآنى فهمًا مستشفًّا روح العربية ومزاجها ، مستأنسة فى كل لفظ ، بل فى كل حركة ونبرة ، بأسلوب القرآن نفسه ، ومحتكمة إليه وحده ، عندما يشتجر الخلاف ، على هدى التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه ، والتدبر الواعى لدلالة سياقه ، والإصغاء المتأمل ، إلى إيحاء التعبير فى البيان المعجز . . .

* * *

والأصل فى منهج هذا التفسير – كما تلقيته عن أستاذى – هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما فى القرآن منه ، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك . . . وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه ، مقتطعًا من سياقه العام فى القرآن كله ،

مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه ، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية .

وقد طبق بعض الزملاء هذا المنهج تطبيقًا ناجحًا ، فى موضوعات قرآنية اختاروها لرسائل الماجستير والدكتوراه . وأتجه بمحاولتى اليوم إلى تطبيق المنهج فى تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع وأكثرها من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية ... وقصدت بهذا الاتجاه ، إلى **توضيح الفــرق بين الطريقة المعهودة فى التفسير ، ومنهجنا الاستقرائى الذى** يتناول النص القرآنى فى جوه الإعجازى، ويقدر حرمة كلماته بأدق ما عرفت مناهج النصوص من ضوابط ، ويلتزم دائمًا قولة السلف الصالح : « القرآن يفسر بعضه بعضًا » — وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغًا — ويحرر مفهومه من العناصر الدخيلة والشوائب المقحمة على أصالته البيانية .

* * *

وسيرى المتخصصون فى الدراسة القرآنية — بيانية أو فقهية — مدى حاجتنا إلى فهم نصه قبل أى شىء آخر ، وسيرون كذلك ما تكشف عنه المحاولة من شطط **التأول فى كثير من كتب التفسير واللغة والبلاغة ، أو من بعد التكلف واعتساف الملحظ ، وتحميل ألفاظ القرآن وعباراته ما يأباه القرآن نفسه حين نحتكم إليه .**

وسيبهرهم بلا ريب ، ما بهرنى من أسرار له بيانية ، هدى إليها الدرس المنهجى الاستقرائى والتدبر المرهف : فى اللفظ لا يقوم مقامه سواه ، وفى الحرف لا يؤدى معناه حرف آخر ، وفى الحركة أو النبرة تأخذ مكانها فى النظم الباهر . . .

* * *

ولا أريد أن أتزيد هنا بسوق أمثلة من ذلك كله ، بل لا أريد كذلك أن أسبق إلى توقع ما سوف تحدثه المحاولة من أثر أو ما قد يعقبها من صدى ، فأيًّا ما كان الرأى فيها ، وأيًّا ما كان حظها من التوفيق ، فحسبى الذى نلتُ من ثوابها ، وما أجدَّتْ علىَّ مادة وذوقًا وفهمًا ، حين انقطعت لخدمة كتاب

العربية الأكبر ، وأمضيت سنين عاكفة على تدبر أسراره ، ولمح إعجازه البياني :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

صدق الله العظيم .

عائشة عبد الرحمن
أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها
جامعة عين شمس

مصر الجديدة :
شعبان ١٣٨١
يناير ١٩٦٢

فراغ

سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً
فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا
تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

صدق الله العظيم

فراغ

السورة مكية بلا خلاف ، والمشهور أنها الحادية عشرة فى ترتيب النزول .
نزلت بعد الفجر . . .

والمفسرون مجمعون على أن سبب النزول ، هو إبطاء الوحى فى أوائله على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شق ذلك عليه ، وقيل فيما قيل : ودّع محمداً ربُّه وقلاه .

ثم اختلفت أقوالهم — بعد هذا الإجماع — فيمن قالها[1] :

فنى رواية أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شكا إلى زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها انقطاع الوحى وقال : إن ربى ودعنى وقلانى . فقالت : كلا والذى بعثك بالحق ، ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك ، فنزلت الآيات : « ما ودعك ربك وما قلى » .

وفى رواية ثانية ، أنها السيدة خديجة ، وقد رابها فتور الوحى . . .

لكن رواية ثالثة تقول : إن « حمالة الحطب : أم جميل امرأة أبى لهب » هى التى قالت : يا محمد ! ما أرى شيطانك إلا قد تركك .

ورواية رابعة تقول : إن المشركين هم الذين قالوا فى شماتة : قد قلاه ربه وودّعه .

ولا نقف عندما اختلفوا فيه ، فأسباب النزول لاتعدو أن تكون قرائن مما حول النص ، وهى باعتراف الأقدمين أنفسهم لا تخلو من وهم ، والاختلاف فيها قديم ، وخلاصة ما انتهى إليه قولهم فى أسباب النزول ، أنها ما نزلت إلا أيام وقوعه[2] ، وليس السبب فيها ، بمعنى السببية الحكمية العليّة .

* * *

(١) انظر هذه الأقوال فى تفاسير :
الطبرى : ٣٠ /١٤٨ — البحر المحيط لأبى حيان ٨ /٤٨٥ .
الرازى : ٨ /٤٢٠ — النيسابورى ، بهامش الطبرى ٣٠ /١٠٨ .
(٢) السيوطى : الإتقان ١ /٣٩ .

« وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ » .

وتستهل السورة بالقسم بالواو ، والرأى السائد عند الأقدمين ، أن هذا القسم القرآنى يحمل معنى التعظيم للمقسَم به ، قال ابن قيم الجوزية :

(وإقسامه — تعالى — ببعض مخلوقاته ، دليل على أنها من عظيم آياته »[1] .

وسادت هذه الفكرة ، فألجأتهم إلى اعتساف فى بيان وجه التعظيم فى كل ما أقسم به القرآن الكريم بالواو :

فنى القسم بالليل مثلا ، قد يبدو وجه الإعظام إذا لحظوا فيه الحكمة الإلهية من خلق الليل وجعله لباسًا وسكنًا ، ولكنهم لحظوا فيه كذلك — فى آية الضحى — معنى الاستيحاش ، وأنه وقت الغم ، وربما تأولوه بسكون الموت ، وظلمة القبور ، والغربة[2] ، مما لا يظهر فيه معنى الإعظام إلا عن تكلف وقسر ، واستكراه .

فالشيخ « محمد عبده » لم يجد صعوبة فى بيان وجه العظمة فى القسم بالضحى « فالقسم بالضياء الإشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، وللفت أذهاننا إلى أنه آية من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى » لكنه فى القسم بالليـــل ، اضطر — تحت سيطرة فكرة التعظيم بالقسم — إلى التماس وجه الإعظام فيه ، فى قسرٍ يكفى لبيانه أن يرى فى الليل أشبه بالجلال الإلهى . قال رحمه الله : « أما القسم بالليل فلأنه أمر يهولك ويدخل عليك من انقباض النفس عن الحركة واضطرارها للوقوف عن العمل وركونها إلى السكون ما لا تجد عنه مفرًا ، فهذا سلطان من الخوف مبهم ، لا تحيط بأسبابه ولا بتفصيل أطواره ، فهو أشبه بالجلال الإلهى يأخذك من جميع أطرافك وأنت لا تدرى من أين يأخذك ، وهو مظهر من مظاهره ، ثم فى هذا السكون من راحة الجسم والعقل وتعويض ما فقداه بالتعب بياض النهار ، ما لا تحصى فوائده »[3]

* * *

(١) التبيان فى أقسام القرآن : ص ١ .　　(٢) تفسير الرازى : ٨ / ٤٢٠ .

(٣) تفسير جزء عم : سورة الضحى

ويلاحظ عليهم هنا ، أنهم التمسوا العظمة فى الليل ، مطلق الليل . مع أنه مقيد فى الآية بـ « إذا سجى » وقد جاء مقيداً فى آيات أخرى بقوله تعالى :

« إذا أدبر » المدثر

« إذا عسعس » التكوير

« إذا يَسْرِ » الفجر

« إذا يغشى » الليل

« إذا يغشاها » الشمس

ويلاحظ كذلك ، أنهم فى آية الضحى ، وفى أكثر آيات القسم بالواو ، خلطوا بين الإعظام ، والحكمة فى خلق المقسَم به ؛ وما من شىء من مخلوقات الله لم يخلق لحكمة ، ظاهرة أو خفية . أما الإعظام فلا يهون القول به ، لمجرد بيان وجه لظاهر الحكمة فى المقسم به .

* * *

والذى اطمأننت إليه بعد طول تدبر وتأمل فى السور المستهلة بهذه الواو ، هو أن القسم بها يمكن أن يكون ، والله أعلم ، قد خرج عن أصل الوضع اللغوى فى القسم للتعظيم ، إلى معنى بيانى ؛ على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهى والاستفهام عن أصل معناها الذى وضعت له ، لملحظ بلاغى . فالواو فى هذا الأسلوب تلفت لفتاً قوياً إلى حسّيات مدركة ليست موضع غرابة أو جدل ، توطئة إيضاحية لبيان معنويات أو غيبيات لا تُدرَك بالحس .

فالقسم بالواو، فى مثل (والضحى) غالبًا، أسلوب بلاغى لبيان المعانى، بالمدرَكات الحسية. وما يُلمَح فيه من الإعظام، إنما يُقصَد به إلى قوة اللفت. واختيارُ المقسَم به تراعى فيه الصفة التى تناسب الموقف. وحين نتتبع أقسام القرآن فى مثل آية الضحى، نجدها تأتى لافتة إلى صورة مادية مُدرَكة وواقع مشهود، توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مُدرَكة، يمارى فيها مَن يمارى: فالقرآن الكريم فى قسمه بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس، وإذا يغشى، وإذا أدبر، يجلو

معانى من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة. وهذا البيان للمعنوى بالحسى، هو الذى يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو، فتقبلها دون تكلف أو قسر فى التأويل.

وشرح هذا على وجه التفصيل، والتماس الشواهد والأدلة عليه، مما يتسع له بحث خاص مفرد، عن «القسم فى القرآن» أما هنا — ومجال البحث محدود بموضوعه — فقد يكفى ما يعرض لنا من أقسام قرآنية فيما اخترنا من سور، لكى نوضح الفكرة ونجلو الملحظ [١].

المقسَم به فى آيتى الضحى، صورة مادية وواقع حسى، يشهد به الناس فى كل يوم تألق الضوء فى ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن. دون أن يختل نظام الكون أو يكون فى تراود الحالين عليه ما يبعث على إنكار، بل دون أن يخطر على بال أحد، أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة، بعد تألق الضوء فى ضحى النهار، فأى عجب فى أن يجيء، بعد أنس الوحى وتجلى نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم، فترة سكون يفتر فيها الوحى، على نحو ما نشهد من الليل الساجى يوافى بعد الضحى المتألق!

هذا هو ما نطمئن إليه فى التفسير البيانى للقسم بالضحى والليل إذا سجا، ولا أعرف — فيما قرأت — أحداً من المفسرين التفت إلى هذا الملحظ التفاتاً واضحاً متميزاً، وإن يكن بعضهم قد استشرف له من بعيد، لكن وسط حشد من تأويلات شتى، لاتخلو من تكلف وإغراب.

منهم «فخر الدين الرازى [٢]، ونظام الدين النيسابورى» [٣] فقد ذكرا فى حكمة القسم بالضحى والليل إذا سجى، وجوهاً «منها: كأنه تعالى يقول الزمان ساعة فساعة، ساعة ليل وساعة نهار، ثم يزداد؛ فمرةً تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس، فلا تكون الزيادة لهوًى،

---

(١) يأتى منه هنا، آيات القسم فى سورتى (النازعات، العاديات).

(٢) تفسير الرازى: ٨/٤١٨.

(٣) غرائب القرآن، على هامش الطبرى: تفسير الجزء ٣٠/١٠٦، ١٠٧.

ولا النقصان لقلًى ، بل للحكمة . كذا الرسالة وإنزال الوحى بحسب المصالح ، فمرة إنزال ، ومرةً حبس ، فلا كان الإنزال عن هوًى ولا كان الحبس عن قلى .

« ومنها : أن الكفار لما ادعوا أن ربه ودّعه وقلاه ، قال : هاتوا الحجة ، فعجزوا ، فلزمه اليمين بأنه ما ودعه ربه وما قلاه !

« ومنها ، كأنه تعالى يقول : انظر إلى جوار الليل مع النهار ، لا يسلم أحدهما عن الآخر ، بل الليل تارة يَغلب ، وتارة يُغْلب ، فكيف تسلم عن الخلق » ؟[1] .

وقال « الشيخ محمد عبده » بعد الذى نقلنا من عبارته فى وجه الإعظام بالقسم بالليل : « وقد جاء فى الصحيح أن النبي، صلى الله عليه وسلم ، حزن لفترة الوحى ، حزنًا غدا منه مراراً كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، ولكن كان يمنعه تمثل الملَك له وإخباره بأنه رسول الله حقًا . فذلك هو القلق والفزع الذى يحتاج إلى ما به تكون الطمأنينة ، فآتاه الله ما كان فى شوق إليه ، وثبته بالوحى وبشره أن تلك الفترة لم تكن عن ترك ولا عن قِلى ، وأقسم له على ذلك . وأشار فى القسم إلى أن ما كان من سطوع الوحى على قلبه أول مره ، بمنزلة الضحى تقوى به الحياة وتنمو الناميات ، وما عرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل إذا سكن لتستريح فيه القوى وتسعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل. ومن المعلوم أن النبى لاقى من الوحى شدة فى أول أمره ، فكانت فترة الوحى ، أى فتوره ، لتثبيته عليه السلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى منه ، حتى تم به حكمة الله تعالى فى إرساله إلى الخلق »[2] .

ويوشك الملحظ البيانى ، أن يتوه وسط هذا الكلام فى الضحى تقوى به الحياة وتنمو الناميات ، وفى الليل تستريح فيه القوى وتستعد فيه النفوس .

وكان « ابن قيم الجوزية » أقرب إلى إدراك الملحظ البيانى فى القسم، لولا أن غلب عليه التأثر بفكرة الإعظام التى قررها أصلا فى كل أقسام القرآن . فجعل موضع القسم هنا للدلالة على ربوبية الله وحكمته ورحمته ، مع أن السياق

(١) تفسير الرازى : ٨ / ٤٢٠ .

(٢) تفسير جزء عم ص ٩٥ .

لا يشير من قريب أو بعيد ، إلى أن الموقف كان ارتيابًا من المشركين فى ربوبية الله وحكمته ورحمته ، وإنما كان – على قول المفسرين فى سبب النزول – كلامًا فى أن الله قد ودّع محمداً صلى الله عليه وسلم وقلاه . ونص عبارة ابن القيم : « أقسم بآيتين عظيمتين من آياته ، دالتين على ربوبيته ، وهما الليل والنهار . . . فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل ، للمقسَم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه »[1] .

* * *

ومن المفسرين من وقف طويلا عند تقديم الضحى هنا ، وأبعَدَ فى تأويله فقال : « إنه إشارة إلى أن الحياة أولى للمؤمن من الموت إلى أن تحصل كمالاته الممكنة . وأيضا أنه ذكر الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه – تعالى – ثم عقبه بالليل حتى يحصل الأمن من مكرِه ! »[2] .

ولم يتعرض « ابن جرير الطبرى » لبيان ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، ومثله « الزمخشرى » فى الكشاف ، وإنما اقتصرا على بيان كل من طرفى القسم . وكذلك سكت « أبو حيان » فى (البحر) عن هذه الصلة المعنوية بينهما ، وشغل عنها ببيان أوجه الصناعة النحوية .

كما لم يتعرض أى مفسر – فيما قرأت – لمقابلة هذا القسم الإلهى بالواو ، على ظاهرة نفى القسم الصريح حيثما جاء فى القرآن الكريم مسنداً إلى الله تعالى[3] .

* * *

ونعرض بعد هذا ، لأقوالهم فى تفسير : الضحى ، والليل إذا سجا ، فنقرأ فى « الطبرى » اختلاف أهل التأويل فى الضحى :

فهو النهار كله ، وهو ساعة من ساعات النهار .

كما نقرأ اختلافهم فى الليل إذا سجا : فهو الليل إذا أقبل ، أو إذا جاء . وهو

---

(١) التبيان : ٧٢ .
(٢) غرائب القرآن للنيسابورى : ٣٠ /١٠٦ .
(٣) انظر « لا أقسم » فى تفسير سورة البلد .

الليل إذا ذهب ، وهو الليل إذا استوى ، وهو الليل إذا استقر وسكن .

واختار « الطبرى » من هذه الأقوال فى الضحى : أنه النهار ، لأنه ضوء الشمس الظاهرة . واختار فى سجا الليل : معنى السكون بأهله[١] .

والزمخشرى ، يقول فى الضحى : هو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها ، وقيل : أريد بالضحى النهار .

وقال فى سجا : سكن وركد ظلامه ، وقيل معناه سكون الناس والأصوات فيه[٢] .

وعند أبى حيان : سجا الليل أدبر ، وقيل : أقبل . وقال الفراء : أظلم وركد ، وقال ابن الأعرابى : اشتد ظلامه[٣] .

وأجاز « النيسابورى » أن يكون معنى سجا ، سكن الناس فيه ، فيكون الإسناد مجازيًّا[٤] .

وقال الشيخ محمد عبده فى الضحى : هو ضوء الشمس فى شباب النهار . وفى سجا الليل : هو ما تجده من سكون أهله وانقطاع الأحياء عن الحركة فيه[٥] .

* * *

فلننظر فيما اختلف فيه المفسرون فى معنى الضحى : أهو النهار كله ، أم ساعة منه ؟ والليل إذا سجا : هل معناه أقبل ، أو أدبر ، واشتد ظلامه وسكن ، أو سكنت الناس والأصوات فيه ؟

وإذا كان اللفظ لغةً يحتمل أكثر من معنى على ما ذكروا فى ضحى وسجا ، فإن البلاغة لا تجيز إلا معنى واحداً فى المقام الواحد ، يقوم به لفظ بعينه ، لا يقوم به سواه .

واللغة قد عرفت الضحى وقتًا بعينه من النهار ، وبه سميت صلاة الضحى لوقوعها فيه ، والضاحية من الإبل التى تشرب ضحى ، وقالوا ضحى فلان غنمه إذا رعاها الضحى ، وضحّى بالشاة ذبحها ضحى يوم النحر — وهذا

---

(١) تفسير الطبرى : الجزء الثلاثون ١٣٣ .
(٢) الكشاف : ٤/ ٢١٩ .
(٣) غرائب القرآن : ٣٠/ ١٠٦ .
(٤) البحر المحيط : ٨/ ٤٨٥ .
(٥) تفسير جزء عم : ١٠٨ .

هو أصل الاستعمال فيما ذكر لسان العرب — وقال « يعقوب » فى الأضحى : يسمى اليوم أضحى بجمع الأضحاة وهى الشاة تذبح ضحى النحر ، وهى أيضًا الأضحية والضحية .

ودلالة الوضوح هى الملحوظة فى كل الاستعمالات الحسية للمادة : فالضاحية السماء ، ومنه قيل لما ظهر وبدا ضاحية . والمضحاة الأرض التى لاتكاد تغيب الشمس عنها ، وضحا الطريق : بدا وظهر . وقالوا لمن يبرز للشمس: ضَحا ضَحواً وضُحواً وضُحياً ، كما قالوا لمن ضربته الشمس ضَحا كذلك. والضحياء الفرس الشهباء ،

ومن هذا الوضوح والظهور الملحوظين فى الاستعمالات الحسية للمادة ، قيل : فعل فلان كذا ضاحية ، أى علانية . على أن أكثر ما يستعمل الضحى فى الوقت المعين من صدر النهار ، فويق ارتفاع النهار ، حين يتم وضوح الشمس . ومنها ما يستعمل فى كل ما وقع أو فُعِل فى هذا الوقت بعينه، فيقال أضحى فلان إذا صار فى الضحى ، وأتيتك ضحوةً ، وضحى .

* * *

وفى الاستعمال القرآنى ، نرى القرآن الكريم استعمل الضحى مقابلا للعشية فى آية النازعات ٤٦ :

« كأنهم يومَ يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها » .

ومعها الآية ٢٩ :

«أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها * رفعَ سمْكَها فسوَّاها * وأغطَشَ ليلَهَا وأخرجَ ضُحاها » .

كما استعمله ظرف زمان ، لهذا الوقت بعينه من النهار فى آية الأعراف ٩٧ :

« أوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتِيَهم بأْسُنا ضحًى وهم يَلعبون » ؟

وآية طه ٥٩ :

« قال مَوْعِدُكم يومُ الزينةِ وأن يُحشَرَ الناسُ ضُحًى » .

فنراه هنا عيَّن للموعد يوماً هو يوم الزينة ، ثم خصَّ وقتاً منه بالتحديد ،

هو ضحى ، مما يُبعد تفسير الضحى بأنه النهار كله .

وتبعده كذلك آية « الشمس » التى أقسم القرآن فيها بالشمس وضحاها ، حيث لا نرى المعنى يستقيم لو فسرناه بالنهار فقلنا : والشمس ونهارها ، وإنما هو « وقت انبساط الشمس » كما اطمأن « الراغب » فى المفردات ، أو هو « صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها » كعبارة « النيسابورى » فى الغرائب .

* * *

وأما سجا الليل ، فالسكون أو الفتور هو ما يلائم الموقف بيانيًّا ، وليس الإقبال ولا الإدبار ، كما قال مفسرون . ولم تأت مادة « سجا » فى القرآن كله فى غير هذا الموضع ، إلا أن مقابلتها للضحى ، تجعلنا نطمئن إلى أن سجو الليل هو فترة هدوئه وسكونه ، على ما تعرف العربية فى استعمالها لطرْفٍ ساجٍ وبحر ساج ، والسجواء وهى الناقة التى إذا حُلبت سكنت .

والسكون هو المعنى الذى ذكره « الراغب » فى مفرداته ، وقال « النيسابورى » : هو بمنزلة الضحى من النهار .

* * *

وقد قلنا فى القسم بالضحى والليل إذا سجا : إنه بيان لصورة حسية ، وواقع مشهود ، يمهد لموقف مماثل ، غير حسى ولا مشهود ، هو فتور الوحى بعد إشراقه وتجليه . لكن من المفسرين من أجهدوا أنفسهم لالتماس السبب الذى من أجله أوثر الضحى هنا بالقسم ، فالزمخشرى يقول إنه تعالى : « أقسم بالضحى ، لأنها الساعة التى كُلّم فيها موسى عليه السلام ، وكانت موعده لمعارضة السحرة »(١) .

ونستبعد أن يكون الوحى قد خاطب النبى عليه الصلاة والسلام فى آية الضحى بما تفسره آياتٌ نزلت بعدها بزمن ، فى موعد حشر السحرة بآية طه التى نزلت بعد الضحى بست وثلاثين سورة ، وكلام الله تعالى لموسى عليه السلام — ولم يحدد القرآن ساعته — بآيات الأعراف والنساء ، المدنية .

وأضاف النيسابورى ، والرازى كذلك : « أن الضحى ساعة من النهار

---

(١) الكشاف : سورة الضحى ج ٤ .

توازى جميع الليل ، كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم يوازى جميع الأنبياء وأممهم » .

ولا نقف بعد هذا عند تأويلات الإشاريين بأن الضحى وجه محمد، صلى الله عليه وسلم، والليل شَعره ، أو أن الضحى هم ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام والليل إناثهم [١] ويحتمل أن يقال : الضحى نور علمه الذى يعرف به المستور من الغيوب ، والليل عفوه الذى يستر به جميع العيوب ، أو هى إشارة بالضحى إلى إقبال الإسلام بعد أن كان غريباً ، وبالليل إلى أنه سيعود غريباً كما بدأ [٢] إلى آخر هذه التأويلات الإشارية التى لا موضع لها فى تفسير بيانى للنص الكريم .

* * *

« ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » .

والقراءة بالدال المشددة هى قراءة الجمهور ، وقرأ بعضهم : « ما ودَعك » بالتخفيف ، مع تصريحهم [٣] بأن العرب استغنت فى فصيح كلامها عن : ودَع ، ووزَر ، وودْع ، ووزْر ، وقد ذكر الزمخشرى هنا شاهداً من قول « أبى الأسود الدؤلى » :

ليت شعرى عن خليلى ما الذى غاله فى الحب حتى ودَعه

وقال آخر :

وثَمّ ودَعْنا آلَ عمرٍو وعامــر فرائسَ أَطرافِ المثقَّفة السُّمْرِ

ولكن الجوهرى فى (الصحاح) صرّح بأن مثل هذا ربما جاء فى ضرورة شعرية ، ومثله قول « خُفاف بن نَدبة » :

إذا ما استحمّت أَرضه من سمائه جرى وهو مودوع وواعدُ مصدَق

أى متروك . وقال فى : دع ذا ، أى اتركه : « وأصله ودع يدع ، وقد أُميتَ ماضيه ، لا يقال : ودَعَه ، وإنما يقال : تركه » .

---

(١) غرائب القرآن : ٣٠ /١٠٦ .

(٢) تفسير الرازى : ٨ /٤٢٠ — غرائب القرآن للنيسابورى : ٣٠ /١٠٦ .

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : ٨ /٤٨٥ .

وقد نازعه مُحشّى القاموس ، فى القول بأن « ماضى وَدَع أميت غير أن هذه المنازعة لا تدفع ما قاله « أبو حيان » من أن العرب استغنت فى فصيح كلامها عن ودَع .

والودْع : الترك ، وقد استُعمل حِسيًّا فى الوديعة ، تُترك فى مكانٍ أو لدى من يُرجى أن يؤتمن عليها ، واستعمل التوديع فى الترك لفِراق ، وقال الزمخشرى : « التوديع مبالغة فى الوَدْع ، لأن من ودَّعك مفارقًا فقد بالغ فى تركك » وذلك ما تحكم به قواعدهم ؛ لولا أن العربية استغنت عن الثلاثى من (ودع) فى فصيح كلامها .

ولم يجئ من المادة فى القرآن ، بصيغة الفعل الماضى إلا آية الضحى ، وجاء منها فعل الأمر فى آية الأحزاب ٤٨ :

« ولا تُطِعِ الكافِرين والمنافِقين ودَعْ أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » .

وجاءت صيغة مستودَع مرتين ، عطفاً على مستقَر ، فى :

آية الأنعام ٩٨ : « وهوَ الذى أنْشَأَكم من نَفْسٍ واحِدَةٍ فمستقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ » .

وآية هود ٦ : « وما مِنْ دابَّةٍ فى الأَرضِ إلا على اللهِ رِزْقُها ويعلمُ مُسْتَقَرَّها ومُسْتَودَعَهَا » .

والقِلى : البغض ، وربما كان القلق المادى ، أسبق فى الدلالة الحسية للمادة ، حيث نلحظه بوضوح فيما جاء من استعمالات حسية لها : فالقِلا والمقلى ، عُودانِ يلعب بهما الصبيان ، وقَلا الإبلَ ساقها شديداً ، واللحمَ أنضجه فى المِقلى والمِقلاة .

ومن القلق الملحوظ أصلاً فى المادة ، جاء معنى التجافى والارتحال ، فيقال : اقلولى الرجل : قلق ، ورحل ، وتجافى . وأكثر ما تستعمل المادة يائية ، فى البغض والكره غاية الكراهة ، (القاموس) وقد انتهى « ابن سيده » بالبغض الشديد إلى الترك والهجر ، فقال فى (المحكم) : « قليتُه قلى أبغضته وكرهته غاية الكره فتركته » .

والمادة جاءت فى القرآن مرتين : آية الضحى ، وآية الشعراء ١٦٨ :

« قالوا لئن لم تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتكُونَنَّ من المُخْرَجِين * قال إنى لِعَمَلِكم من القالين »

ودلالتها على البغض والكراهية الشديدة والنفور، واضحة. وبشدة البغض، فسرها «الراغب» فى (المفردات) فى الموضعين.

* * *

ووقفوا طويلا عند حذف ضمير الخطاب : فى قَلَى َ، فقال الزمخشرى : إنه اختصارٌ لفظى ، لظهور المحذوف . ونظَّر له بقوله تعالى :

« والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات »[1]

وهو قريب من قول الطبرى فى تعليل الحذف : « إنه اكتفاء بفهم السامع لمعناه ، إذ كان قد تقدم ذلك قوله : ما ودعك ، فعُرف بذلك أن المخاطب به نبى الله صلى الله عليه وسلم »[2] .

كذلك ذهب « أبو حيان » إلى أن الحذف للاختصار .

لكن النيسابورى أضاف سببًا آخر ، هو رعاية الفاصلة : والضحى سجى . وقال مثل ذلك فى الآيات بعدها : فآوى . فهدى . . . فأغنى[3] .

وعدّ « الرازى » فى حذف الكاف ثلاثة وجوه :

* الاكتفاء بالكاف الأولى فى « ودّعك » .

* أن اتفاق الفواصل ، أوجب حذفَ الكاف .

* فائدة الإطلاق ، أى أنه ما قلاك ولا أحداً من أصحابك ، ولا أحداً ممن أحبك إلى يوم القيامة[4] .

وفى الإطلاق ، على ما بينه الرازى ، توسُّعٌ لا يعطيه صريح السياق خطابًا للمصطفى صلى الله عليه وسلم بعد فتور الوحى .

---

(١) الكشاف : ٤/ ٢١٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/ ١٤٧ .

(٣) غرائب القرآن : ٣٠/ ١٠٨ .

(٤) تفسير الرازى : ٨/ ٤٢٠ .

وأما تعليل الحذف برعاية الفاصلة ، فليس من المقبول عندنا أن يقوم البيان القرآنى على اعتبار لفظى محض ، وإنما الحذف لمقتضى معنوى بلاغى ، يقويه الأداء اللفظى ، دون أن يكون الملحظ الشكلى هو الأصل . ولو كان البيان القرآنى يتعلق بمثل هذا ، لَمَا عدل عن رعاية الفاصلة فى آخر سورة الضحى :

«فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدِّث » .

وليس فى السورة كلها ثاء فاصلة ، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق ، ولم يقل تعالى : فخبِّرْ ، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به .

ويبقى القول بأن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف ، وتقتضيه حساسية معنوية مرهفة ، بالغة الدقة فى اللطف والإيناس ، هى تحاشى خطابه تعالى لحبيبه المصطفى فى مقام الإيناس : ما قلاك . لما فى القِلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شىء فيه من ذلك . بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بالفراق على كره ، مع رجاء العودة واللقاء .

* * *

وقد سبق القول فى هذا التوديع والقلى عند سبب النزول .

ولا نرى أن نقف هنا عندما ورد فى بعض كتب التفسير من تحديد سبب الإبطاء فى الوحى ، كالذى ذكره « الرازى » و«النيسابورى» من أن اليهود سألوا النبى عن ثلاث مسائل : الروح ، وذى القرنين وأصحاب الكهف . فقال صلى الله عليه وسلم : سأخبركم غداً . ولم يقل : إن شاء الله : أو أن الوحى أبطأ ، لأن جرواً للحسن والحسين ، رضى الله عنهما ، كان فى بيت النبى عليه الصلاة والسلام ، فقال جبريل : « أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟ » أو أنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار . . .

وحكاية الجرو هذه ، وردت كذلك فى (البحر المحيط لأبى حيان) ولا أدرى كيف فاتهم أن الحسن والحسين رضى الله عنهما وُلدا بعد الهجرة

بثلاث سنوات وأربع ، وسورة الضحى من أوائل الوحى ، نزلت بمكة قبل الهجرة بسنين . والذى يعطيه ظاهر النص ، أن فتور الوحى ظاهرة طبيعية ، شأنها شأن سجو الليل بعد إشراق الضحى . وهذا يغنينا عن تقديم أسباب والتماس علل للإبطاء فى الوحى ، لم يتعلق القرآن بذكرها .

كذلك لا نرى وجهاً للوقوف عندما ذكر مفسرون فى تحديد مدة الإبطاء ، باثنى عشر يوماً ، أو خمسة عشر ، أو خمسة وعشرين ، أو أربعين [1] ، إذ يغنينا عن مثل هذا ، سكوتُ القرآن نفسه عن تحديد فترة الوحى باليوم أو بالشهر ، ولو كان البيان القرآنى يرى حاجة إلى هذا التحديد ، ليزيد فى اليقين النفسى ، لما أمسك عن ذلك التحديد ؛ لأن مقتضى البيان أن يستوفى كل ما يدعو إليه المقام مما يتصل بغايته، فإذا أمسك هنا عن ذكر سبب الإبطاء وتحديد مدته ، فلأن الذى يعنيه هو جوهر الموقف لا تفصيلاته الجزئية ، فسواء أكان السبب هو ما ذكره المفسرون أم غيره ، وسواء أكانت فترة إبطاء الوحى اثنى عشر يوماً أم أربعين ، وسواء أقال قائل — مَنْ كان — ودّع محمداً ربه وقلاه ، أم أنه صلى الله عليه وسلم شعر بالاستيحاش لفتور الوحى : فالمهم هنا هو جوهر الموقف ، ولا شىء من جزئياته بذى جدوى على المعنى .

* * *

« وَلَلآخرةُ خيرٌ لكَ من الأولى ۝ ولسوف يعطيك ربُّك فترضى » .

الآخرة تأتى غالباً ، مقابل الدنيا . والمعنى الأول فى المادة هو التأخير ، كما أن المعنى فى الدنيا هو الدنو . فإذا اقترنت الآخرة بالدار ، أو باليوم ، غلب أنها اليوم الآخر ، أما إذا أطلقت ، فهى ذات دلالة أعم ، يدخل فيها : النهاية ، والمصير ، والعقبى ، سواء فى هذه الحياة ، أو فيما بعدها .

وفى آية الضحى ، يرجح أن الآخرة هى الغد المرجو ، مجيئها مع « لك » خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أكد الله بهذا الخير الموعود ، نفى التوديع والقلى ، ليذهب عن رسوله أثر فتور الوحى . والصلة بين هذه الآية والآيات

---

(١) تفسير الرازى ، وغرائب النيسابورى ، سورة الضحى .

قبلها، أوضح من أن نتكلف لها الأسباب والوجوه على نحو ما فعل بعض المفسرين كالرازى الذى ذكر فيها وجوهاً ثلاثة :

أحدها : أن انقطاع الوحى لايجوز أن يكون لعزل عن النبوة ، بل أقصى ما فى هذا الباب أنه أمارة الموت ، والموت خير لك لما أعِدّ لك عند الله فى الآخرة .

والثانى : أنه لما نزل قوله : « ما ودّعك ربك وما قلى » ، حصل له تشريف عظيم ، فكأنه استعظم هذا التشريف ، فقيل له إن ما لك عند الله فى الآخرة خير وأعظم .

والثالث — وقد صدره الرازى بقوله : وهو ما يخطر ببالى — وللأحوال الآتية خير لك من الماضية .

ثم عقب على هذا ، بذكر طرق يُعرَفُ بها أن الآخرة خير له من الأولى ، وهى :

* لأنك فى الدنيا تفعل ما نريد ، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل ما تريد .
* وأن الآخرة خير لك ، إذ تجتمع عندك أمتك .
* وهى خير لك لأنك اشتريتها ، أما هذه الدنيا فليست لك .
* وفى الأولى يطعن الكفار فيك ، أما فى الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم ، وأجعلك شهيداً على الأنبياء ، ثم أجعل ذاتى شهيداً لك .
* إن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ، ولذّات الآخرة كثيرة خالصة لك[1] .

وفسر « الشيخ محمد عبده » الآخرة والأولى بالبداية والنهاية ، قال : « ولنهاية أمرك خير لك من بدايته » ثم زاد إيضاحاً : « إن كرّة الوحى ثانياً ، ستكمل الدين وتتم بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحى من نهايته ؟ »[2]

فكأنه يريد أن يحدد الآخرة ، بنهاية الوحى .

---

(١) تفسير الرازى : ٨ / ٤٢١ .
(٢) تفسير جزء عم : سورة الضحى .

وفى القرآن الكريم وردت الكلمة مائة وثلاث عشرة مرة . فيما أحصيت . يغلب أنها للدار أو الحياة الآخرة ، مقابلة للدنيا . على أنها قد تأتى لغيرها بدلالة من صريح السياق ، مثل آية (ص ٧) :

« ما سَمِعْنا بهذا فى المِلَّةِ الآخِرةِ ، إنْ هذا إلا اختلاقٌ » .

ونستأنس فى فهم آية الضحى ، بآيات مثلها جاءت فيها الآخرة مقترنة بالأولى : بواو العطف :

النجم ٢٥ : « فللهِ الآخرةُ والأُولى » .

النازعات ٢٥ : « فأَخَذَه اللهُ نَكَالَ الآخِرةِ والأُولى » .

القصص ٧٠ : « له الحَمْدُ فِى الأُولى والآخِرة » .

الليل ١٣ : « وإنَّ لنا لَلآخرةَ والأُولى » .

فنرى آية الضحى تنفرد عنها بأنها خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فى حالة بعينها هى توهم توديع الله إياه فى أولاه ، وقد نفى الله تعالى هذا التوديع ، ثم أكد له أن أخراه خير من أولاه . وجاءت الآية بعدها :

« ولَسَوفَ يُعطِيكَ ربك فترضى » .

يتكامل بها التجلى الإلهى على المصطفى : ما تركك فيما مضى ، وللآخرة خير لك من الأولى . . .

ولا وجه عندنا لتحديد المقصود بالعطاء فى الآية ، بما ذكره « الرازى » أو غيره بل نؤثر إطلاقه ، مسايرة للبيان القرآنى الذى لم يشأ أن يحدده . فحسبُ الرسول صلى الله عليه وسلم الإعطاءُ الذى يرضيه ، وليس وراء الرضى مطمح ، ولا بعده غاية . وما كان لنا أن نحتكم بأذواقنا وأمزجتنا وشخصياتنا ، وظروفنا وأحوالنا ، فى تحديد هذا الذى يرضى الرسول ، أو نشغل عن تدبر سِرّ البيان فى إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضى ، بمثل ما شغل به كثير من المفسرين : فمن قائل فى العطاء الموعود : « إنه ألف قصر فى الجنة ، فى كل قصر ما ينبغى من الأزواج والخدم » على ما نقل الطبرى بإسناده عن ابن عباس ، وتلقفه مفسرون من بعده لم يكفهم هذا التحديد بالنوع والعدد ، بل زادوا فحددوا مواد البناء : فهى

ألف قصر من لؤلؤ ، ترابهن المسك ، وفيهن ما يصلحهن . عن ابن عباس أيضاً (١) .

واختاروا اللون كذلك ، فقالوا إن القصور الألف من لؤلؤ أبيض (٢) .

وما أرى ألف قصر فى الجنة ، أو ألف ألف ، من لؤلؤ أو غير لؤلؤ ، ترابهن المسك أو العنبر ، بالغةً فى تقدير العطاء الموعود ما تبلغه الكلمة القرآنية « فترضى » بما تمضى فى العطاء ، إلى غاية الرضى .

وآخرون ، ذهبوا فى تفسير العطاء إلى أنه إشارة إلى ما سوف يعطى الله رسولَه من الظفر بأعدائه ، وفتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، والفتوح الكبرى على أيدى خلفائه (٣) .

كما قيل فى العطاء كذلك : إنه الشفاعة والمغفرة « لأن الله أمره بالاستغفار للمذنبين ، ويرضيه — صلى الله عليه وسلم — أن يُجاب طلبه . ولأن مقدمة الآية مناسبة لذلك ، كأنه تعالى يقول : لا أودعك ولا أبغضك ، بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلباً لمرضاتك » كما استدلوا بأن الأحاديث الكثيرة الواردة فى الشفاعة ، دالة على أن رضى الرسول فى العفو عن المذنبين من أمته (٤) .

ردّه « ابنُ القيم » قائلا :

« وأما ما يغترّ به الجهال من أنه صلى الله عليه وسلم ، لا يرضى وواحدٌ من أمته فى النار ، فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، يرضى بما يرضى به تبارك وتعالى ، وهو سبحانه يدخل النارَ من يستحقها من الكفار والعصاة ، ولا يشفع الرسولُ عنده إلا بإذنه » (٥) .

ويميل « ابن القيم » إلى تعميم العطاء « فهو يعم ما فى الدنيا من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع ورفع ذكره وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته » (٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : سورة الضحى ، والنيسابورى على هامشه .
(٢ ، ٣) تفسير الرازى .
(٤) تفسير الرازى ، والنيسابورى .
(٥) التبيان : ٧٤ .
(٦) التبيان : ٧٣ .

ووقف الشيخ محمد عبده، مثل هذا الموقف، فحمل على «ما للمفسرين هنا من كلام فى الشفاعة: وفى تكريم آل بيت النبوة، حشروه فى التفسير حشراً، وأكثره بعيد عن روح الدين الذى جاء به القرآن، والأليق به كتب المذاهب التى ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم»[1].

وفسَّر العطاء بنحو ما فسره به «ابن القيم» فقال: : إنه «توارد الوحى عليك بما فيه إرشاد لك ولقومك: ومن ظهور دينك وعلو كلمتك وإسعاد قومك بما تشرع لهم، وإعلائك وإعلائهم على الأمم فى الدنيا والآخرة»[2].

ونرى مع هذا، أن فى تحديد العطاء، جوراً عليه. والأليق بجلال الموقف أن يُكتفى فيه بالرضى على ما أراد البيان القرآنى، فوق كل تحديد، ووراء كل وصف!

* * *

فى الصنعة الإعرابية، أثار بعض المفسرين هنا مشكلات ما أغنى البيان القرآنى عنها: القاعدة النحوية عندهم أن اللام فى (سوف) إن كانت للقسم، لاتدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، وإن كانت اللام للابتداء فإنها لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر...

لا بد إذن من تكلف واحتيال، لتسوية الصنعة!

وقد رأى «الزمخشرى» أنه «لا بد من تقدير مبتدأ محذوف، وأن يكون أصل العبارة: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى»[3].

وكذلك قال «أبو حيان»: إن اللام هنا لام ابتداء أكدت مضمون الجملة على إضمار مبتدأ أى: ولأنت سوف يعطيك[4].

وندرك جور الصنعة الإعرابية على هذا البيان العالى، إذا احتكمنا

---

(١) تفسير جزء عم: ١١٠.

(٢) تفسير جزء عم: ١٠٨.

(٣) الكشاف: ٤/٢١٩.

(٤) البحر المحيط: ٨/٤٨٦.

إلى حِسِّ العربية ، ووازنّا بين التعبير القرآنى « ولسوف يعطيك ربك فترضى » وذلك التأويل المقدر ، الذى قال عنه « الزمخشرى » إنه الأصل : ولأنت سوف يعطيك .

وأراهم جاوزوا قدرهم ، حين يؤولون الآية المحكمة من البيان الأعلى ، فيقول قائلهم : لابد من تقدير كذا . . . لأن أصل التعبير كذا !

وكان يكفى أن يأتى التعبير فى الكتاب العربى المبين ، ليكون هو الشاهد والحجة ، والأصل الذى تـُعرض عليه كل قاعدة لغوية أو بلاغية ، لا أن نحكّم فيه قواعد النحاة والبلاغيين ، فى دراستهم للعربية علماً وصنعة ! !

وأثار بعضهم كذلك مشكلة أخرى :

كيف يجتمع التوكيد المستفاد من اللام ، مع التسويف الصريح فى « سوف » ؟ ثم أجابوا بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر ، لما فى التأخير من مصلحة [١] .

وربطه الشيخ محمد عبده بإكمال الدين فقال : « إن إكمال الدين لم يتم إلا فى أكثر من عشرين سنة ، ونزلت الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فاستعمال حرف التسويف لذلك » [٢] .

وهم هنا ، كدأبهم ، يثيرون مسائل ثم يتكلفون لها الجواب . تأكيدُ المستقبل ليس بموضع سؤال ، ولا هو ببعيد عن مألوف العربية . والبيان إنما يتسق هنا ويتكامل بلفظ « سوف » إيناساً للرسول المصطفى بأنه كان وسوف يظل موضع عناية ربه : فى أمسه وغده ، فى أولاه وأخراه . . .

* * *

---

(١) كشاف الزمخشرى ، وغرائب النيسابورى ، وتفسير الرازى : سورة الضحى .

(٢) تفسير جزء عم . والآية من سورة المائدة : ٣ .

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * ووَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى *
ووَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى» .

مناسبة ارتباط هذه الآياتَ لما قبلها واضح ، فهو تعالى يبث فى نفس الرسول الطمأنينة ويثبت قلبه بلفتته إلى ما أسبغ الله عليه فى أولاه من نعم : كان يتيماً ، بل مضاعف اليُتم ، فآواه ووقاه مسكنة اليتم ، وكان ضالاً حائراً ، فهداه تعالى إلى دين الحق ، وكان عائلا فأغناه بفضله وكرمه ، أفما يكفى هذا ليطمئن المصطفى إلى أن الله غير تاركه ولا مودعه ؟ وهل تركه حين كان صبياً يتيماً معرضاً لما يتعرض له الصبية اليتامى من قهر وضياع ؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة ، حائراً يرهقه التفكير فى ضلال قومه ثم لا يدرى سبيل النجاة ؟

لكن الآيات البينات لم تفهم بهذا اليُسْر ، وإنما ذهب المفسرون إلى تأويلات شتى ، لتحديد المقصود باليتم ، والغنى ، والضلال .

ونعرض أولا أقوالهم فى اليتم والإيواء ، والعيلة والإغناء ، والضلال والهدى ، ثم نحتكم فيها إلى القرآن الكريم :

فى اليتم والإيواء ، قال «الرازى» : إنه من قولهم درة يتيمة ، والمعنى : ألم يجدك واحداً فى قريش عديم النظير ، فآواك أى جعل لك من تأوى إليه وهو أبو طالب ، وقرئ : فأوى — بالتخفيف ، أى رحم .

ويقول الزمخشرى ، مُحقاً : «إن تفسير يتيم هنا بالدرة اليتيمة ، من بدع التفاسير» وإنما اليتم عنده فقدان الأب ، ومثله أبو حيان فى البحر ،

وقال : «الراغب» فى المفردات : اليتم — فى آية الضحى — انقطاع الصبى من أبيه قبل بلوغه .

وهذا هو الأصل فى اليتم لغة ، ثم قيل لكل منفرد : يتيم ، ومنه الدرة اليتيمة أى المنفردة .

والقرآن استعمل اليتيم ، مفرداً ومثنى وجمعاً ، ثلاثاً وعشرين مرة ، كلها بمعنى اليتم الذى هو فقدان الأب .

ويُلحظ فيه اقتران اليتم بالمسكنة فى أحد عشر موضعًا :

البقرة ٨٣ ، ١٧٧ ، ٢١٥ ، والنساء ٨، ٣٥ ، والأنفال ٤١ ، والحشر ٧ والدهر ٨ ، والفجر ١٧ ، والبلد ١٥ ، والماعون ٢ .

كما ذُكر فيه من آثار اليتم : الجورُ ، وأكل المال

« إن الذين يأْكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأْكلون فى بطونهم نارًا وسيصلَوْن سعيرا » . النساء ١٠ — ومعها : الأنعام ١٥٢ والإسراء ٣٤ والنساء ٢ ، ٦ .

وعدم الإكرام : « كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تَحَاضُّون على طعام المسكين » . الفجر ١٧ .

والدعّ . الذى هو الدفع العنيف مع جفوة :

« أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدُعّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين » . الماعون ١ : ٣ .

والقهر ، فى آية الضحى .

وأمام هذا التتبع ، لا نملك إلا أن نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذى فى القرآن ، وقد وُلد محمد يتيماً ، ثم تضاعف يُتمه بموت أمّه وجدّه ، لكنه تعالى نجاه من آثار اليتم التى هى ، بشواهد من آيات الكتاب الكريم : الدعّ والقهر ، والانكسار والجور . مما كان مظنة أن يكسر نفسه. فذلك هو قوله تعالى : « ألم يجدك يتيمًا فآوى » ترشيحًا بهذا الإيواء الإلهى — غير المقيد بمتعلق — إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة وضلال ، وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى .

وقد جاء الفعل من « أوى » فى القرآن ، أربع عشرة مرة ، لا يخطئ الحس فيها جميعًا معنى المأمن والحمى والملاذ ، إما حقيقة ، وإما على سبيل الرجاء ، وهو ما سوف نزيده تفصيلا ، فى سورة النازعات .

* * *

«وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى » .

أصل الضلال فى الاستعمال اللغوى ، من فقدان الطريق : أرض مُضِلة ، يُضَل فيها . والضلّة الحيرة .

ونقيض الضلال : الهدى ، وقد استعملته العربية حسيًّا فى الصخرة الناتئة فى الماء يؤمَن بها العثار ، وفى وجه النهار ، يكشف معالم الطريق فيؤمن الضلال . ثم جاء الاستعمال المعنوى للضلال والهدى ، ملحوظًا فيهما الأصل الحسى ، والاستعمال فى المصطلح الدينى للضلال والهدى بمعنى الكفر والإيمان ، وقَوِىَ هذا الاستعمال الاصطلاحى حتى كاد يكون هو المتبادر ، عند الإطلاق .

والقرآن الكريم ، قد استعمل الضلال بمعنى الكفر والباطل « فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضلالُ » مع بقاء الملحظ الحسى اللغوى الذى هو ضلال الطريق ، بدليل اقتران الضلال بالسبيل ، عشرين مرة ، ومعها آية السجدة ١٠ :

«وقالوا أَئِذَا ضَلَلْنا فى الأَرضِ أئنا لفى خلق جديد » .

ويؤيد هذا الملحظَ ، استعمالُ العَمَى فى الضلال ، فى آية النمل ٨١ :

«وما أَنتَ بهادِى العُمْىِ عن ضَلالتِهم » .

وفى آية الإسراء ٧٢ :

«ومَنْ كان فِى هذه أَعمَى فهو فى الآخرة أعمى وأَضَلُّ سبيلا » .

ومن المفسرين من قالوا فى آية الضحى : إن الضلال هنا هو الكفر ، ذكره « الرازى » معزواً إلى الكلبى والسدّى ومقاتل ، بمعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان على أمر قومه أربعين سنة (١) .

وأنكره جمهور المفسرين ، وردوه بأن الأنبياء يجب أن يكونوا معصومين ، قبل النبوة وبعدها ، من الكبائر والصغائر الشائنة ، فما بال الكفر ؟ !

وذهبوا بعد ذلك فى تأويل الضلال ، مذاهب شتى بلغت ، فى تفسير

---

(١) التفسير الكبير : ٨ /٤٢٤ .

الرازى وحده ، عشرين تأويلا[١] ! منها الضلال عن القبلة ، ومنها الضلال عن الهجرة متحيراً فى يد قريش يتمنى فراقهم ولكن لا يمكنه الخروج بغير إذن من ربه ، ومنها الضلال عن أمور الدنيا وشئون التجارة ، فهداه الله فربحت تجارته!

وقد نعلم من السيرة النبوية وتاريخ عصر المبعث ، أن سيدنا محمداً كف عن شواغل التجارة قبل المبعث منذ آثر الاعتكاف والخلوة فى غار حراء ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، لم يتجه إلى الهجرة من مكة ، إلا فى عام الحزن ، قبل الهجرة بثلاث سنوات ، أى بعد نزول آية الضحى بسنين وصريح نصها ، فيما كان من ماضى حال المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لا فيما يستقبل من أمره .

وذكر الزمخشرى وأبو حيان فى تفسير الضلال ، أن سيدنا محمداً ، « ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، فردّه الله إلى جده ، وقيل ضلاله من حليمة مرضعته ، وقيل ضل فى طريق الشام . »

واستطرد أبو حيان يقول : إنه فكر طويلا فى هذه الآية ، غير مطمئن إلى أقوال المفسرين فيها ؛ وشغل بها فى منامه ، فإذا به يقول : وجدك ضالاً فهدى ، أى وجد رهطك ضالاً فهداه بك . على حذف المضاف ، أى رهط . ونظيره عنده ، قوله تعالى : « واسأل القرية » أى أهلها[٢] .

وما بنا حاجة إلى كل هذه التأويلات ، ما ذكرناه منها وما لم نذكر ، بل يكفى فى الرد على من فسروا الضلال بالكفر ، أن الاستعمال القرآنى لا يلتزم دائماً هذا المعنى الاصطلاحى ، وإنما لُحظ فيه — كما رأينا — الأصلُ اللغوى من ضلال الطريق ، أو عدم الاهتداء إلى الصواب :

قال إخوة يوسف لأبيهم : «تا اللهِ إنك لَفِى ضلالِك القديم » وقالوا : «إن أبانا لفى ضلالٍ مبين»

وليس الضلال هنا كفراً ، وإنما هو الشغفَ بيوسف .

---

(١) التفسير الكبير : ٨ /٤٢٥ .

(٢) البحر المحيط : ٨ /٤٨٦ .

وقالت النسوة فى امرأة العزيز ويوسف : «قد شغفها حُبًّا إنا لَنراها فى ضلال مبين» .

وفى آية الشعراء (٢٠) حكاية عن موسى : «قال فعلتُها إذًا وأَنا من الضالين» .

وفى شهادة رجل وامرأتين على الدَّين بآية (البقرة٢٨٢) : «أن تَضِلَّ إحداهما فتُذكِّرَ إحداهما الأُخرى» .

وليس شىء من هذه الآيات بالذى يُحمَل الضلال فيه ، على معناه الاصطلاحى وهو الكفر .

فالاحتكام إلى القرآن الكريم نفسه ، يعفينا من التزام المصطلح فى لفظ الضلال بمعنى الكفر ، وهو أيضًا يعفينا من تلك التأويلات العشرين التى تكلفوها فى تفسير الآية لينفوا الكفر عن سيدنا محمد قبل أن يبعث .

وغريب عندنا كذلك ، أن نتصوُر أن الله منَّ على رسوله ، بأنه رده إلى أهله حين ضل فى شعاب مكة ، أو عند حليمة ، أو فى طريق الشام ! وإن من صغار الأطفال من يضل فيرده إلى أهلهم رادٌّ ، ربما كوفئ ببضعة دراهم (حلاوة) نظيرَ معروفه !

ومثله فى الغرابة ، أن تكون نعمةُ الله على من اصطفاه لرسالته ، أنْ ربحت تجارته ، بعد ضلاله فى أمورها وفى شئون الدنيا !

وقد قال : «الراغب» فى تفسير الضلال : إنه ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً ، قليلا كان أو كثيراً[١] .

ولانقول هنا إلا ما قاله الله تعالى لنبيه المصطفى : «ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان»[٢] فقد كانت حالته قبل المبعث حالة حيرة : عاف حال قومه وأنكرها، ولكن أين الطريق المستقيم؟ وكيف المخرج والنجاة؟

---

(١) المفردات : مادة ضل.   (٢) سورة الشورى آية ٥٢.

ولبث على حيرته أمداً ، حتى جاءته الرسالة فهدته إلى الدين القيم وأبانت له سواء السبيل بعد طول حيرة وضلال .

وإلى مثل هذا ، ينتهى رأى « الشيخ محمد عبده »[1] .

ونحن بهذا فى غنى عما لجأ إليه أبو حيان فى رؤياه ، من افتراض مضاف محذوف ، على تقدير : وجد رهطك ضالاً فهداه بك . . .

* * *

« ووجدك عائلا فأغنى » .

العيْلة فى اللغة الفاقة والعوز . يقال : عالنى الشيء ، إذا أعوزنى . ومنه قالوا للرجل : عائل ، إذا كثر عياله لأنهم عالة. ولُحِظ فيه مع كثرة العيال ثقلُ العبء مما يُظَنّ معه الضيقُ المادى والعَوز ، ومن ثم قيل : عال ، بمعنى افتقر .

ولم ترد المادة فى القرآن إلا مرتين :

آية الضحى ، وآية التوبة ٢٨ :

« وإن خِفتم عَيْلَةً فسوف يُغنيكم اللهُ من فَضله إن شاء » .

وهى فى المرتين ، كلتيهما ، مقابَلة بالغنى .

فما الغنى ؟

أخذه مفسرون بمعنى الإثراء ، وهو المعنى القريب المتبادر ، ففسروا آية الضحى بأن الله تعالى : « أغناه فى صباه بتربية أبى طالب ، ولما اختلّت أحواله أغناه بمال خديجة ، ولما اختل ذلك أغناه بمال أبى بكر ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ، ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم »[2] .

واختصر الشيخ محمد عبده هذه السلسلة من الاختلال والإغناء ، مكتفياً بربح التجارة ، ومال السيدة خديجة ، قال :

---

(١) تفسير جزء عم : سورة الضحى .

(٢) بنصه من تفسير الرازى : ٨ /٤٢٦ . ومثله فى كشاف الزمخشرى وغرائب النيسابورى : سورة الضحى .

« وكان الرسول فقيراً لم يترك له والده من الميراث إلا ناقةً وجارية ، فأغناه الله بما ربحه فى التجارة ، وبما وهبت له خديجة من مالها »[١] .

وأحسبه بهذا الاكتفاء ، أراد أن يتقى المشكلة الزمنية التى أحوجت مفسرين إلى تأوُّل بعيد . فالسورة مكية مبكرة بلا خلاف ، وهذا الغنى بالأنصار والغنائم قد كان بعد الهجرة ، ومن ثم قالوا : « إن هذا كله كان من معلوم الله ، وهو كالواقع ، فيكون من قبيل الإخبار بالغيب ، وقد وقع بعد ذلك فيكون معجزاً »[٢] .

على أنهم ذكروا مع غنى المال ، احتمالَ أن يكون الغنى هو القناعة ، وغنى القلب ، والصبر ، والكفاف[٣] .

وجعل « الراغب » الغنى ضروباً : فهو عدم الحاجات وليس ذلك إلا لله ، وهو غنى النفس ، وكثرة المقتنيات ، والتعفف[٤] .

* * *

وأول ما نلحظه حين نحتكم إلى القرآن ، أن الغنى فيه غير مرادف للثراء الذى لم يستعمله القرآن قط . وأسند الغنى إلى غير المال فى مثل آيات :

الأعراف ٤٨ : « ما أَغنَى عنكمْ جمعُكم » ومعها الأنفال ١٩ .

هود ١٠١ : « فما أَغْنَتْ عنهم آلهتُهم التى يَدْعُون من دونِ الله مِنْ شىءٍ » .

يونس ٣٦ : « وما يتَّبعُ أكثرُهم إلا ظنًّا ، إنَّ الظنَّ لا يُغْنِى من الحقِّ شيئاً » . ومعها آية النجم ٢٨

يونس ١٠١ : « قل انظروا ماذا فى السَّمٰوَاتِ والأَرضِ ، وما تُغنى الآياتُ والنذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون » . ومعها آية القمر : ٥

(١) تفسير جزء عم : ١١٢ .
(٢) غرائب القرآن : ٣٠/١٠١ .
(٣) البحر المحيط : ٨/٤٨٦ — والكشاف ٤/٢٢٠ .
(٤) مفردات القرآن : مادة غنى .

يوسف ٦٧ : «وما أُغنِى عنكم من اللهِ من شىءٍ إنِ الحُكمُ إلا لله».

الطور ٤٦ : «يومَ لا يُغنِى عنهم كيدُهم شيئاً».

المرسلات ٣١ : «انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذى ثلاثِ شُعَبٍ ، لا ظَلِيلٍ ولا يُغنِى من اللهبِ».

الغاشية ٧ : «ليس لهم طعامٌ إلا مِنْ ضَرِيعٍ ، لا يُسمِنُ ولا يُغنِى من جوعٍ».

النجم ٢٦ : «وكَم من مَلَكٍ فى السموات لا تُغنِى شفاعتُهم شيئاً إلا من بعدِ أن يأْذَنَ اللهُ لمن يشاء ويَرضى».
ومنها يس ٢٣ والتحريم

الجاثية ١٩ : «إنهم لن يُغنوا عنكَ من اللهِ شيئاً».

عبس ٣٧ : «لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيه».

إبراهيم ٢١ : «وبرزوا للهِ جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنَّا كُنَّا لكم تَبَعاً فهل أَنتم مُغْنُونَ عنا من عذابِ اللهِ مِنْ شىءٍ» ؟ ومنها آية غافر ٤٧ .

ولا يمكن أن يُفسَّرُ الإغناء فى أى موضع منها بالإثراء .

* * *

وجاء الغنى بمعنى الاستغناء ، فى مثل آيات :

التغابن ٦ : «فكَفَرُوا وتولَّوا ، واستغنى اللهُ واللهُ غَنِىٌّ حميد».

عبس ٥ : «أَما مَن استغنى ، فأَنتَ له تَصدَّى».

العلق ٧ : «كَلَّا إن الإنسانَ ليَطْغَى ، أن رآه استغنى».

وفرّق القرآن بين الغنى والمال ، فقد يكون الغنى مع الفقر المالى كما فى : آية البقرة ٢٧٣ : «للفقراءِ الذين أُحْصِرُوا فى سبيلِ اللهِ لا يستطيعون ضَرْباً فى الأَرْضِ ، يَحْسَبُهم الجاهلُ أَغنياءَ من التَعَفُّفِ » .

ونظيره نَفْىُ الغِنى مع المالِ والشراء ، فى مثل آيات :

المسد ٢ : « ما أَغنى عنه مالُه وما كَسَب » .

الحاقة ٢٨ : « ما أغنى عنِّى مَالِيَه » .

الليل ١١ : « وما يغنى عنه مالُه إذا تَرَدَّى » .

الجاثية ١٠ : « ولا يُغنى عنهم ما كسبوا شيئاً » .

ومعها آية الحجر ٨٤ . وآيات آل عمران ١٠ ، ١١٦ والمجادلة ١٧ :

« لن تغنى عنهم أموالهم » .

والغنىّ ، من أسماء الله الحسنى ، « والله الغنى وأنتم الفقراء » . وقد ورد فى القرآن سبع عشرة مرة ، وليس من أسمائه تعالى « الثرىّ » .

وإن يكن القرآن استعمل الغنى للمال فى مثل آيات (النساء ٦ ، ١٣٠ ، ١٣٥ وآل عمران ١٨١ والتوبة ٩٣ والحشر ٧) فلسنا نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أثرى بعد المبعث أو اقتنى مالا ، بل لا نعرف أن مستوى حياته قد تغير ماديًّا ، بعد أن أفاء الله عليه ما أفاء من غنائم ، فحَمْلُ الغِنى على الثراء المالى ، لا يُعِينُ عليه ما نعلم من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تعفف وتجمل مع فقر ، ومن قناعة وزهد وتواضع فى المأكل والمشرب والمسكن ، بعد أن سعت إليه الدنيا . ولو كان غِنى المالِ مما يَعُدُّه الله من نِعَمِه على رسوله فى الدنيا ، لكان هناك من مشركى قريش ، أمثال أبى لهب وأبى سفيان ، وأبى جهل بن هشام ، من هم أَوْلى بذاك ، على ما نعلم ويعلم المفسرون مما قاسى المصطفى من فقر مالى ، فى صباه ، ثم بعد المبعث فى محنة الحصار بشعْب أبى طالب ، وعلى ما صحت به الأخبار من بساطة حياته صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أتم الله عليه بالنصر نعمته .

وإنما أغناه الله بالتعفف وسدّ الحاجة ، فلم يذله فقرُ المال ، كما لم يكسر اليتمُ نفسَه ، بل وقاه الله وقاية نفسيةً معنوية من آثار اليتم والفقر والضلال ، وليست وقاية مادية ترد إليه أباه الذى مات قبل مولده ، وتملأ خزانته بالمال ، وتهيئ له رغد العيش .

واليتم مظنة الضياع والقهر :

« وَلْيَخْشَ الذين لو تَركُوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَةً ضِعافاً خافوا عليهم » .

والفقرُ مظنة الذلّ والعوز ، وقد وجد الله محمداً يتيماً عائلا ، فأغناه سبحانه ، منذ كان ، من تلك الآثار البغيضة ، وسلّم جوهرَه من الآفات التى كان معرضاً لها بحكم يُتمه وعَيْلتِه ، وبذلك تم فيه الاستعداد النفسى لتلقى الرسالة الكبرى التى بُعث بها ليقى الناسَ من المذلة والهوان والضلال .

واستعمل القرآن فى الآيات الثلاث ، الفعل « وجد » وهو من أفعال القلوب ولم يقل مثلا : أما كنت يتيماً ، وكنت عائلا ؛ فسيطر الجو المعنوى النفسى على الموقف ، وتهيأت للرسول الطمأنينة الوجدانية لتلقى الآيات الكريمة .

وفى حذف كاف الخطاب من : « فآوى ، فهدى ، فأغنى » قال مفسرون بالحذف لرعاية الفواصل . وهو ما لا نرى البيان العالى يتعلق به . وأوْلى منه قولُ من قالوا بالحذف لدلالة صريح السياق على المخاطب . ونضيف إليها فائدة الإطلاق ، فتحتمل : فآواك وآوى برسالتك اليتامى والمستضعفين ، فهداك وهدى بك أمتك ، فأغناك وأغناها بك .

* * *

« فأَمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ * وأمّا السائِلَ فلا تَنْهَرْ * وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

قال المفسرون هنا فى قهر اليتيم : لا تغلبه على ماله وحقه لضعف حاله (١) .

وقال أبو حيان : إنه التسليط بما يؤذى ، ومنعُ اليتيم حقَّه (٢) .

---

(١) الكشاف ، وتفسير النيسابورى : الضحى .

(٢) البحر المحيط جـ ٨ .

وترى الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية « فلا تقهر » أعمق وأدق من أن يُضبط بهذه التفسيرات المحدودة ، فلا الظلم ، ولا التسلط بما يؤذى ، ولا منع الحق ، ببالغ فى التأثير ما يبلغه قوله تعالى : فلا تقهر . إذ يجوز أن يقع القهر ،مع إنصاف اليتيم ، وإعطائه ماله ، وعدم التسلط عليه بالأذى : لأن حساسية اليتم ، بحيث تتأثر بالكلمة العابرة ، واللفتة الجارحة عن غير قصد ، والنبرة المؤلمة بلا تنبه ، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلَبةٌ على مالـه وحقه .

والقهر فى اللغة : الغلبة ، وقد جاء من المادة فى القرآن صيغة القهر (الأنعام ١٨ ، ٦١) وقاهرون (أعراف ١٢٧) والقهار (يوسف ٣٩ ، الرعد ١٦ ، ص٦٥، الزمر ٤ ، إبراهيم ٤٨ ، غافر ١٦)

وكل قاهر ، وقهار ، فى القرآن الكريم ، من صفات الله تعالى ، مع اقتران القهَّار بالواحد ، فى الآيات الست التى وردت فيها : « وهو الواحد القهار » .

وفى هذا ما يؤذن بأن المخلوقَ لا يَحِلُّ له أن يتسلط بالقهر على مخلوق مثله ، فكيف باليتيم المحتاج إلى الرعاية والعطف ؟ !

وجاء منه « قاهرون » على لسان فرعون فى آية الأعراف :

« قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » انتحالاً لصفة الربوبية ممن حشر فنادى « فقال أنا ربكم الأعلى » .

أما الفعل من القهر ، فلم يأت فى القرآن كله ، فى غير آية الضحى ، خاصة باليتيم ، وجاء دَعُّ اليتيم تكذيباً بالدّين فى آية الماعون :

« فذلك الذى يَدُعُّ اليتيمَ » بما فى الدعِّ من قسوةِ الدفع والزجر .

وآية الفجر : « كلَّا بل لا تُكرمون اليتيم » .

* * *

وفى « السائل » قيل : هو المُستَجدى ، وقيل هو طالبُ العلم (الزمخشرى والنيسابورى) وصرح ابن القيم بأن « آية الضحى تتناولهما معـًا » يعنى : سائلَ المعروف والصدقة ، وطالبَ العلم [1] .

---

(١) التبيان : ٧٣ .

واختار « الطبرى » كلَّ ذى حاجة[١] .

واختار الشيخ محمد عبده : المستفهمَ عما لا يعلم[٢] ، وهو عندنا أولى بالمقام ، ويؤيده الاستئناسُ بالاستعمال القرآنى لمادة « سأل » حيث ترد كثيراً فى هذا المعنى ، كما يرجحها سياقُ الآيات قبلها .

* * *

أما النعمة ، فهى النبوة عند جمهرة المفسرين ، وخصَّصها قوم بالقرآن ، واتجه بها الشيخ محمد عبده إلى الغنى بعد عيلة فى نسق السورة ، مقابلة لقوله تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » .

قال : « وقد يقال إن المراد بالنعمة النبوة ، ولكن سياق الآيات على أن هذه الآية مقابلة لقوله : " ووجدك عائلا فأغنى " فتكون النعمة بمعنى الغنى ، ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله : " ووجدك ضالاًّ فهدى " » .

أما الزمخشرى ، فردَّ النعمة إلى ما سبق من إيواء ، وهداية ، وإغناء .

وعمَّ بعضهم بها جميع النعم .

واللفظ — لغة — يحتمل هذا ، ففى العربية من الاستعمالات الحسية للمادة : الناعمة الروضة ، والتنعيمة شجرة ناعمة الورق ، والنَّعم الإبل والشاء . ومن معانى النعمة : الفرح والمسرة ، والإكرام ، والخفض ، والدعة ، والرفاهة ، والعطية ، واليد البيضاء الصالحة .

وتتبع المادة فى القرآن ، لا يمنع — والله أعلم — شيئًا مما قاله المفسرون ، وإن كنا نلمح لها فى آية الضحى دلالة خاصة ، يوحى بها السياق . وقد التفت « الزمخشرى » — كما رأينا — إلى صلتها بما قبلها من إيواء وهدى وإغناء ، وبقى ملحظ آخر ، وهو ما تعلق بالنعمة : « فحدِّثْ » وفيه ما يوجِّه إلى دلالة خاصة للنعمة فى هذه الآية .

قال المفسرون فى التحديث بالنعمة : إنه شكرها وإشاعتها ، واحتاط

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠ /١٤٨ .

(٢) تفسير جزء عم : ١١٥ .

جماعة — منهم الزمخشري والفخر الرازى وتابعهما الشيخ محمد عبده — فذكروا فى التحدث بنعمة الله « أنه إنما يحسن حين لا يكون ذلك عن رياء أو تشبه بأهل السمعة » .

وهو احتياط فى غير موضعه ، فماذا كان يُظن به صلى الله عليه وسلم أن يقول فى التحدث بنعمة الله مما يشتبه بالرياء والسمعة ؟ ومن أى السبل يمكن أن نتصور احتمال الرياء والتشبه بأهل السمعة ، ممن اصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين ، وقال فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ؟

وحَمْلُ التحدث هنا على الشكر ، إذا سمح به الاستعمال اللغوى ، فإن السياق لايعين عليه ، وإنما التحدث هنا ، هو صريح ماتعلق به مما يتصل بمهمة الرسول التى اصطُفِى لها ، وهو أن يبلغ رسالة ربه . ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا ، مهما يكن من دلالاتها المعجمية اللغوية ، هى الرسالة ، أكبر النعم التى يؤثر بها نبي مرسل .

وقد التفت « الرازى » إلى ملحظ ، يتصل بترتيب الآيات الثلاث الأخيرة فى السورة ، لكن على غير الوجه الذى ذكره الشيخ محمد عبده فيما نقلنا له من قول .

ففى الآيات الثلاث ، قدّم الله النهى عن قهر اليتيم ، ونهر السائل ، على التحدث بنعمته تعالى . ويقول الرازى فى ذلك « إن الله أخَّرَ حقَّ نفسه وهو الشكر ، وقدَّم حقَّ اليتيم والسائل ، لأنه غنى وهما محتاجان ، وتقديم حق المحتاج أولى » ، كما لحظ اعتباراً آخر ، وهو : « أنه تعالى وضع فى حظهما الفعل ، ورضى لنفسه بالقول » يعنى التحدث بنعمته .

ولا بأس بالملحظين كليهما . وقد نرى فى ترتيب الآيات ، أنه تعالى ، نبه رسوله الكريم إلى أن إصلاح الجماعة ، يأتى فى المنزلة الأولى من الاعتبار والتقدير ، حين أجمل له فى هذه الآيات الكريمة من مهمة رسالته : أن تدفع ذلَّ الفاقدين ، وقهرَ اليتامى ، وحيرةَ السائلين ، فهى رسالة إصلاح وهداية أُمِرَ النبى صلى الله عليه وسلم بالتحدث بها وتبليغها « فهل على الرسول إلا البلاغُ المبين » ؟

سورة الشرح

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ».

صدق الله العظيم

فراغ

السورة مكية ، نزلت بعد سورة الضحى ، واقترنت بها فى رواية تقول إن الضحى والشرح سورة واحدة لما يبدو من المناسبة فى سياق تعديد النعم ، بين قوله تعالى فى سورة الضحى : ألم يجدك يتيما فآوى . . . وقوله فى الشرح : ألم نشرح لك صدرك . . .

وردّه « النيسابورى » قائلا :

« وفيه ضعف ، لأن القرآن كله فى حكم كلام واحد . . . على أن الاستفهام فى الضحى وارد بصيغة الغيبة ، وفى الشرح بصيغة المتكلم ، وهذا مما يوجب المباينة لا المناسبة »[1] .

ولم يشر الطبرى والزمخشرى والقرطبى إلى موضوع اقتران السورتين ، كما لم يشر إليه علماء القراءات[2] .

وقال الشيخ محمد عبده : « السورة مكية عند الجمهور ، بل زعم بعضهم أنها تتمة لسورة الضحى ، وعلى هذا تكون المِنّة بشرح الصدر ، مبنية على عود الوحى والتبشير بما جاء فى سورة الضحى » .

قوله : إنها مكية عند الجمهور ، يُشعر بأن من المفسرين من ذهب إلى كونها مدنية ، وقد قال « البقاعى » إنها مدنية بناء على « ما يفهم من التقرير بشرح الصدر وما بعده . وهذا إنما كان بعد ظهور القوة ، وبعد أن فتح الله على المسلمين ما فتح عليهم ، وأكمل لهم النعمة بغلبة حقهم على باطل خصومهم » . ويرد على هذا ، أن فى كثير من السور المكية ، ما يقرر قوة المسلمين ، وغلبة حقهم على باطل خصومهم .

وجاءت السورة فى بعض التفاسير مثل الطبرى باسم « ألم نشرح » وفى تفاسير أخرى : سورة الانشراح .

* * *

(١) غرائب القرآن ، على هامش الطبرى : سورة الشرح .

(٢) انظر : الدانى ، فى (كتاب التيسير) ص ١٧ طبع استانبول ١٩٣٠ .

وأكثر المفسرين على أن الشرح هنا هو الفسحة والبسط والتوسعة ، وهو قريب من الأصل اللغوى للفظ الشرح ، لكن المفسرين زادوه تفصيلا ببيان ما كان من هذا الشرح ، فقال الطبرى : « إنه الشرح للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحق . . . وجعلنا صدرك وعاء للحكمة » .

وقال الزمخشرى : « شرحنا لك صدرك ، فسحناه حتى وسعَ هموم النبوة ، أو حتى احتمل المكاره التى يتعرض لك بها كفارُ قومك وغيرهم . أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذى يكون مع العمى والجهل » [1] .

وقال الشيخ محمد عبده : « وقد شرح الله صدر نبيه بإخراجه من تلك الحيرة التى كان يضيق لها صدره ، بما كان يلاقيه فى سبيله من جمود قومه وعنادهم » [2] .

وهى معان متقاربة ومقبولة ، على أن من المفسرين ، كالنيسابورى ، من أضاف إليها معنى ماديًّا ، فساق فى تفسير الشرح احتمال أن تكون فسحًا حقيقيًّا — لا مجازيًّا — للصدر ، « لما يُروى من أن جبرائيل أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصى ، ثم ملأه علمًا وإيمانًا » [3] .
وجاء مثل هذا فى « البحر المحيط » عن ابن عباس [4] .

وكان ينبغى لمثل هذا التأويل ، أن يُنظَر فيه إلى آيات شرح الصدر فى القرآن ، لنرى هل هى خاصة بنبينا عليه الصلاة والسلام ، فتتعلق بالمروى فى السيرة عن شق الملائكة صدره ، أيام كان طفلا ببادية بنى سعد ؟ أو أنها أقرب إلى الشرح المعنوى للإيمان والهدى ؟
و « الراغب » اتجه إلى قريب من هذا ، حين ضم آية الضحى إلى قوله تعالى : « رب اشرح لى صدرى » بسورة طه ، وقوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره » بآية الزمر ٢٢ ، وتمامها :

---

(١) الكشاف : سورة الضحى .
(٢) تفسير جزء عم : ١١٦ .
(٣) غرائب القرآن : ٣٠ / ١١٥ .
(٤) جـ ٨ / ٤٨٧ .

« أفمَن شرح اللهُ صدرَه للإسلام فهو على نورٍ مِن ربه ، فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذِكرِ الله ، أولئك فى ضلال مبين » .

ثم اطمأن بها إلى أن « شرح الصدر بسطه بنور إلهى وسكينة من جهة الله وروح منه »[1] .

وآية طه خاصة بموسى عليه السلام ، وبعدها : « ويَسِّرْ لى أمرى * واحلُلْ عُقدةً من لسانى * يفقهوا قولى » . وآية الزمر نزلت فيمن « شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ولا مجال فيهما لقولٍ بشق الصدر وانتزاع القلب ثم غسله وتطهيره ، مما ذكر النيسابورى وأبو حيان ، عن ابن عباس ، فى تأويل آية الشرح .

وفى القرآن الكريم من آيات شرح الصدر ، غير ما ذكره الراغب آيتا :

النحل ١٠٦ : ولكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْرًا فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم * ذلك بأنهم استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة وأن اللهَ لا يَهدى القومَ الكافرين * أُولئك الذين طَبَع اللهُ على قلوبِهم وسمعِهم وأبصارِهم ، وأُولئك هم الغافلون » .

الأنعام ١٢٥ : « فمن يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَه يَشْرحْ صدرَه للإسلام ، ومن يُرِدْ أن يُضِلَّه يَجْعَلْ صدرَه ضيِّقاً حَرَجاً كأنما يَصَّعَّدُ فى السماءِ ، كذلك يجعلُ اللهُ الرِّجسَ على الذين لا يؤمنون » .

والآيات الخمس مكية . والشرح فيها جميعا للصدر .

وقد اقترنت بالنور فى آيتى الزمر والأنعام ، وباليسر فى آيتى طه والشرح ، ومع اليسر فى الأولى حل العقدة من اللسان ، وفى الثانية رفع الوزر .

وقوبلت فى « آية النحل » بغفلة الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ،

---

(١) مفردات القرآن : مادة شرح .

وفى « الزمر » بقسوة القلب والضلال المبين ، وفى « الأنعام » بضيق الصدر وحرَجِه ورجس الكفر . .

وهذا التتبع ، يزيدنا بعدا عن المعنى المادى لشرح الصدر ، ويجعلنا أكثر طمأنينة إلى أنه هُدًى الإيمان ونور الحق وراحةُ اليقين والسلام النفسى .

وشرح الصدر للكفر ، فى سياق الوعيد بآية النحل ، شاهد بأن الأمر فيه معنوى خالص . . . .

* * *

وكونه طمأنينة نفس، وهدى إيمان ، وارتياحاً إلى اليقين ، يجعلنا نتردد فى تفسير الصدر هنا بالجارحة كما ذهب النيسابورى ، أو أنه « قوى الشهوة والهوى والغضب » ونحوها مما عدّه « الراغب » . . . لنحتكم فى هذا إلى القرآن نفسه ، حيث جاء لفظ « صدر » بصيغة المفرد ، عشر مرات ، كلها بلا استثناء ، إما مع الشرح فى الآيات الخمس التى أشرنا إليها ، وإما مع الضيق والحرج فى آيات :

هود ١٢ : « وضائقٌ به صدرُك » .

الأعراف ٢ : « كتابٌ أُنزِلَ إليكَ فلا يكُنْ فى صدرِكَ حَرَجٌ منه » .

الحجر ٩٧ : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعها آية الشعراء ، حكاية عن موسى عليه السلام :

« قال ربِّ إنى أخاف أن يُكذبونِ * ويضيقُ صدرى

ولا ينطلقُ لسانى فأرسلْ إلى هرونَ » ١٢، ١٣ .

والأنعام ١٢٥ : « يجعلْ صدرَه ضيِّقاً حَرَجاً » .

وجاءت « صدور » جمعاً فى آيات كثيرة ، منها ما اقترن بالشفاء « ويشفِ صدور قوم مؤمنين » التوبة ١٤ ، « وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » يونس ٥٧ .

أو وسوسة الشيطان فى آية الناس :

« من شرّ الوسواس الخنّاس * الذى يوسوس فى صدور الناس » .

وبالغِلّ فى آيتى الأعراف ٤٣ والحجر ٤٧ : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » .

والحصر ، فى آية النساء : « أو جاءُوكم حَصِرت صدورُهم » ٩٠ .

والرهبة ، فى آية الحشر : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » ١٣ .

وليس شىء من هذا كله ، بالذى يجنح إلى معنى مادى كشق الصدر الذى هو جارحة . ولا مجال معه ، لتزيُّدٍ لا يحتمله صريح السياق ، مما أفاض المفسرون فى ذكره من علوم وحكمة .... ، وهذه آيات القرآن جميعًا فى الصدور ، لا تأذن لنا فى مثل هذا التزيد ، وهى فى سياق الإيمان والهدى ونور الله والشفاء ، أو الضيق والحرج والعسر والطمس والضلال والغِلّ ....

* * *

وتكلم مفسرون عن الاستفهام فى الآية . قال الزمخشرى : « إنه استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك » .

على ما بين تأويله ، ونصّ الآيات المحكمات من تفاوت بعيد دقيق ، يُدرِك الإعجاز البيانى فيه ولا يوصف ، وبحسبنا أن نضع عبارته فى التأويل تجاه الآية ، لندرك بُعْدَ ما بينهما .

وإذا لم يكن بد من توجيه الاستفهام فى الآية ، فهو على وجه التقرير كما قال أبو حيان (١) ، لا الإنكار كما ذهب الزمخشرى .

والتفت بعضهم كذلك إلى نون المضارعة فى « شرح » فذكروا أن « فائدة العدول من المتكلم إلى الجمع ، إما تعظيم حال الشرح ، وإما الإعلام بتوسط الملك ، يعنى جبريل فى ذلك الفعل » !

(١) [illegible]

وهو ما لا نقف عنده طويلا ، فليس تحدثُ الله جل جلاله عن ذاته بصيغة الجمع ، بالأمر الذى يوقَف عنده أو يُتأول له، وسيط ثان يسوى الصنعة اللغوية فى العدولِ عن الواحد إلى الجمع فى « نشرح » والشارح هنا هو الله جل جلاله ، رب السموات والأرض وما بينهما ، وإنّ أحدَنا ، معشر العباد، ليتحدث عن نفسه بصيغة الجمع فلا نتكلف وسيطًا ثانيًا يسوّغ هذا العدولَ من الواحد إلى الجمع !!

وقيل فى « لك » هنا ، إنها زيادة يستقل المعنى بدونها !! وفائدة زيادتها « أنها إيضاح بعد إبهام ، كأنه قيل : " ألم نشرح " ففُهِمَ أن ثَمَّ مشروحًا ، ثم قيل " لك " فأوضح ما عُلِم مُبْهَمًا . . . وكذلك ، فى : لك ذكرك * و : عنك وزرك[1] .

ومقتضى هذا التأويل ، الوقف عند نشرح — ووضعنا ، ورفعنا — لتأتى « لك » بعدها فتوضح الإبهام . ولانعلم أحداً من القراء قرأها بالوقف ، بل الإجماع على قراءتها وصلا[2] . ثم إن الإبهام فيه — إن جاز القول به — يرتفع حتمًا بقوله : « صدركَ » دون حاجة إلى « لك » وكذلك يتضح الإبهام فى الآيات بعدها بكاف الخطاب فى « وزرك ، ذكرك » .

و « النيسابورى » خانه التعبير ، فتأول وضعَ « لك » هنا بالإقحام ، على ما لهذا اللفظ ، فى الحديث عن القرآن الكريم ، من جفوة وغلظ ، وعنده أن « فوائد إقحام ، لك : الإجمال ثم التفصيل ، وإرادة الاختصاص ، أو كونُه أهم » .

والأمر أبسط وأوضح من أن نتعثر فى تأويله ، فمن مألوف البيان العربى أن يأتى بمثل هذا الأسلوب ، لا عن زيادة أو إقحام ، أو إرادة الإجمال ثم التفصيل ، وإنما للتقرير وتأكيد الاختصاص وتقوية الإيصال . وأظن أن هذا هو ما لمحه الشيخ محمد عبده حين قال : « والإتيان بالجار والمجرور — لك ، وعنك —

---

(١) غرائب القرآن ، على هامش الطبرى : الجزء الثلاثون ، سورة الضحى .

(٢) الدانى : التيسير ٢٢٤ .

وتقديمه على المفعول فى الآيات الثلاث ، لزيادة التقرير والإسراع بالتبشير »[1].

ومثل هذا مألوف فى أساليب العربية تقول : أرح لى بالى ، وأزل عنى شكى واسمع منى نصيحتى ، فلا يقال إن « لى ، وعنى ، ومنى » مقحمة أو زائدة ، وإنما هى ضرورة بيانية اقتضاها المقام .

ولنا أن نستأنس هنا بأسلوب القرآن فى مثل آيات :

طه ٢٥ : « رب اشرح لى صدرى * ويَسِّرْ لى أمرى » .

آل عمران ١٩٣ : « فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا » .

لنطمئن إلى أن ليس فى الأمر زيادة ولا إقحام !

* * *

« ووضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ »

الوضع الحطّ والإلقاء والطرح والإسقاط ، وأكثر ما يستعمل فيما يثقل ويُرهِق. استعمل الوضع فى الولادة ، وليس أثقلَ من الحملِ فيها ، وقد جعله الزمخشرى » من الاستعمالات المجازية للوضع فى (أساس البلاغة) ومنه فى القرآن الكريم آيات :

آل عمران ٣٦ : « فلما وضعتْها قالت ربِّ إنِّى وضعتُها أُنثى واللهُ أعلمُ بما وضعتْ » .

الأحقاف ١٥ : « حمَلتْهُ أُمُّه كُرْهاً ووضَعَتْه كُرْهاً » .

الطلاق ٤ ، ٦ : « وأُولاتُ الأَحمالِ أَجَلُهنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهن . . . »

« وإنْ كُنَّ أُولات حمل فأَنفقوا عليهن حتى يَضَعْنَ حَمْلَهنَّ » .

فاطر ١١ : « وما تَحْمِلُ مِنْ أُنثى ولا تَضَعُ إلَّا بعلمِه » . ومعها : آية فصلت ٤٧ .

(١) تفسير جزء عم : ١١٧ .

وهذا الملحظ . من وضع الثقل المرهق ، لا نخطئه فى الاستعمال المجازى للمادة كذلك ، فى مثل قولهم : وضعت الحرب أوزارها ، ووضع عنه الجناية ، أسقطها..
وجاء الوضع مع الحرب فى :

آية محمد ٤ : « حتى تضعَ الحربُ أوزارَها » .

والنساء ١٠٢ : «أن تضعوا أسلحتكم » .

ومع الإصر والأغلال فى آية الأعراف ١٥٧ :

« وَيَضَعُ عنهم إِصْرَهم والأَغلالَ التى كانت عليهم » .

ومع الوزر فى آية الشرح .

فشهد هذا التتبع الاستقرائى ، على أن الوضعَ ملحوظٌ فيه دائمًا ، التخففُ من ثقل مرهق وحَمْلٍ باهظ .

وأصل الوزر : الجبل ، وسُمّى الملجأ وزَراً ومنه آية القيامة :

« كلا لا وَزَرَ * إلى ربّكَ يومئذٍ المُستقَرُّ »

والوزير : الموازر ، لأنه يحمل العبء ، ومنه فى القرآن آيتا (طه ٢٩ ، والفرقان ٣٥) فى « هرون » وزيراً لموسى ، عليهما السلام .

ونُقِل الوزر إلى العبء الثقيل :

المادى ومنه فى القرآن آية (طه ٨٧) فى بنى إسرائيل الذين أضلهم السامرى :

« قالوا ما أَخلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولكنَّا حُمِّلْنَا أوزارًا من زِينةِ القوم » .

وآية (محمد ٤) : « حتى تَضع الحربُ أوزارها » .

والمعنوى فى الوِزْر الإثم ، وجمعه أوزار كالذى فى آيات :
(الأنعام ٣١ ، ١٦٤ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النحل ٢٥ ، طه ١٠٠)

ومعها « وازرَة » فى آيات : (الأنعام ١٦٤ ، الإسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨)

والوضع للوزر فى آية الشرح ، يؤكد ثِقَلَ العبء ، كما تؤكده الآية بعدها :

« الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » .

والإنقاض فى الاستعمال اللغوى والقرآنى – كليهما – هو الحلّ والانتثار ، والتمزق تحت ضغط ثقيل ومعاناة .

ذكر فيه أبو حيان قول أهل اللغة : « أنقض الحملُ ظهرَ الناقة إذا سمعتَ له صريراً من شدة الحمل . وسمعت نقيض المرجل أى صريره » (١) .

ومثله فى تفسير « النيسابورى » للآية (٢) .

وقول الشيخ محمد عبده : « نقيضُ الظهر ، الصوتُ الذى يحدث فيه لثقل الحمل » قريب من قول الزمخشرى : « : هو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله » .

ورفض « الراغب » أن يكون الانتقاض هو الصوت ، قال : « وحقيقة الانتقاض ليس الصوت ، إنما هو الذى يحدثُ منه الصوتُ » (٣) يعنى تحت الضغط والمعاناة .

ونؤثر أن يكون الإنقاض من الإثقال الذى يحل الظهر ، كى نستبقى للكلمة دلالة الحلّ التى لا تنفك عن استعمال القرآن لها ، ماديًّا فى آية النحل ٩٢ « كالتى نقضت غزلها » ومعنويًّا فى نقض العهد : (البقرة ٢٧ ، الأنفال ٥٦) ، أو الميثاق : (الرعد ٢٠ ، ٢٥ والنساء ١٥٥ ، المائدة ١٣) أو الأيمان (النحل ٩١) .

ويبقى تحديد هذا العبء الباهظ الذى يحل الظهر فمَنّ الله على رسوله عليه الصلاة والسلام ، بأن وضعه عنه . وقد ذهب المفسرون فى تأويله مذاهب شتى ، كقول الراغب : « هو ما كنتَ فيه من إصر الجاهلية ، وأُعفيتَ منه بما خُصصتَ به ، عن تعاطى ما كان عليه قومك » وقال أبو حيان : « كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس ، عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة فى انتفاء ذلك » وفى الطبرى : « ووضعنا عنك وزرك ، أى وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التى كنت فيها ، وحللنا عنك وقرك الذى أثقل ظهرك فأوهنه » .

---

(١) البحر المحيط : جـ ٨ سورة الشرح .
(٢) غرائب القرآن : ٣٠ /١١٦ .
(٣) المفردات ، مادة نقض .

ونَقل عن « قتادة » : « كانت للنبي ذنوب قد أثقلته فغفرها تعالى له . وسمعت الضحاك يقول فى آية * ووضعنا عنك وزرك * يعنى الشرك الذى كان فيه »[١] والأولى عندنا أن يقال : الشرك الذى كان فيه ، قومه .

وقيل : ما أثقل ظهره لما صدر عنه من بعض الصغائر قبل النبوة ، ولما جَهِله من الأحكام والشرائع ، أو لما كان تهالَكَ عليه من إسلام أولى العناد... وقيل المراد بالوزر أعباء الرسالة . . . وقيل: الحيرة التى كان فيها قبل المبعث .

وصرح الشيخ محمد عبده بأن « الكلام على التمثيل ، فإن ما كان يحمله عليه السلام من ثقل الاهتمام بشأن قومه ، وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحي عليه بالإرشاد ، لم يكن ثقلا حسيًّا ينقض منه الظهر ، ولكنه كان همًّا نفسيًّا يفوق ألمُه ألمَ ذلك الثقل الحسى الممثل به ، فعبر عن الهم الذى تبخع له النفوس بالحمل الذى تقصم له الظهور »[٢] .

وهو ما نستريح إليه ، ونؤيده بما ذكرنا فى تفسير آية الضحى : « ووجدك ضالاً فهدى » فالوزر فى الآية هو من : ضلال الحيرة وعدم الاهتداء إلى سواء السبيل ، حتى هداه الله ووضع عنه ذلك الوزر الذى بلغ من فداحة ثقله أن أنقض ظهره ، لفرط ما كان يشعر به قبل المبعث من وطأة الحيرة ، وضلال السبيل إلى الحق الذى تطمئن به نفسه .

* * *

«وَرَفَعْنَا لكَ ذِكْرَكَ » .

الرفع فى اللغة الإعلاء ، يكون حسيًّا ماديًّا كرفع البناء ورفع القواعد ، ومنه فى القرآن من الاستعمال الأول مثل : « وإذ يرفَعُ إبراهيم القواعدَ من البيت » « ورفَعْنَا فوقَهم الطور » .

ثم يكون معنويًّا مجازيًّا كارتفاع الدرجة والمنزلة ... مثل : « ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجات » « نَرْفَعُ درجات مَن نشاء » « ورفعنا لك ذكرك » .

---

(١) تفسير الطبرى : الشرح .

(٢) تفسير جزء عم : « .

أما الذكر فهو استحضارُ ما أُحرِزَ بالحفظ ، وقال « الراغب » فى المفردات : « الذِكْرُ ذِكْران : ذِكْرٌ بالقلب ، وذِكرٌ باللسان . وكل واحد منهما ضربان : ذِكْرٌ عن نسيان ، وذكرٌ عن إدامة حفظ » .

وفى تفسير الطبرى : « يقول : ورفعنا لك ذكرك . * فلا أُذكَر إلا ذُكِرت معى . وبنحو ذلك قال أهلُ التأويل . قتادة : رفع الله ذكرَه فى الدنيا والآخرة فليس خطيبٌ ولا متشهدٌ ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأشهد أن محمداً رسول الله » — ومثله فى (البحر المحيط لأبى حيان) .

وفصّله « الزمخشرى » : « قرنُ ذكرِ الرسول بذكر الله فى كلمة الشهادة ، والأذان ، والإقامة ، والتشهد ، والخُطب ، وفى غير موضع من القرآن : والله ورسوله أحق أن يُرضوه . . . ومن يطع الله ورسوله . . . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وفى تسمية : رسول الله ونبى الله » ، ثم أضاف : « ذكره صلى الله عليه وسلم فى كُتُب الأولين ، والأخذ على الأنبياء وأممهم العهدَ أن يؤمنوا به »[1] . وهو بنصه ما فى غرائب النيسابورى .

واختار الشيخ محمد عبده من هذا كله : « أن الله هداه إلى إنقاذ أمم كثيرة من رِق الأوهام وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة السليمة . . هذا إلى ما فَرَض الله من الإقرار بنبوته والاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته ، وجعلها شرطًا فى دخول جنته » .

والأقوال متقاربة ، يمكن أن تُرَدَّ جميعًا إلى ما رواه « الطبرى » من أقوال أهل التأويل .

ونضيف إليها من الملاحظ البيانية للذكر المرفوع ، أن كلمة الذكر تضاف ، أكثر ما تضاف إلى اسمه تعالى ظاهراً : ذكرُ الله ، ذكر ربك . . . أو إلى ضميره جل شأنه : (ذكرى) وفى القرآن منها ستة مواضع ، كلها لله جل جلاله (الكهف ١٠١ ، طه ١٤ ، ٤٢ ، ١٢٤ ، المؤمنون ١١٠ ، ص ٨) و(ذكرنا) مرتين كلتاهما لله تعالى : الكهف ٢٨ ، النجم ٢٩ .

وجاء الذكر معرفًا بأل ، بمعنى الوحى أو القرآن الكريم ، فى الحجر ٦ ، ٩ ، ص ٨ ، القمر ٢٥ فصلت ٤١ ، النحل ٤٤ ، الفرقان ١٨ ، يس ١١ .

---

(١) الكشاف : ٤ /٢٢٢ .

وهذا مما يضفى على كلمة الذكر جلالاً ورفعة ، لكثرة ما تقترن بذات الجلالة ، أو تضاف إلى ضميره جل شأنه ، أو يقصد بها القرآن والوحى . فإذا قال الله لعبده ورسوله : « ورفعنا لك ذكرك » بلغ بهذا أقصى المدى من الإيناس والرفعة ، لما يحف بلفظ الذكر من علوّ قدر .

وتغنى النبوة عن تحديد هذا الرفع للذكر بكذا وكيت مما عدّه أصحاب التأويل ، فحسب محمد أن اصطفاه الله رسولا ، ليكون له من هذا الاصطفاء ما يجاوز كل مطمح لبشر يتيم عائل ، ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

ولهذه البشرية التى قررها القرآن أصلا من أصول العقيدة ، حسابها فى تقدير ما للنبوة هنا من رفعة ذِكْر وجلال قدر ، وهى حسبنا ، فى فهم آية : « ورفعنا لك ذكرك » على هدى ما رأينا من كثرة اقتران الذكر فى القرآن بالله جلّ جلاله ، واطراد استعماله – معرفًا بأل – علماً على القرآن الكريم والوحى المنزل .

* * *

« فإنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا * إنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا » .

فى الفاء هنا ، مع معنى الترتيب دلالةُ السببية ، فهى تقرر ما يترتب على ما سبق بيانه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر . وهذا التقرير يأتى مؤكداً بإنّ ، ثم يقوى التأكيد فيه بتكرار الجملة مرتين نفياً للشك وتقوية الإيناس. والبلاغيون يعدون التكرار ، من الإطناب الذى يزيد على المساواة . ويلفتنا من البيان القرآنى ، أن التكرار يأتى فى قصار السور – ومنها القدر ، والتكاثر ، والكافرون ، والناس – حيث لا مجال فى مثلها لقول بالإطناب ، ولا يكون التكرار إطناباً مع حاجة المقام إليه .

وسورة الشرح قد نزلت مباشرة بعد الضحى التى جاءت على فترة من الوحى ، فالتكرار فيها يرسخ فى نفس المصطفى الطمأنينة إلى رعاية ربه عز وجل ، ويؤنسه صلى الله عليه وسلم ، إلى ما يستقبل من أمره .

وسياق الآيات فى الاستفهام التقريرى ، وتقوية الإيصال بـ « لك ، عنك »

يمهد لهذا التقرير الجازم الحاسم لكل شك ؛ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً .

ومن المفسرين ، من التفت إلى استعمال " مع " هنا بدلا من : بعد ، أو ما أشبهها مما يفيد التفاوت الزمنى . قال الزمخشرى : « إن " مع " للصحبة ، ومعنى اصطحاب اليسر والعسر أن الله أراد أن يصيبهم – يعنى المؤمنين – بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرّب اليسر حتى جعله كالمقارن للعُسْرِ ، زيادةً فى التسلية وتقوية القلوب »(١) .

وهو ملحظ دقيق ، وإن كان التعبير عنه قد أعوزته الدقة فى موضعين :

قوله : يصيبهم ، فى مقام البشرى ، دون ضرورة بيانية تقتضيه ، كما أن الآية تقوية للرسول بخاصة ، لا للمؤمنين بوجه عام . والسياق قبلها وبعدها ، يجعل هذا التخصيص أولى بالمقام .

وقوله : حتى جعل اليسر كالمقارن للعسر

وقريب منه قول ، النيسابورى : « جعل الزمان القريب كالمتصل والمقارن زيادة فى التسلية وقوة الرجاء »(٢) والشيخ محمد عبده : « والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لابد منه ، كأنه معه » .

والأوْلى إسقاط كاف التشبيه ، وفهم الآيتين على أن اليسر مقترن بالعسر إذ تفيد " مع " المصاحبة ، لا التشبيه .

والتفتوا كذلك إلى تعريف العسر وتنكير اليسر فى الآيتين كلتيهما . ورووا فى ذلك حديثًا على النبى صلى الله عليه وسلم : « لن يغلب عُسر يُسرين »(٣) .

فسره الفراء والزجاج : « العسر مذكور بالألف واللام وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر فى الموضعين شيئًا واحداً ، وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكأن أحدهما غير الآخر . . . »

---

(١) الكشاف : ٤ /٢٢١ .

(٢) غرائب القرآن : على هامش تفسير الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى ، والنيسابورى على هامشه ، والكشاف .

وفى البحر المحيط : « وقيل : مع كل عسر يسران ، من حيث إن العسر مُعرف بالعهد ، واليسر منكر ، فالأول غير الثانى »[١] .

وزيفه « الجرجانى » قال : « من المعلوم أن القائل إذا قال إن مع الفارس سيفـًا إن مع الفارس سيفـًا ، لم يلزم منه أن يكون هناك فارس واحد معه سيفان » .

وتوسع النيسابورى فى افتراض احتمالات شتى : إذا كان المراد بالعسر الجنس لا العهد ، لزم اتحاد العسر فى الصورتين ، وأما اليسر فمنكَّر ، فإن حُمِلَ الكلام الثانى على التكرار مثل "فبأى آلاءِ ربكما تكذبان" ونحوه ، كان اليسران واحداً . وإن حُمِلَ على أنه جملة مستأنفة ، لزم أن يكون اليسر الثانى غير الأول وإلا كان تكراراً والمفروض خلافه . وإن كان المراد بالعسر المعهودَ ، فإن كان المعهود واحداً وكان الثانى تكراراً كان اليسران أيضًا واحداً ، وإن كان مستأنفـًا كانا اثنين وإلا لزم خلاف المفروض . وإن كان المعهود اثنين فالظاهر اختلاف اليسرين وإلا لزم أو حسُن أن يُعاد اليسر الثانى معرفـًا بلام العهد فهو واحد ، والكلام الثانى تكرير للأول لتقريره فى النفوس ، إلا أنه يحسن أن يُجعل اليسر فيه مغايراً للأول لعدم لام العهد ، ولعل هذا معنى الحديث ، إن ثبت والله أعلم ورسوله ، فإن لم تثبت صحة الحديث أمكن حمل الآية على جميعها ، وإن ثبتت صحته وجب حملها على وجه يلزم منه اتحاد العسر واختلاف اليسر ، وحينئذ يكون فيه قوة الرجاء ومزيد الاستظهار برحمة الله »[٢] .

والذى فى جمهرة التفاسير لا يكاد يخرج عن هذه الاحتمالات والافتراضات التى تقصاها النيسابورى . وقد ذهبوا فى تأويل اليسرين ، بأنهما يسر العاجل ، ويسر الآجل ، قيل إنه ما تيسر لهم من الفتوح فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، وقيل هو يُسر الآخرة .

والأمر فيما نرى أوضح من أن نتكلف له هاتيك التأويلات المعقدة التى يغيب فيها وجهُ البيان لنصل آخر الأمر إلى أن يُسرين لا يغلبهما العسر الواحد . أو أن الآية الثانية استئناف ، « فيكون معناها أهم من سابقتها »!![٣]

---

(١) البحر المحيط : ٨/ ٤٨٧ . (٢) غرائب القرآن : ٣٠/ ١١٦ .

(٣) الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ، ١١٨ .

والذى نطمئن إليه ، هو أن الآية الثانية تأكيد للأولى ، لتقوية اليقين النفسى وترسيخ ما مَنّ الله به على عبده من شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره .

والراجح أن « ال » فى العسر ، للعهد لا للاستغراق ، والمراد ، والله أعلم ، ما كان الرسول يشعر به من ضيق الصدر وثقل العبء فى مواجهة الوثنية العاتية الراسخة . أما تنكير يُسر ، فلكى ينفسح فيه مجال التصور والإطلاق فيحتمل ما قاله المفسرون وما لم يقولوه ، إذ التحديد هنا بكذا أو كيت من مفهوم اليسر ، ينافى البيان القرآنى الذى آثر إطلاق « يسر » بغير قيد ولا حد .

والعسر أشد المشقة والمكابدة .

وقد استعملت العربية العسر ماديًّا حسيًّا فى أشد الضيق : فالعسير الناقة لم تُرض ، وعسرت المرأة إذا عسُر ولادها . وعَسَرتُ الغريم إذا طلبت منه الدين على عسرته . ويأتى فى القرآن وصفاً لليوم الآخر فى شدته على الكافرين فى آيات :

القمر ٨ : « يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » .

المدثر ٩ : « فإذا نُقِرَ فى الناقورِ فذلك يومَئذٍ يومٌ عسير » .

الفرقان ٢٦ : « وكان يوماً على الكافرين عسيرًا » .

كما استعمله فى حالات الشدة البالغة والعنت القاسى فى آيات :

الليل ١٠ : « وأما من بَخِلَ واستغنى وكذَّبَ بالحُسنى * فَسَنُيَسِّرُه للعُسرى » .

الطلاق ٦ : « وإن تعاسرتم فسترضع له أُخرى » .

الطلاق ٧ : « سيجعل الله بعدَ عُسْرٍ يسرا » .

التوبة ١١٧ : « والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة » .

الكهف ٧٣ : « قال لا تؤاخِذْنى بما نَسِيتُ ولا تُرهِقْنى من أمرى عُسراً » .

وفى إرهاق المدين حين يطالَب بالدَّين وليس معه مال :

البقرة ٢٨٠ : « وإن كان ذو عسرة فنَظِرةٌ إلى مَيْسَرة » .

وكثيراً ما يأتى اليسر فى القرآن نقيضًا للعسر كما فى آيات (الطلاق ٧ ، البقرة ١٨٥ ، ٢٨٠ ، المدثر ٩ ، الليل ٧ ، ١٠) و « الراغب » فسَّر كلا اللفظين بأن أحدهما نقيض الآخر (١) ، واللغويون أيضًا فسروا العسر بنقيض اليسر ، والعاسرة ضد المياسرة ، والمعسور ضد الميسور ، والعسرى نقيض اليسرى .

كما أطلقت العربية اليسر على الغنى ، فقالوا أيسر الرجل إذا استغنى ، كما قالوا تيسر الأمر إذا سُهل وتهيأ على راحة وبلا معاناة . ومن هذا المعنى قوله تعالى : « فما استيسر من الهدى » .

« فاقرءوا ما تيسر منه » .

« ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر » .

« فإنما يسرناه بلسانك » .

وهذا القدر يكفينا فى فهم ما يوحى به لفظ العسر عن ضنك وضيق وعنت ، وإدراك الوقع القوى العميق لكلمة « يسر » فى هذا المقام ، بما تحمل هذه الكلمة من معانى الارتياح والسهولة والفرج ، على الإطلاق .

* * *

« فإذَا فَرغْتَ فانْصَبْ »

الفراغ فى اللغة هو الخلو بعد امتلاء . يكون ماديًّا حسيًّا مثل : فرغ الإناء أى خلا بعد امتلاء ، ويكون معنويًّا مثل : فرغ البالُ أى خلا مما كان يشغله ، ومنه الآيات :

القصص ١٠ : « وأصبح فؤاد أُم موسى فارغاً »

الأعراف ١٢٦ : « ربَّنا أَفْرِغْ علينا صبراً »

والبقرة ٢٥٠ : « قالُوا ربَّنا أَفْرِغْ علينا صبراً »

(١) المفردات : مادتا عسر ويسر .

وفرغ للأمر توفر له وأخلى نفسه من كل ما عداه . ومنه آية الرحمن :

« سنفرغ لكم أيها الثقلان » .

وإذا ، ظرف لما يستقبل من الزمان . والفاء – فيها ، وفى : فانصب – ملحوظ فيها إلى جانب السببية ، الترتيب الذى يأتى على التعاقب . فالفراغ متصل السبب بما سبقه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر . كما يتصل به من ناحية أخرى ، ما بعده من نصب .

والنصب ملحوظ فيه معنى الجهد والتعب ، والقيام أو الشخوص . وكلا المعنيين – التعب والشخوص – أصيل فى المادة ، يقال : همٌّ ناصب ، أى مرهق مجهد . والحرب مناصبة ، أى مجاهدة وعداء . ونصَبَ العلمَ : أقامه شاخصاً ، ونصبَ حول الحوضِ نصائبَ . وهى حجارة تكون عضداً له . والأنصابُ الحجارةُ الشاخصة ، كانوا ينصبونها ويصبون عليها دماءَ الذبائح ، واحدُها نُصْبٌ ونُصُب . ونَصِبَه للأمرِ حمَّلته عبئه ، ومنه المتَنْصِب يحتمل المرء عبئه . . .

ومعنى الشخوص والإقامة . أوضح فى آية الغاشية ١٩ :

« وإلى الجبالِ كيف نُصبت » .

ومعنى التعب والجهد متعينٌ فى آيات :

الكهف ٦٢ : « لقد لَقِينا من سَفَرِنا هذا نصبا » .

التوبة ١٢٠ : « لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نصبٌ » .

فاطر ٣٥ : « لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغوب » .

ومعها : الحجر ٤٨ .

والضمير فى آيتى فاطر والحجر عائد على الجنة ، حيث لا يمس المؤمنين فيها نصب ولا لغوب .

ويبدو من صنيع « الراغب » أنه يميل إلى تفسير آية الشرح . بأن النصب فيها من النصيب ، أى القسم المنصوب الشاخص . قال : «والنصيب الحظ

المنصوب أى المعين ، قال تعالى : أم لهم نصيب من الملك ، نصيباً من الكتاب ، فإذا فرغت فانصب .»

« والراغب » يلتفت إلى ما فى معنى النصب من الشخوص . ونؤثر أن نلتفت إلى ما فيه كذلك من معنى الجهد والتعب ، مستأنسين بكل الآيات التى ورد فيها « النصب » حيث لا نخطئ فيها جميعاً معنى الجهد والتعب . وبالتعب فسرها النيسابورى[١] والشيخ محمد عبده[٢] . وبالاجتهاد والمتابعة والمواصلة فسرها الزمخشرى[٣] .

والآية لم تحدد مم يكون هذا الفراغ وفيم يكون النصب ، اكتفاء بدلالة السياق ، وجرياً على مألوف البيان القرآنى فى السكوت عن التحديد فى مقام الإطلاق. لكن المفسرين ، على عادتهم ، أبوا إلا أن يحددوا متعلق الفراغ والنصب ، وقد جاءوا بأقوال منها :

* إذا فرغتَ من صلاتك فانصب إلى ربك فى الدعاء وقضاء حاجاتك .
* إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب فى عبادة ربك .
* إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب ، أى فصَلِّ .

وقد سرد الطبرى هذه الأقوال الثلاثة ، ثم عقب عليها بقوله : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال إن الله تعالى أمر نبيه أن يجعل فراغه من كل ما كان مشتغلا به من أمر دنياه وآخرته (؟) إلى النصب فى عبادته. ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال ، فسواء كل أحوال فراغه من صلاة أو جهاد أو أمرِ دنيا كان به مشتغلا ، لعموم الشرط فى ذلك ، من غير خصوص حال فراغٍ دون حالٍ أخرى »

واختار الزمخشرى : « فإذا فرغت من عبادة فأتبعْها أخرى » وهو ما فى تفسير الشيخ محمد عبده ، مع مزيد تفصيل وإطناب .

---

(١) غرائب القرآن : ٣٠/١١٨ .
(٢) تفسير جزء عم : ١١٩ .
(٣) الكشاف : ٤/٢٢٣ .

ويتعين أن نصل الآية «فإذا فرغت فانصب » بسياق الآيات قبلها، بحكم وجود « الفاء » الرابطة للآية بما قبلها .

الآية مسبوقة بتأكيد اليقين بأن هذا العسر يصحبه يسر لا محالة ، والله منجز وعده لا ريب ، وسيعقب هذا ما يعقبه من فراغ البال من الحيرة والضيق والكرب والضنك ، بعد إذ منّ الله على عبده بأن شرح له صدره ووضع عنه وزره الذى أنقض ظهره ، ورفع له ذكره .

فإذا لم يكن بد من تحديد متعلق الفراغ ، فلسنا بحيث نطمئن إلى شيء فيه ، غير ما سبقت به الآيات المحكمات : وهو أنه سبحانه قد أفرغ بالَ رسوله مما كان يجهده من حيرة ويثقله من وزر ينقض الظهر .... هو فراغ اليسر بعد العسر ، والراحة النفسية بعد الشدة والكرب ، فلينصب المصطفى لتكاليف رسالته وأعباء منصبه ، بلاغاً لرسالة ربه ، وجهاداً فى سبيلها .

* * *

« وإلى ربِّكَ فارْغَبْ » .

الرغب الميل والإرادة، يقال رغبت فى الشيء إذا أردته وملت إليه ، ورغبت عنه إذا لم ترده وزهدت فيه .

وربما كانت « السعة » أصلاً فى المادة ، كما قال « الراغب » . فالحوض الرغيب : الواسع ، والسقاء الرغيب كذلك، وفرس رغيب العدو أى واسع الخطو فى عَدْوِه ، والرغب والرغبى السعةُ فى الإرادة، والرغبة والرغيبة العطاءُ الواسع الكثير .

ومن ملحظ الميلِ إلى ما هو واسع ورحب، فى الحوض وعدْوِ الفرس والعطاء ، أضيف إلى السعة معنى الميل والإرادة ، فكانت الرغبة فى الشيء الميلُ إليه وإرادته، والرغبةُ عنه الانصراف عنه والزهد فيه . وقد تزداد الرغبة فتُطلق على الشرَه ، ومنه قولهم « الرغَب شؤم » يعنون الشرَه .

وفى الاستعمال القرآنى ، تأتى الرغبة فى السياق الدينى فى مثل آيات :

البقرة ١٣٠ : « ومن يرغب عن ملة إبرٰهيم » .

مريم ٤٦ : « قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبرٰهيم » .

التوبة ٥٩ : «وقالوا حَسْبُنا اللهُ سيؤْتِينا اللهُ من فَضْله ورسولِه إنا إلى الله راغبون» .

القلم ٣٢ : «عسى ربُّنا أن يُبدِلَنا خيرًا منها إنا إلى ربِّنا راغبون» .

النساء ١٢٧ : «وتَرغبون أن تنكحوهن» .

التوبة ١٢٠ : «ما كان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حولَهم من الأعرابِ أن يتخلَّفوا عن رسولِ اللهِ ولا يرغبوا بأنفسِهم عن نفسِه»

وجاء الرغب مع الرهب فى آية الأنبياء ٩٠ :

«إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويَدعُوننا رَغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين».

وجاءت فى غير هذا السياق الدينى ، بمعنى الميل القوى .

والملحظ البيانى فى قوله تعالى : «وإلى ربِّك فارغب» هو فى تقديم «وإلى ربك» على الفعل ارغب ، وهو أسلوب بلاغى يفيد القصرَ والتخصيص ، والإمام الطبرى يقول : «اجعلْ رغبتك إلى ربك دون من سواه من خلقه إذا كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم فى حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد»[1] .

وقال النيسابورى : «وارغب إلى ربك فى إنجاز المأمول لا إلى غيره ، يُعْطِكَ خيرَ الدارين» . وقال الشيخ محمد عبده : «لا ترغب إلى أحد فى استثمار أعمالك إلا إلى الله وحده»[2] .

والآية رُبطت بما قبلها بواو العطف ، فلزم أن يكون التخصيص فى «وإلى ربك فارغب» مرتبطًا بما قبله ، متصلا به :

ووصل الآية بما قبلها ، هو الذى يطرد به النسق وتتم وحدة السياق فى السورة كلها فتتعلق رغبة المصطفى بالله وحده ، الذى أفرغ بالَ رسوله مما كان يشغله من ضيق الصدر ، ووضَع عنه الوزرَ الذى أنقض ظهره ، وبشّره بيسر قريب ، على وجه اليقين الذى لا شك فيه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/ ١٥٢ . (٢) تفسير جزء عم : ١١٩ .

سورة الزلزلة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وقَالَ ٱلإِنْسَانُ مالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَومَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْملْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

صدق الله العظيم

السورة فى وصف اليوم الآخر .

وهى مدنية مبكرة ، سادسة السور المدنية على المشهور فى ترتيب النزول . وثمة قولٌ بأنها مكية ، عن مجاهد وابن عباس ، وعن الضحاك وعطاء[1] .

ومعروف أن عناية القرآن الكريم اتجهت فى العهد المكى إلى تقرير أصول الدعوة وفى العهد المدنى إلى التشريع وبيان الأحكام .

ولا يعنى هذا أن تخلو السور المكية من أحكام تشريع ، ولا أن تخلو السور المدنية من أصول عامة للعقيدة ، مثل سورة الزلزلة التى نستأنس لها بنظائرها من السور المكية فى اليوم الآخر ، مثل سور :

الذاريات ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، الغاشية ، القارعة ، التكاثر ، العاديات ، الفجر ، النازعات ، النبأ ، المرسلات ، القيامة ، المعارج ، الحاقة ، الواقعة . . .

ومن الملاحظ البيانية العامة فى هذه السور :

* أن آياتها قصار ، وهذا القصر ملحوظ فيه القوة والجزم ، بما يلقى فى نفس السامع من جدية الموقف الحاسم وخطره ، بحيث لا يحتمل الإطالة والتأنى . .

* وفيها مع ذلك ، ظاهرة التكرار . والتكرار مألوف فى مواقف الإطناب والإطالة ، لكنه حين يأتى فى مواقف الإيجاز الحاسمة ، يكون لافتاً ومثيراً ، ففى سورة الزلزلة ، على إيجازها وقصر آياتها ، نجد التكرار فى ثمانية مواضع . وهذه ظاهرة أسلوبية فى القرآن الكريم ، يعمد فيها إلى التكرار مع الإيجاز والقصر ، ترسيخًا وتقريراً وإقناعًا . والدراسة النفسية قد انتهت بعد طول التجارب ، إلى أن مثل هذا الأسلوب هو أقوى أساليب الترسيخ والإقناع ، وأشدها إيحاء بالحسم والجد .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٥٠٠ .

والألفاظ المختارة لموقف القيامة ، بالغة الإثارة قوية الوقع إما بعنفها كالزلزلة ، والرج ، والدك ، والنسف ، والرجف ، والمورْ ، والصيحة والانشقاق ، والطامة ، والغاشية . والواقعة ، والبعثرة والانتثار .

وإما بدقتها ، كمثقال الذرة ، والهباء المنبث ، والعهن المنفوش ، والفراش المبثوث ، والسراب والدخان . . .

* وظاهرة بيانية أخرى مطَّردة ، قل أن نخطئها فى أحداث اليوم الآخر ، وهى أن القرآن الكريم يصرف الحدث عمداً عن مُحدثه ، فلا يسنده إليه ، وإنما يأتى به مبنيًّا للمجهول ، أو مسنداً إلى غير فاعله ، على المطاوعة أو المجاز :

« إذا زُلزلت الأَرضُ زلزالهَا » .

« فإذا نُفِخ فى الصُّورِ نفخةً واحدةً * وحُمِلَتِ الأَرض والجبال فدُكَّتا دَكَّةً واحدة . . . »

« إذا رُجَّت الأَرضُ رجًّا * وبُسَّ ت الجبالُ بَسًّا » .

« يوم يُنفَخُ فى الصور فتأْتون أَفواجا * وفُتِحَت السماءُ فكانت أبوابا * وسُيِّرت الجبالُ فكانتْ سَرابا . . . »

« فإذا النجومُ طُمِسَتْ * وإذا السماءُ فُرِجَتْ * وإذاالجبالُ نُسِفَتْ ... »

« إذا الشمس كُوِّرتْ * وإذا النجومُ انكدرتْ * وإذا الجبال سُيِّرتْ * وإذا العِشارُ عُطِّلت * وإذا الوحوشُ حُشِرَت * وإذا البحارُ سُجِّرت * وإذا النفوسُ زُوِّجتْ * وإذا الموءُودةُ سُئِلَتْ * بأَىِّ ذنبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصحُفُ نُشِرَتْ * وإذا السماءُ كُشِطَت * وإذا الجحيمُ سُعِّرت * وإذا الجنةُ أُزلفت * عَلِمَتْ نفسٌ ما أَحْضَرَت » .

« أفلا يَعلمُ إذا بُعثِرَ ما فى القبور * وحُصِّلَ ما فى الصدورِ » .

« وجوهٌ يومئذ خاشعةٌ * عاملةٌ ناصِبة * تصلَى نارًا حامية * » .

« اقتربت الساعةُ وانشقّ القمر » .

« فإذا انشقت السماءُ فكانت وردةً كالدهان » .

« إذا السماءُ انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت » .

« إذا السماءُ انشقت * وأَذِنَتْ لربِّها وحُقَّتْ * وإذا الأرض مُدَّت * وألقت ما فيها وتخلت » .

« فارتقبْ يوم تأْتى السماءُ بُدخَانٍ مبين » .

« يوم تمورُ السماءُ مورًا * وتسيرُ الجبالُ سيرًا » .

وقد شُغل أكثر المفسرين والبلاغيين بتأويل الفاعل ، عن الالتفات إلى اطراد هذه الظاهرة الأسلوبية . فى أحداث القيامة .

وفى منهجنا لا يجوز أن نتأول الفاعل ، مع وضوح العمْد فى البيان القرآنى إلى صرف النظر عنه ، ولا أن نتعلق بما لم يشأ لنا الكتاب المحكم أن نتعلق به . وقد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية ، إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث ، بصرف النظر عن محدثه . وفى الإسناد المجازى أو المطاوعة ، تقرير لوقوع الأحداث فى طواعية تلقائية ، إذ الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير ، والأحداث تقع تلقائيًّا لا تحتاج إلى أمر أو فاعل [1] .

* * *

« إذا زُلْزِلت الأَرْضُ زِلزالها » .

الزلزلة فى اللغة ، الحركة العنيفة والاضطراب الشديد : استعمل فى الحسيات ، فقيل : زلزل الإبلَ ساقها بعنف حتى يضطرب سيرها . وتزلزلت الأرض ، اهتزت وارتجفت . ثم استعمل فى الشدائد والأهوال . وربما كان الأصل فيه : زلَّت الصفاةُ ، أى ملُست حتى تنزل القدم عليها مضطربة .

---

(١) بمزيد تفصيل ، فى : الظواهر الأسلوبية وسر التعبير ، بكتابى (الإعجاز البيانى) .

ط دار المعارف ١٩٧٢

وفى القرآن الكريم ، وردت المادة ، فعلا ومصدراً ست مرات : ثلاثاً منها فى وصف يوم الهول الأكبر ، فى آية الزلزلة ، وآية الحج ١ :

« يـٰأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم »

وثلاثاً فى وصف موقف الشدة القاسية والذعر البالغ فى هول الحرب بآيات :

الأحزاب ١١ : «إذ جاءُوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون باللهِ الظنونا * هنالك ابتُلِىَ المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا » .

البقرة ٢١٤ : «أمْ حَسِبتم أن تدخلوا الجنةَ ولما يأْتِكم مثلُ الذين خَلَوا من قبلِكم مسَّتْهم البأْساءُ والضراءُ وزُلزلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصرُ الله » .

وفى المرات الثلاث التى استعمل فيها الفعل ، جاء ماضيًا مبنيًّا للمجهول .

قال مفسرون : إن الفاعل حُذف للعلم به ، غير ملتفتين إلى أنهـا ظاهرة أسلوبية مطردة فى أحداث اليوم الآخر ، وقد شغلتهم الصنعة البلاغية ، عن الالتفات إلى ما فى القرآن من أفعال لا تحصى ، بُنيت للمعلوم مسندة إلى الله تعالى ، مع العلم بالفاعل يقينًا ، فهو سبحانه خلق السموات والأرض ، ونزّل القرآن على عبده ، يهدى من يشاء ويُضل من يشاء ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ويعلم الغيب ، والرحمنُ علّم القرآن ، خلق الإنسانَ علمه البيان . . . مما يؤنس إلى أنْ العلم بالفاعل ليس هو السر البيانى فى بناء « زلزلت » للمجهول ، وإنما هى كما قلنا آنفًا ، ظاهرة أسلوبية تطّرد فى مثل هذا الموقف ، تركيزاً للاهتمام فى الحدث ذاته ، وإيحاء بأن الأرض تزلزل عن طواعية ، واستجابة لتسخير تلقائى . . .

ومجىء الفعل ماضيًا ، تقرير لأنه حادث فعلا . وقد صُدّر بإذا ، فصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذى يوحى به استعمالُ الماضى ، بدلا من المستقبل الصريح . على أن المباغتة فى « إذا » لها أثرها البيانى فى هذا الموقف ،

وهذه أيضًا ظاهرة أسلوبية ، تسيطر على الحديث عن اليوم الآخر ، الذى يأتى بغتة ، إمعانًا فى الترهيب ، على ما سوف نفصله عند تفسير آية النازعات : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

وندع لغيرنا من المفسرين ، أن يشتغلوا بتسوية الصنعة الإعرابية ، فيلتمسوا عاملا مضمراً فى إذا ، تقديره عند بعضهم : اذكرْ ، وعند آخرين : تُحشرون . أى : يوم تزلزل الأرض زلزالها تحشرون [١] .

لأن سر البيان وراء كل هذا ، ولأن مناط القوة فى التعبير هو بغتة المفاجأة ، وتأكيد الحدث ، وصرف الذهن إليه ، ولا شىء من ذلك يتعلق بما شغلوا به من تأول وتقدير . . .

وقرأ الجمهور « زِلزالها » بكسر الزاى وهى قراءة الأئمة السبعة [٢] ، وفى قراءة بفتحها ، والفرق بينهما أن المكسور مصدر ، والمفتوح اسم ، وليس فى الأبنية — كما قالوا — فعَلال بالفتح إلا فى المضاعف [٣] .

والمصدرية أوْلى بالمقام ، لما فيها من تأكيد يلائم السياق . ويؤيده تعَيُّن المصدرية فى الآية الأخرى التى استعمل فيها القرآن هذه الصيغة ، وهى آية الأحزاب ١١ : « هنالك ابتُلِىَ المؤمنون وزُلزِلوا زِلزالًا شديدًا » .

وإضافة الزلزال إلى ضمير الأرض ، متسق مع التلقائية الملحوظة فى هذه الآية وما بعدها من إخراج الأرض أثقالها وتحدثها أخبارها . وفيها أيضًا لفتٌ إلى المعهود المعروف من الزلزلة . ولا بأس بما قاله الزمخشرى هنا من أنه « زلزالها الشديد الذى ليس بعده زلزال » وقول أبى حيان : « وأضيف الزلزال إلى الأرض ، إذ المعنى زلزالها الذى تستحقه ويقتضيه جرمُها وعظَمُها . . . ولو لم يُضِفْ لصدق على كل قدر من الزلزال وإن قلَّ ، والفرق بين أكرمت زيداً كرامةً ، وكرامتَه ، واضح » .

---

(١) البحر المحيط : ٨ /٥٠٠ .

(٢) أبوعمرو الدانى : التيسير ٢٢٤ .

(٣) البحر المحيط ، والكشاف : سورة الزلزلة .

« وأخْرَجَتِ الأَرْضُ أثْقالَها » .

جعل الأرض هنا فاعلة ، وهى جماد ، مُضيًّا فى تقرير مطاوعتها ، وكونها مسخرةً لمثل هذا . والسياق ملتئم مع الآية قبلها ، من حيث تركيز الاهتمام على الحدث ، دون شغلٍ للسامع بمصدره أو محدثه .

وتكرار الأرض هنا مقصود ، لترسيخ اليقين ، والإقناع النفسى .

والأثقال جمع ثِقْل ، وهو الحمل الشديد . واللغويون والمفسرون ، متفقون على أن الثقل هنا نقيض الخفة ونص « الراغب »[1] على أن أصل استعماله فى الأجسام ثم فى المعانى . فمن الأول : أثقلت المرأة فهى مثقل ، ثقل حملُها فى بطنها . ومن الثانى : أثقله الهمُّ والغُرْمُ والدَّيْنُ ، والوِزْرُ .

وجاءت « الأثقال » فى القرآن فى ثلاث آيات : آية النحل ٧ ، والثقلُ فيها مادى ، فيما تحمل الأنعامُ :

« وتَحْمِلُ أثقالَكم إلى بَلَدٍ لم تكونوا بالِغيه إلا بِشِقِّ الأنفُسِ » .

وآية العنكبوت ١٣ ، والثقل فيها معنوى :

« وقال الذين كفَروا للذين آمنوا اتَّبِعُوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم وماهُمْ بِحامِلينَ منْ خَطاياهم مِنْ شىءٍ إنهم لَكاذبون ، ولَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالًا مع أثقالِهم ولَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يَفتَرون ».

وآية الزلزلة : « وأخرجت الأَرضُ أثقالها » .

فما هذه الأثقال التى تُخرجها الأرض إذا زلزلت زلزالها ؟

ذهب الزمخشرى فى (الكشاف) إلى أن الأثقال هى ما فى جوفها من الدفائن

---

(١) مفردات القرآن : مادة ثقل .

والكنوز . ونص فى (الأساس) على أن هذا من المجاز ، جُعِل ما فى جَوْفِها من الدفائن أثقالاً لها .

وفى (البحر المحيط) مما قيل فى الآية ، أن أثقالها كنوزُها وموتاها . ثم رُدَّ هذا بأن الكنوزَ تخرجُ وقت الدجال (!) لا يومَ القيامة ، أما الموتى فتخرج يوم القيامة : وأبعدوا فى التأول ، فجعلوا للزلزال فى الآية وقتين : فى أولهما أخرجت كنوزَها ، وفى الثانى أخرجت موتاها[1] !

واكتفى « الطبرسى » فى تفسير الأثقال بالموتى .

وقال « الراغب » : قيل كنوزُها ، وقيل ما تضمنتْه من أجساد البشر ، عند الحشر والبعث [2] .

ولا نقف عندما لم يتعلق القرآن بذكره ، بل يلفتنا فى إخراج الأثقال هنا ما توحى به من اندفاع للتخلص من الثقل الباهظ ، فالمُثقَلُ يتلهف على التخفف من حمله ، ويندفع فيُلقيه حين يتاح له ذلك . والأرض إذ تُخرج أثقالها تفعل ذلك كالمدفوعة برغبةِ التخفف من هذا الذى يثقلها ، عندما حان الأوان . ونستأنس فى هذا الفهم بقوله تعالى فى سورة الانشقاق :

« وإذا الأرضُ مُدَّتْ * وألقتْ ما فيها وتخلَّتْ » . هكذا بغير انتظار أو تمهُّل . . . وهل تمسك المثقِل حملها حين يأتى أوانه ؟ وهل يتردد ذو حمل ثقيل ، فى إلقائه والتخلى عنه إذا أتيح له ذلك ؟

والتأويل بـِ : وأخرجت الأرض ما فى جوفها ، يضيع به هذا الإيحاء المثير ، اللافت إلى المعهود من لهفة ذى الحمل الثقيل على التخلى عما يئوده ويبهظه .

ويلفتنا أيضًا ، إسنادُ الإخراج مجازاً إلى الأرض ، مع « زُلزِلت » على البناء للمجهول ، مضيًّا فى تقرير تلقائية الحدث ، كأنه فى غير حاجة إلى مُحدِث ، وتركيزاً للانتباه فيه .

* * *

(١) البحر المحيط : ٨/٥٠٠ .

(٢) المفردات : مادة ثقل .

« وقالَ الإنسانُ مالَها » .

السؤال واضح فيه معنى العجب والدهشة ، والخوف والقلق والترقب . لكن من المفسرين – كما فى الجلالين – من ذهب إلى أن الاستفهام إنكارى . وهو ما لا نرى وجهًا له فإن الموقف لم يعد يحتمل الإنكار وقد قامت القيامة فعلا ، بعد أن سبقت بها النذُر ، وتتابعت بأنبائها رسالاتُ الدين .

والإنسان هنا هو الإنسان ، على الإطلاق ، تروعه الزلزلةُ العنيفة وما أعقبها من إخراج الأرض أثقالها ، فيسأل فى دهشة وتعجب : مالها !

لكن عدداً من المفسرين ذهبوا إلى أن « الإنسان هنا هو الكافر ، لأنه كان لا يؤمن بالبعث ، فأما المؤمن فيقول : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» .

جاء هذا التأويل فى تفاسير (الكشاف ، ومجمع البيان ، والجلالين) وصرّح « أبو حيان » فى (البحر) بأن هذا هو مذهب الجمهور ، ونص عبارته :

« والظاهر عموم الإنسان ، وقيل : ذلك الكافر لأنه يرى ما لم يقع فى ظنه قط ولا صدقه : والمؤمن – وإن كان مؤمناً بالبعث فإنه استهول المرأى . . قال الجمهور : الإنسان هو الكافر ، يرى ما لم يظن »[1] .

ولسنا نرى وجهًا لتخصيص الإنسان هنا بالكافر ، فاللغة لا تعين على هذا التخصيص ، والاستعمال القرآنى للفظ الإنسان لا يؤيده . ثم هو تخصيص لا يقوى به المعنى ، فلأن تكون رجّةُ الزلزلة وهول الموقف ، مما يروع الإنسانَ على الإطلاق ، كافراً كان أو مؤمنًا ، أقوى من أن يقتصر الدهشُ والعجبُ على الكافر وحده .

ويؤنس إلى هذا الإطلاق والتعميم ، قوله تعالى فى وصف الزلزلة ، فى آية الحج :

« يا أيها الناس اتقوا ربَّكم إن زلزلةَ الساعة شىءٌ عظيم * يومَ تَروْنَها تَذْهَلُ كلُّ مرضِعةٍ عما أَرضعتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وتَرى الناسَ سُكارَى وما هم بِسُكارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديد » .

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ٥٠٠ .

تذهل كل مرضعة ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس ، عامة الناس ، لا الكفار وحدهم !

* * *

« يومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها » .

أي يوم يحدث ذلك ، تُحدِّث الأرض أخبارها .

وسرّ التعبير بيومئذ هنا ، أنه لفت قوى يستحضر معه السامع ما مضى من وصف اليوم ، فلا يتابع ما بعد « يومئذ » منصرفًا عما قبلها ، مستقلاً عنه .

وتحدُّث الأرض ، مما وقف المفسرون عنده طويلا : فالإمام الطبري يذهب إلى أن تحدُّث الأرض هنا تمثيل . أي أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب غير المعهود ، يُعلِم السائلَ ويُفهمه الخبر . وتابعه على ذلك جماعة منهم الزمخشري إذ يقول في الكشاف : « والتحديثُ مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان » . ومثله في تفسير الشيخ محمد عبده لسورة الزلزلة من جزء عمّ .

وذهب آخرون ، إلى أن التحدث حقيقة لا مجاز ، ففي (سنن ابن ماجه) : « تقول الأرضُ يوم القيامة : ياربّ هذا ما استودعتني » . وعن ابن مسعود : «تُحدث الأرض بقيام الساعة إذا قال الإنسان : ما لها ؟ فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأن أمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك جوابًا لهم عن سؤالهم » .

وقال « الطبرسي » في مجمع البيان :

« يجوز أن يكون الله تعالى أحدث الكلام فيها ، ويجوز أن يقلبها حيوانًا يقدر على النطق ، ويجوز أن يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام » .

وجاء في الكشاف : « وقيل ينطقها الله على الحقيقة ، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر »

ويبدو أن هذا هو ما اطمأن إليه « أبو حيان » ، بقوله في البحر المحيط : « الظاهر أنه تحديث وكلام حقيقة ، بأن يخلق فيها حياةً وإدراكًا فتشهد

بما عَمل عليها من صالح أو فاسد . وهو قول ابن مسعود والثورى وغيرهما . . ويشهد له ما جاء فى "الترمذى" عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قرأ هذه الآية ثم قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا . فهذه أخبارها » هذا حديث حسن صحيح غريب »[1] .

والبيان القرآنى المعجز لا يُنطق الجماد الأصمَّ فحسب ، بل يُجرد منه كذلك شخصية حية ، فاعلة ناطقة ، مريدة مدركة :

« يومَ نقولُ لجهنمَ هل امتلأتِ وتقولُ هل من مزيد » ؟ ق : ٣٠

« كلا إنها لَظَى * نزَّاعةً للشَّوَى * تدعو مَن أدبر وتولى » . المعارج : ١٧

« إذا رأتْهُمْ من مكانٍ بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا » . الفرقان : ١٢

« إذا أُلقوا فيها سَمِعُوا لهاشهيقاً وهىتفور * تكادُتَميَّزُمن الغيظِ » . الملك : ٧

والتفت المفسرون إلى ما تقتضيه الصنعة النحوية من تقدير مفعول ثان للفعل « تُحدّث » الذى يتعدى إلى اثنين . وعند أبى حيان أن المحذوف أو لهما ، أى تُحدّث الناسَ أخبارَها .

ونرى القرآن قد بينه بما يغنى عن أى تأويل :

« بأنَّ ربَّكَ أوْحَى لها » .

والإيحاء عند « الزمخشرى » مجاز ، كقوله تعالى : « أن نقولَ له كُن فيكون » .

وقال الطبرسى فى مجمع البيان : « أوحى لها ، أى ألهمها وعرّفها بأن تحدث أخبارها » .

* * *

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ١٠٥ . وانظر معه (باب ذكر البعث) فى سنن ابن ماجه : الجزء الثانى ط الحلبى .

وبمعنى الوسوسة ، وفيها السر والخفاء ، فى آيتى الأنعام ١١٢ ، ١٢١ :

« وكذلك جَعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا * ولو شاءَ ربُّك ما فَعلوه فَذَرْهم وما يَفترون ».

وقال الشيخ محمد عبده : « الوحى هو الأمر الإلهى الخاص ، قال لها : كونى خرابًا ، كما قال لها عند إيجادها : كونى أرضًا . فهذا أمر من الأوامر التكوينية التى هى تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها »[1].

وهى أقوال متقاربة ومقبولة وإن لم يكف تفسير الوحى بالأمر ، أو القول ، لتبين أثر اللفظ فى المعنى ، و« الراغب» كان أقرب إلى حس العربية وهدى القرآن حين قال : « الوحى الإشارة السريعة مع الخفاء ، فإن كان الموحَى إليه حيًّا فهو إلهام ، وإن كان جماداً فهو تسخير »[2] .

فالعربية قد استعملت الوحىَ بمعنى السرعة ، فقالت : الوحَى الوحَى ، أى البدار البدار . **ومن أمثالهم** : الموتُ بالسيف أوْحَى ، أى أسْرَعُ وأحسم .

ولُحِظ مع السرعة الخفاءُ ، فقيل وَحَى إليه ، أشار وكلَّمه سِرًّا . ومن الخفاء والسرعة الملحوظين فى المادة ، جاء الوحىُ بمعنى الإلهام بملحظٍ من خفاء مصدرِه وسرعة حدوثه .

والقرآن استعمل الوحى فى خفىّ الإلهام فى :

آية الشورى ٥١ : « وما كان لِبَشرٍ أَن يُكلمَه اللهُ إلا وَحْياً أَو مِنْ وراءِ حِجَاب ».

وآية القصص ٧ : « وأَوحينا إلى أُم موسى أَنْ أَرضعيه فإذا خفتِ عليه فأَلقيه فى اليمِّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادُّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين » .

---

(١) تفسير جزء عم : سورة الزلزلة .

(٢) مفردات القرآن : مادة وحى .

« وقيل الموحَى إليه محذوف ، أى أوحى إلى ملائكته المصرّفين أن تفعل بالأرض تلك الأفعال . واللام فى (لها) للسبب ، أى من أجلها ومن حيث

«وإن الشياطينَ لَيوُحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

وبمعنى التسخير فى آية النحل ٦٨ :

وأَوحى ربُّك إلى النحل أَن اتخذى من الجبال بيوتاً » .

على أن أكثر استعمال الوحى فى القرآن ، فيما يلقيه الله إلى أنبيائه .

وفى آية الزلزلة : ليس الوحى بمعنى الأمر ، لأن الأمر يقتضى توجيه الحديث ويعوزه ما للوحى من دلالة السرعة والخفاء ، وإنما الوحُى يكفى منه إيداعُ القوة فيها ، مما هو أنسب لجو التسخير والمطاوعة المسيطر على الموقف .

وعدّىِ الفعل « أوحى » باللام ، وهو ما لَفَت المفسرين واللغويين ، لأن المشهور تعديتها بإلى .

ونرجع إلى القرآن الكريم ، فنراه استعمل الفعل إحدى وسبعين مرة : فى مرتين منها ، لم يصرح بالموحَى إليه :

النجم ٤ : «إن هو إلا وحىٌ يُوحَى » .

الشورى ٥١ : « فيُوحِى بإذنِه ما يشاءُ » .

وفى سبع وستين مرة ، تعدى الفعل بِ : إلى .

ومرة واحدة تعدى بِ : فى ، بآية فُصّلتْ ١٢ :

«وأَوحى فى كل سماءٍ أمرَها »

وفى آية الزلزلة وحدها تعدى الفعل باللام

قال أبو حيان : وعدّى أوحى باللام ، وإن كان المشهور تعديتها بإلى ، لمراعاة الفواصل . . .

الأفعال فيها ، وإذا كان الإيحاء إليها احتمل أن يكون وحىَ إلهام ، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة »[1].

أما « ابن هشام » النحوى فجاء بالآية شاهداً على أن اللام تأتى موافقة لإلى ، كما تأتى موافقة لـ : على ، وفى ، وعند ، وبعد ، وعن ، ومع[2]، بشواهد على هذا كله من فصيح العربية .

ونرجئ النظر فيما قالوا لنتدبر صنيع القرآن ، فيما استقرأنا من مواضع استعماله للفعل ، فنرى أن الموحَى به يتعدى إليه الفعل بنفسه

أما الموحَى إليه ، فيتعدى الفعل إليه بحرف الجر إلى ، إذا كان من الأحياء ، باستقراء الآيات السبع والستين التى جاء الوحى فيها بإلى ، ومنها آية النحل ٦٨ :

« وأَوحى ربُّك إلى النحلِ أَن اتخذى من الجبالِ بيوتاً ومن الشجرِ ومما يعرشون * ثم كُلِى من كلِّ الثمراتِ فاسلُكى سُبُلَ ربِّكَ ذُلُلًا » .

أما الجماد فلا يتعدى الوحى إليه بحرف إلى ، بل بحرف فى :

« وأَوحَى فى كلِّ سماءٍ أَمرَها » .

أو باللام ، فى آية الزلزلة : « أوحى لها » :

ويُلتمس تعيين دلالة الحرف ، بالسياقين :

فى السماء « أوحى فى كل سماء أمرها » أى بث فيها ، مابه نظامُها ، فعدَّى الفعل بـ (فى) الظرفية التى تدل على التمكين « ذلك تقدير العزيز العليم » .

وفى الأرض ، عدى الفعل باللام . وقد قال ابن هشام فى المغنى : « إن اللام تقوم مقام إلى » واستشهد بآية الزلزلة .

---

(١) البحر المحيط : ٨ /٥٠١ .
(٢) مغنى اللبيب : ١ /١٦٣ .

وهو مذهب عامة النحاة ، ويراه خاصة من فقهاء العربية مبطلا لحقيقة اللغة ، من حيث لا يمكن أن تؤدى وظيفتها فى التعبير والبيان ، إذا اختلطت الدلالات ولم يتميز حرف عن حرف[١] .

وما قالوه ، فى أن هذا لمراعاة الفواصل ، غير مقبول هنا ، أو حيثما قالوه فى القرآن ، لأننا لا نسلم ، بل لا نعرف أن هذا البيان المعجز ، يؤثر كلمة على غيرها لمجرد ملحظ لفظى لا يقتضيه المعنى .

والقول بأن « الموحَى إليه محذوف ، أى أوحى إلى ملائكته » معناه أن الموقف يحتاج إلى وساطة لإيصال الإيحاء إلى الأرض . وهو ما يأباه السياق الذى يقتضى عكس ذلك :

فمع بناء « زلزلت الأرض » للمجهول ، ومع قوة الفاعلية المستفادة صراحة من إسناد الإخراج والتحدث والزلزلة إلى الأرض ، لا وجه لتقدير وساطة الملائكة ، لإيصال الإيحاء إلى الأرض التى زلزلت زلزالها ، وأخرجتْ أثقالها ، وتُحدِّث أخبارها . فالبيان يقوم على قوة هذه الفاعلية فى تصوير هول الموقف الذى يدهش له الإنسان فيقول فى عجب وقلق : ما لها ؟ ! فاقتضى أن يأتيه الجواب « بأن ربك أوحى لها » تُحدِّثُ به الأرض نفسُها تلقائيًّا ؛ فالإيحاء هنا للأرض مباشرةً ليلائم إسناد التحدث إلى الأرض ، وسرَّ قوته فى هذه التلقائية المباشرة على وجه التسخير . ومن هنا كان إيثار التعدية باللام ، لما فى معنى اللام من اختصاص ، وإلصاق ، وصيرورة ، وتقوية الإيصال ، وهى معان عرفها اللغويون أنفسهم فيها ، وعدُّوها فيما عدّوا من معانيها التى أحصاها « ابن هشام » فى (مغنى اللبيب) وإن لم يلتفتوا إليها هنا فى البيان القرآنى ، بل قالوا إن اللام تقوم مقام إلى ، بشاهد من آية الزلزلة : أوحى لها.

* * *

« يومَئذٍ يَصْدُر الناسُ أشتاتًا ليرَوْا أعمالهم »

يومئذ : كرةٌ راجعة إلى ما قبل ، يصل بها القرآن مشاهد الموقف ، ويرد السامعَ إلى ما سبق من آيات ، ويستعيد ما استقر فى خاطره من نُذُر .

---

(١) أبو هلال العسكرى : الفروق اللغوية : ١٣ ط الحلبى بالقاهرة .
والقضية معروضة بتفصيل فى : سر الحرف . من كتاب (الإعجاز البيانى) .

وأكثر المفسرين على أن " يصدر الناس" هنا بمعنى يخرجون من القبور « الزمخشرى » ومنهم من يقول بأن معناها : ينصرفون من موقف الحساب ، كما فى (تفسير الجلالين ، ومجمع البيان للطبرسى) .

وتفسير يصدر بـ : يخرج أو ينصرف ، يفوته إيحاء الكلمة فى حس العربية التى استعملت الصدَرَ مقابلا للورْدِ ، والعرب قد ألفوا استعماله كذلك ، وجرَتْ أمثالهم بأن الوارد يجب أن يعرف كيف يصدر ، وإلا ضاع . قال شاعرهم :

وأحزمُ الناسِ مَنْ لو مات من ظمأ
لا يقرب الورْدَ حتى يعرفَ الصَّدَرا

من ثَم لا أجد ما يفسَّر به الصدرُ فى آية الزلزلة ، إلا نقيض الورْد ، لأن فى ربطهما سرَّ الدلالة الموحية بأن الحياة الدنيا ليست بدار مقام ، وإنما هى رحلة نجتازها ولابد من تأمين طريق العودة والصدر .

ولا يمكن أن يغنى عن « يصدر » فى هذا الموقف ، أىُّ لفظ آخر أو يقوم مقامه ، إذ تتمثل لهم به الدنيا مورْداً يجب أن يؤمِّنوا الصدَرَ عنه . والقرآن قد استعمل اللفظ نفسه ، بصريح مقابلتِه لورْدِ الماءِ ، فى قصة موسى وابنتى شعيب بآية القصص ٢٣ :

« ولما وَرَدَ ماءَ مدْينَ وَجَدَ عليه أُمَّةً من الناسِ يَسْقُون ووجَد من دونِهم امرأتينِ تَذُودانِ ، قال ما خطبُكما قالتا لا نَسقِى حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأَبونا شيخٌ كبير » .

وبهذه الآية نستأنس فى فهم آية الزلزلة على أن الصدر مقابل الورد ،

وأبو حيان ، قد صرح بأن « الصدرَ يكون عن ورْد » وعقّب على هذا بقول الجمهور : هو كونُ الناس فى الأرض مدفونين ، والصدرُ قيامهم للبعث [1] .

---

(١) البحر المحيط : ٨/ ٥٠٠ .

وكذلك حام « الراغب » حول ما فهمناه من معنى يصدُر ، حين جاء بها مقترنةً بالصدَرِ عن الماء ، لكنه فسرها بعد ذلك بالانصراف فقال :

« وإذا عُدّى صَدَر بعن ، اقتضى الانصرافَ » تقول : صدرت الإبلُ عن الماء صدراً ، وقال تعالى : يومئذ يصدُر الناس أشتاتًا » .

وقال الشيخ محمد عبده : صدَر عن المدينة ، أى سافر منها . ثم فسر « يصدُرُ الناس » بقوله : يذهب الناس .

ولا نطمئن إلى شيء فى تفسير الصدر إلا أنه مقابل الورد : يكون عن ماء كما فى آية القصص ، وعن الحياة الدنيا كما فى آية الزلزلة ولم يستعمل القرآن الصدر إلا فى هاتين الآيتين .

وكونهم يصدرون « أشتاتًا » أى متفرقين . أدعى للحيرة والخوف والرهبة ، إذ مع الجماعة يكون نوعٌ من الأُنس والإلف ، لا يُتاح مثلُه مع التشتت والتفرق ، لا سيما فى موقف الهول الأكبر .

وأشتات : جمع شت ، والشت والشتات فى اللغة التفرق والاختلاف . وقد وردت المادة فى خمسة مواضع من القرآن . ثلاثة منها بصيغة شتى :

طه ٥٣ : « وأَنزلَ من السماءِ ماءً فأَخرجنا به أَزواجاً من نباتٍ شَتَّى » .

الليل ٤ : « إن سَعْيَكُم لَشَتَّى » .

الحشر ١٤ : « لا يُقاتلونكم جميعاً إلا فى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أو من وراءِ جُدُر ، بأْسُهم بينهم شديدٌ ، تَحْسَبُهم جميعاً وقلوبُهُم شَتَّى ذلك بأَنهم قومٌ لا يعقِلون » .

والمرتان الأخريان بصيغة أشتات ، منصوبة على الحال : آية الزلزلة ، والنور ٦١ : « ليس عليكم جُنَاحٌ أَن تأْكلوا جميعاً أَو أَشتاتاً » .

ومعنى التفرق، المقابل للتجمع، واضح فى الآيتين، أما شتى فالملحوظ فيها التنوعُ والاختلاف. وبالتفرق، فسر «الراغب» أشتاتًا فى آية الزلزلة، وهو ما يعطيه اللفظُ من قرب، وتؤيده آية النور، كما يؤيده أن القرآن استعمل فى وصف الموقف نفسه، البعثرة والانتشار، والبث:

«أَفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور».

«وإذا القبور بعثرت».

«خُشعاً أَبصارهم يخرجون من الأَجداث كأَنهم جراد منتشر».

«يوم يكون الناس كالفراش المبثوث».

ولكن كثيراً من المفسرين، ذكروا فى تأويل أشتات أقوالا بعيدة، لا يعين عليها الحس اللغوى للمادة، والاستعمال القرآنى لأشتات، وما يؤنس إليه وصفُه للخروج فى الموقف نفسه بالبعثرة، كأن الناسَ جرادٌ منتشر أو فراش مبثوث.

فالزمخشرى يقول فى الكشاف:

«أشتاتًا: بيضُ الوجوه أو سودُ الوجوه فزعين. أو يصدرون عن الموقف أشتاتًا يتفرق بهم طريقا الجنة والنار».

وأظنه ما يُفهَم من قول أبى حيان فى (البحر المحيط): «أشتاتًا، جمع شت، أى فِرقًا»

والطبرسى فى (مجمع البيان) يذهب إلى أن أشتاتًا: «يرجع الناسُ عن موقف الحساب بعد العرض: أهل الإيمان على حدة، وأهل كلِّ دين على حدة».

والشيخ محمد عبده يفسره بأن الناس يذهبون «على اختلافهم، شقيهم وسعيدهم، محسنهم ومسيئهم».

وما نرى هذه التأويلات، تعود على المعنى بشىء ذى بال، وإنما تقوى الإثارة والترهيب والردع، حين يكون من التشتت بمعنى التفرق والبعثرة والانتشار، بما تقتضيه طبيعة الموقف من اضطراب، ولما يكون مع التشتت من فقدان الأنس

بالجماعة والتماس نوع من الأمان ، ولو على سبيل الوهم . فى الصحبة والتجمع .

وهم يصدرون أشتاتـًا « ليـُرَوا أعمالهم » .

وفى قراءة : ليرَوا أعمالهم ، على البناء للمعلوم ، ولكن الجمهور على قراءة الأئمة بالبناء للمجهول[1] ، وهى الظاهرة المسيطرة على السياق ، تركز الانتباه كله فى الموقف : يصدُر فيه الناسُ أشتاتـًا ، مـَقـُودين إلى الحشر .

* * *

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » .

المثقال ما يوزن به ، وقد ورد اللفظ فى القرآن ثمانى مرات أضيف فى اثنتين منها إلى حبة من خردل :

الأنبياء ٤٧ : «ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم ِ القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثْقالَ حَبَّةٍ من خردلٍ أَتينا بها ، وكفى بنا حاسِبين » .

لقمان ١٦ : «يا بُنَىَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبَّةٍ من خردل فتكنْ فى صخرةٍ أَو فى السموات ِ أَو فى الأَرض يـأْت ِ بها اللهُ » .

والسياق فى الآيتين يرجح ، والله أعلم ، أن المقصود بمثقال حبة من خردل هنا ، ليس خفة الوزن ، وإنما ضآلة الحجم ، وأنها فى هذا الكون الواسع لا تغيب على علم الله ، رغم كونها لضآلتها وهونها مظنة الخفاء .

وفى المرات الست الأخرى ، أضيف مثقال إلى ذرة :

يونس ٦١ : «وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مثقال ِ ذرةٍ فى الأَرض ِ ولا فى السماءِ ولا أَصغرَ من ذلك ولا أَكبرَ إلا فى كتابٍ مُبين ».

سبأ ٣ : «عالِم الغيبِ لا يَعزُبُ عنه مِثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات ِ

(١) أبوعمرو الدانى : التيسير ٢٢٤ .

ولا فى الأَرضِ ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا فى كتاب مبين ».

ومظنة الخفاء، لضآلة الحجم، أقربُ فيهما كذلك إلى دلالة السياق. على حين تتعين دلالةُ «مِثقال ذرة» على خفةِ الوزن فى الآيات الأربع التالية:

النساء ٤٠ : «إن الله لا يظلِمُ مثقالَ ذرةٍ».

سبأ ٢٢ : «قل ادعُوا الذين زعمتم من دونِ الله، لا يملكون مثقالَ ذرةٍ فى السموٰات ولا فى الأَرض».

وآيتى الزلزلة.

وواضح أن المقصود بالذرة فيهما خِفَّةُ الوزن، وقد حاول محاولون أنْ يعيِّنوا مقدارَ الذرة على وجه التحديد: ففى (لسان العرب) عن ثعلب: «إن مائةً منها وزنُ حَبَّةِ شعير».

وقال أبو حيان فى (البحر): إنها النملة الصغيرة، حمراء رقيقة.

وفى (الكشاف): «قيل هى النملة الصغيرة، وقيل: الذرُّ ما يُرى فى شُعاع الشمس من الهباءِ».

ومثله فى تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده.

الأقوال قريبة، ولا شىء منها بموضع إنكارٍ كالذى جاء به محدثون من بِدَع التفسير العصرى، فذهبوا إلى أنها الذرةُ التى اكتشف العلم سرها فى القرن العشرين ! !

وقد نرى أن تحديد المفسرين للذرة، ليس مراد القرآن ولا هو من مألوف بيانه. والعربية قد عرفت الذرَّ فى كل ما يمثل الضآلة والصغر وخفة الوزن، تقول: ذررتُ المِلحَ والدقيقَ والفُتَاتَ: نَثَرْتُه بأطرافِ الأصابع. والذرُّ الهباءُ يُرى فى شعاع الشمس، وبولغ فى وصف تناثرِ النمل الصغير المنَبثّ فقيل: ذر. وفى (لسان العرب) نص صريح على أن «الذرة ليس لها وزن» لفرط صغرها وخفتها.

ونؤثر أن نفهمها بحسِّ العربية على هَدْىِ البيان القرآنى، دون تكلف لتقدير الأوزان والأحجام والألوان. وما فهم العرب، الذين بُعث فيهم رسول

منهم ، من قوله تعالى : « مثقالَ ذرة » إلا أنه التناهى فى الضآلة والخِفَّةِ والصغر ، حتى ليكون من الهباء الذى لا وزن له .

وهو ما يلائم ، ماديًّا وبيانيًّا ، جو الموقف ونسق السياق ، من الزلزلة والانفجار والتفتيت والتشتيت . . . فهم يخرجون أثقالا ، ويصدُرون أشتاتًا ، ويُرَوْنَ أعمالهم مثقالَ ذرة من خير أو شرّ .

* * *

ونفرغ بعد هذا لعقدة الموقف فى « مثقال ذرة » بآيتى الزلزلة ، وما ثار حوله من خلاف قديم بدأ بتساؤل المفسرين من الفرق وأصحاب الكلام : « للقائل أن يقول : إن حسناتِ الكافر مُحبَطَة بالكفر ، وسيئات المؤمن مَعفُوةٌ باجتنابِ الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرة للخير والشر ؟ »[١] .

ولكى يَحُلُّوا عقدةَ الموقف المفترَض ، عمدوا إلى تأولات شتى ، فقال « الزمخشرى » — من المعتزلة — بتخصيص العامل فى الآيتين ، فالمعنى عنده : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من فريق السعداء ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا من فريق الأشقياء » .

وقال أبو حيان ، وهو ممن مالوا إلى الظاهرية :

« والظاهر تخصيص العامل — فى الخير — أى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من السعداء ، لأن الكافر لا يرى خيراً فى الآخرة ؛ وتعميمه فى آية * ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره * لأنه جاء بعد قوله : * يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم * . وقال ابن عباس : هذه الأعمال فى الآخرة ، فيرى الخيرَ كلَّه من كان مؤمنًا ، والكافر لا يرى فى الآخرةِ خيراً لأن خيره قد عُجل له فى دنياه . فالمؤمن تُعجَّلُ له سيئاتُه الصغائر فى دنياه ، فى المصائب والأمراضِ ونحوها ، وما عمل من شرٍّ أو خير رآه » .

لكن « الطبرسى » — من الشيعة — فى مجمع البيان ، ذهب إلى أن « هذه الآية يُستدل بها على بُطلان الإحباط ، فظاهرُها يدل على أنه لا يفعل أحدٌ شيئًا من طاعة أو معصية ، إلا ويُجازَى عليه » .

---

(١) الكشاف ، والبحر المحيط : آية الزلزلة .

وهو ما يبدو أن الشيخ محمد عبده أخذ به فقال : « قيل إنها نزلت لإزالة ما وقع فى نفوس كثير من المؤمنين ، من أن الخير القليل لا ينظر الله إليه ولا يجازِى عليه ، وكذلك الصغائر من الذنوب ؛ فأزال شبهتهم وكشف عنهم وَهْمَهم ، وعرَّفهم أن لا شىء من عمل الإنسان يفوته ، فالخير يجازَى به مهما صغر ، والشر يلقى جزاءه مهما نزر » .

لكن هذا كله لم يحسم الموقف ، إذ يواجهه صريح الآيات المحكمات فى مغفرة الله تعالى لمن يشاء من عباده :

النساء ٤٨، ١١٦ « إن اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشْرَكَ به ويَغفِرُ ما دونَ ذلك لمن يشاءُ » .

الزمر ٥٣ : « قلْ يا عبادِىَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تقنَطوا من رحمةِ الله ، إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفورُ الرحيم »

مما اضطر بعضهم إلى القول بأن « المؤمن يرى عقوبته فى الدنيا » أو قيد العقاب بمثقال ذرة ، على « ما يفعلون من شر إذا لم يكونوا تابوا عنه »

وما كنا لنطيل الوقوف عند هذا الجدل الذى يبدو مما لا يتعلق به التفسير البيانى ، لولا أنه يصل بنا أخيراً إلى ما يؤيد دعوتنا الملحة إلى الدرس المنهجى لدلالات الألفاظ القرآنية ، وتدبر أسراره البيانية .

* * *

فلنسأل بعد كل ما سمعناه من خلاف تأزّمَ ، ومن محاولات عَسِرة للخروج من المأزق المفترض :

ما الذى أقحم قضية الإحباط ومسألة الحساب على آيتى الزلزلة ، وليستا متعلقتين بجزاء أو عقاب ؟

نص الآيتين ، يغنينا عن كل ذاك العناء ، والتدبر الدقيق لبيانه يعفينا من التكلف والتأول ، ويريحنا من القيد والتخصيص والتعميم . فالذى فى الآيتين أن من يعمل مثقال

ذرة خيراً أو شراً « يره » ولم يقل تعالى : « يُجزَ به أو يُحاسَبْ عليه » : وفى الآية قبلهما : « يومئذ يصدرُ الناسُ أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم » شاهد على أن الموقف متعلق برؤية الإنسان عمله مُحْضَراً فى دقة « لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها » .

ثم يكون الحساب والجزاء بعد ذلك بعدلِ الله وفضله ورحمته ، سبحانه : « يغفر لمن يشاءُ ويعذبُ مَنْ يشاء ، واللهُ غفورٌ رحيم » .

سورة العاديات

بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا *
فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ
عَلَى ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ
مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وحُصِّلَ مَا فى ٱلصُّدُورِ * إِن رَبَّهُمْ بهمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» .

صدق الله العظيم

فراغ

السورة مكية ، والمشهور أنها الرابعة عشرة فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة العصر . وموضوعها : اليوم الآخر .

وتبدأ بعرض مشهد سريع لغارة عنيفة مفاجئة . تباغت القوم صبحا فلا ينتبهون إليها إلا وقد توسطت جمعهم فبعثرتهم وسط عاصفة من النقع المثار .

وتأتى هذه الصورة العنيفة بعد واو القسم ، لافتة إلى ما عهد القوم من مثل تلك الغارات المفاجئة المصبحة ، وما تُحدث من بعثرة وحيرة وارتباك . ثم تأتى بعدها صورة أخرى لغيب غير مشهود ، ولكنه واقع حتما : البعث يفجأ على غير موعد ، فإذا هم فى حيرة وبعثرة وارتباك ، قد لفظتهم القبور لليوم الآخر كالفراش المبثوث ، وإذا كل ما فى صدورهم قد حُصِّل ، لم تفلت منه خافية مضمرة ، مطوية فى أعماق الصدر ومستكن الضمير .

وفى كل كلمة ، بل فى كل حرف منها ، سرّه البيانى الباهر فيما قصد إليه القرآن من إحضار مشهد ليوم البعث شاخصا مجسما ، وتأكيد وقوعه ، والإنذار بما ينتظر الإنسان فيه من حساب دقيق عسير .

* * *

ونبدأ بالواو فى :

«والعَادِيَاتِ ضَبْحًا» .

الواو فى أصل الاستعمال اللغوى للقسم ، ويتجه به جمهور المفسرين إلى تعظيم ما يقسم به وتأكيده ، وهذه الفكرة المسيطرة عليهم ، تدفعهم — على ما رأينا ونرى — إلى ضروب من التأويلات ، لا تخلو من غرابة وقسر واعتساف .

وفى العاديات هنا قولان : فهى الخيل فيما ذهب كثير منهم ، ولكى يستقيم لهم مفهوم العظمة بالقسم بها ، تأولوها بخيول المسلمين فى غزوة بدر ، وهو قول روى عن ابن عباس ، والحسن ، وأخذ به جماعة من المفسرين .

لكنهم رووا كذلك عن ابن عباس ما نصه : «كنت جالسا فى الحجر ، فجاء رجل فسألنى عن العاديات ضبحاً ، ففسرتها بالخيل ... فذهب إلى "على"

وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلتُ ، فقال : ادعُه لى . فلما وقفت على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك به ؟ والله إن كانتْ لأوَّل غزوة فى الإسلام بدرٌ ، وما كان معنا إلا فرَسان : فرس للزبير وفرس للمقداد . العاديات ضبحًا ، الإبلُ من عرَفة » .

يعنى إبلَ الحاجِ تعدو من عـَرَفـَةَ إلى المزدلفة ، ثم إلى مِنـَى ، وتثير الغبار عند وادى محسر .

وكذلك ذهب " عبد الله بن مسعود " إلى تفسيرها بالإبل ، وتابعه على هذا عدد من المفسرين ، ملتفتين إلى معنى الإعظام فى كونها إبل الحاج .

وردَّ أصحاب التأويل بالخيل بأن سياق الآيات بعدها : « فالموريات قدحًا . فأثرن به نقعاً » يدل على أن العاديات هى الخيل ، إذ لا يكون الإيراء ، وهو قدح الشرر ، إلا لسنابك الخيل . أما الخُف ففيه لين واسترخاء (الجرجانى) . وأما القول بأنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ، ولا خيل للمسلمين تغزو ، « فهذا لا يلزم ، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل » .

فكان رد أصحاب الإبل على هذا الاعتراض أن فَصَلوا الموريات عن العاديات ، وفى هذا يقول ابن القيم : « ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافَها أبعدُ شيء من وَرْيِ النار ، تأولوا آية الموريات على وجوه بعيدة ، فقال محمد بن كعب ، القرظى : هم الحاج أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة ، وعلى هذا فيكون التقدير : فالجماعاتُ الموريات . وهذا خلاف الظاهر ، وإنما الموريات هى العاديات ، وهى المغيرات»[1] .

واتجهت محاولة بعضهم فى التأويل بالإبل ، إلى أن يُستعار لها ما هو للخيل أصلا ، فقال الزمخشرى :

« إن صح ما رُوِى عن " على " فقد استعير الضبحُ للإبل ، كما استعير المشافر والحافر للإنسان ، وما أشبه ذلك »[2] .

---

(١) التبيان : ٧٨ .

(٢) الكشاف : العاديات .

وهكذا يظل الخلاف دون أن ينحسم . فلكل قول ٍ ردٌّ ، ولكل اعتراض جواب !

وما نرى سببـًا لهذا كله إلا سيطرة فكرة تعظيم المقسم به على هؤلاء وأولئك ، فالذين قالوا : هي الخيل ، قصروها على خيل الغزاة ليظهر وجهُ التعظيم في القسم بها . والذين قالوا : هي الإبل ، قصروها على إبل الحاج تنطلق من عرفة إلى المزدلفة ثم إلى منى ، للغرض نفسه .

والقلة التي ذهبت إلى أن العاديات هي الخيل بعامة ، لم تتخل عن فكرة التعظيم ، وجهد المحاولة لبيانها وتقريرها . فابن القيم يصرح بأنه لا يلزم حتمـًا أن نخص العاديات بخيل الغزاة وإن كانت أشرفَ أنواع الخيل « فالقسمُ إنما وقع بما تضمـَّنه شأنُ هذه العاديات من خلق هذا الحيوان الذى هو من أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذى يحصل به العزُّ والظفرُ . . . فذكـَّرهم تعالى بنعمته عليهم فى خلق هذا الحيوان الذى ينتصرون به على أعدائهم ويدركون به ثأرهم »[1] . أخذه « الشيخ محمد عبده » فتوسع فى بيان هذا الوجه لتعظيم الخيل ، أقسم الله بها « لينوه بشأنها ، ويُعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهلِ العمل والجد ، ليعنوا بقـُنيتها وتدريبها على الكرِّ والفر ، وليحملـَهم أنفسـَهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها ، ليكون كل واحد منهم مستعداًّ فى أى وقت كان لأن يكون جزءاً من قومة الأمة إذا اضطرت إلى صدِّ عدو . وكان فى هذه الآيات القارعات ، وأشباهٍ لها ، وفيما ورد من الأحاديث التى لا تكاد تحصر ، ما يَحمِل كلَّ فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل ، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها ، وأن يكون فنُّ السباق عندهم يسبق بقيةَ الفنون إتقانـًا . . . »[2] .

وقد مضى القول ، فى تفسير سورة الضحى ، بأن القسم بالواو هنا أقرب إلى أن يكون قد خرج عن أصل معناه فى الوضع اللغوى ، لملحظ بيانى بلاغى .

---

(١) التبيان : ٧٨ . (٢) تفسير جزء عم : سورة العاديات .

ولو خلينا فكرة التعظيم بالقسم جانبًا ، لبدا لنا بوضوح أن جو السورة لا يوحى – من قريب أو بعيد – بشيء من بيان عظمة الخيل وفوائدها ، والحث على التسابق إلى قنيتها ، والإغراء بفن السباق . . وإنما هو مشهد مثير ، لغارة مفاجئة تُصبح القوم بغتةً على غير انتظار .

وموقف المباغتة ، يلائمه قِصَرُ الآيات بما فيه من حسم ، وسرعة الانتقال ، وتلاحق الأحداث ما بين العدو ، وإيراء القدح ، وإثارة النقع ، إلى توسط الجمع ، فما إن تعدو الخيل ضَبْحًا ، موريات قدحًا ، مغيرات صُبحًا ، حتى تكون قد توسَّطت الجمعَ فى النقع المثار .

ولفظ « العاديات » لم يرد فى القرآن بهذه الصيغة إلا هنا ، والأصل اللغوى للعدو هو البُعد والتجاوز ، ومنه العُدوة للمكان المتباعد ، والعَدو الوثب . واستعمال العَدْو فى الجرى الشديد ، ملحوظ فيه البُعد والوثب وتجاوز المألوف من الجرى ، كما أن استعماله فى العداوة ، ملحوظ فيه التباعد والجفاء ، واستعماله فى العدوان والبغى ، ملحوظ فيه تجاوز الحق كذلك .

وقد يقال للفُرسان عادية ، لكن الضَّبْحَ يعيّن أن المقصود بها هنا الخيل لا الفرسان ، لما أشرنا إليه من اختصاص الخيل بالضبح ، وهو صوت أنفاسها حين تعدو سريعًا .

واختلفوا فى التوجيه الإعرابى لنصب « ضبحًا » : فهو مصدر على تقدير « والخيل تضبح ضبحاً » أو هو حال على تقدير « والعاديات ضابحة » لكنهم لم يبينوا أثر كل من المصدرية أو الحالية على المعنى .

ولعل المصدرية هنا أولى ، لما فيها من معنى الإطلاق المحض . .

وعطَف الموريات قدحًا على العاديات ضبحاً ، بالفاء وفيها ملحظ السببية ، لأن الإيراء أثرٌ للعدو الشديد ينقدح به الشرر من حوافر الخيل . ولم ترد مادة قدح فى القرآن إلا فى هذه الآية ، أما الإيراء فجاء فعلا مضارعًا على أصل معناه فى إيراء النار ، بآية الواقعة ٧١ :

«أفرأيتم النار التى تورون» .

وبآية الواقعة هذه ، استشهد الذين قالوا إن العاديات هى إبل الحاج ، ففسروا الموريات بأنها جماعات الحجيج إذ يوقدون نيرانهم ليلة المزدلفة ؛ وهو ما وصفه « ابن القيم » بالتأول على وجه بعيد ، وقال فيه : « وهذا خلاف الظاهر ، وإنما الموريات هى العاديات »[١] .

والعطف بالفاء ، فيه مع ملحظ من السببية ، ترتيبٌ دون تراخ أو تمهل وإبطاء ، ما بين عدوها ضبحاً وإغارتها صبحاً .

ويلحظ هنا أن العربية تخص الإغارة بالخيل ، ولو لم يذكر لفظ الخيل فتقول : أغار على القوم دفع عليهم الخيلَ ، وأغار الفرسُ : اشتد عدوه فى الغارة . فاستعمال المغيرات للخيل هنا ، يتأيد بمألوفِ الحس اللغوى لهذا اللفظ تُخَصَّ به الخيل .

أما تخصيص الإغارة بوقت الصبح فلم يفت المفسرين إدراكُ مافيه من دلالة على المفاجأة : قال فى التبيان : « والعدُوُّ لم يأخذوا أهبتهم ، بل هم فى غِرتهم وغفلتهم »[٢] . ومثله فى تفسير الشيخ محمد عبده .

وملحظ المباغتة فى الصبح ، أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، اللهم إلا أن نذكر هنا أن اللغة استعملت يوم الصبح بمعنى يوم الغارة ، وأن القرآن الكريم استعمل الصباح والإصباح والصبح فى موقف المباغتة والإنذار ، فى مثل آيات :

الصافات ١٧٧ : «أفبِعذابِنا يستعجلون * فإذا نزل بِسَاحتِهم فساء صباحُ المنذَرين ».

الحجر ٦٦ : « وقضينا إليه ذلك الأَمرَ أنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطُوعٌ مُصبِحين » .

الحجر ٨٣ : «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأَخذتْهم الصيحةُ مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكْسبون » .

(١ ، ٢) التبيان : ٧٨ .

القمر ٣٨ : «ولقد صبَّحهم بُكْرَةً عذابُ مَستقِرٌّ * فذوقوا عذابى ونُذُرِ».

الأعراف ٧٨ : «فأَخذتهم الرَّجفةُ فأَصبحوا فى دارِهم جاثمين».

هود ٨١ : «إن موعدَهم الصبحُ أَليس الصبحُ بقريب»؟

وانظر معها آيات : الكهف ٤١ ، ٤٢ ، القلم ٢١ ، الأعراف ٩١ ، هود ٦٧ ، ٩٤ ، العنكبوت ٣٧ ، الأحقاف ٢٥ .

* * *

«فَأَثَرْن به نَقْعاً».

بالفاء أيضًا ، رُبطت آية : «فأثرن به نقعًا» بالمغيرات صبحاً ، دلالة على الترتيب مع التعاقب الملائم لسرعة الموقف وتلاحق الأحداث .

وللزمخشرى هنا وقفتان : الأولى عند الفعل «أثَرن» علامَ عُطِفَ ، ولم يسبقه فعلٌ فى الآيات قبله ؟ والأخرى عند مرجع الضمير فى «به» قال فى «أثرن» إنه معطوف على الفعل الذى وُضع اسمُ الفاعل موضعه ، لأن المعنى : واللاتى عَدَوْن ، فأَوْرَيْن ، فأَثَرْن . ومثله أو قريب منه ، ما فى تفسير الشيخ محمد عبده .

أما الضمير فى «به» فأرجعه الزمخشرى إما إلى الصبح ، أى أثرن بذلك الوقت نقعًا . ومثله أيضاً ما فى تفسير جزء عمَّ .

وإما أن يكون عود الضمير على المفهوم مما سبق ، أى فأثَرْنَ بالإغارة والقدح والعدوِ . . .

وهذا عندى أوْلى . .

* * *

«فوسَطْنَ به جَمْعاً»

والعطف بالفاء هنا ، ملائم لجو الموقف الذى تسيطر عليه الأخذة المباغتة ، والسرعة الخاطفة ، فمراحل الإغارة تتم جميعًا فى تدافع سريع لاتراخى فيه ،

وتتعاقب واحدةً فى إثر أخرى فى حسم قاطع ، إذ ليس بين العَدْوِ الذى هو مرحلة الابتداء ، واقتحام الجمع الذى هو ذروة الإغارة ، إلا ما بين هذه الآيات القصار المتتابعة فى تلاحق وترابط . وهى مع قصرها وسرعتها ، تكشف بجلاء عن عُنف الإغارة ووقْع المفاجأة . والبيان القرآنى وحده ، هو الذى يستطيع أن يصور أعنف إغارة ، بكل مراحلها ، فى كلمات معدودات ، تصل بالغارة من بدئها إلى ذروتها الحاسمة .

ونتدبر « جمعًا » هنا ، فنلمح دلالتها البيانية ، حين نذكر أن هذا اللفظ يأتى كثيراً فى القرآن ، للحشْدِ الكاثر فى المعركة ، ومع مظِنة القوة والغلبة كما فى آيات :

القمر ٤٤ : «أم يقولون نحن جميعٌ منتصر * سيُهزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّون الدبُرَ * بل الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهى وأَمَرّ » .

آل عمران ١٥٥ : « إن الذين تولَّوا منكم يومَ التقى الجَمْعَانِ إنما استزلَّهم الشيطانُ ببعضِ ما كَسَبوا » ومعها آية ١٦٦ .

القصص ٧٨ : «قال إنما أُوتِيتُه على علمٍ عندى ، أَو لم يعلمْ أَن الله قد أَهلك من قبلهِ من القرونِ مَن هو أَشدُّ منه قوةً وأَكثرُ جمعاً » ؟

آل عمران ١٧٣ : «الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشَوهم فزادهم إيماناً » .

الأَعراف ٤٨ : «ونادى أَصحابُ الأَعراف رجالًا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أَغنى عنكم جمعُكم وما كنتم تستكبرون » .

وسُمّى اليومُ الآخرُ فى القرآن يومَ الجمْع ،لاحتشاد الخلق به بعد بعثهم : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مَشْهودٌ » كما سُمّى موقفُ الحشر جمعاً :

«وتركنا بعضَهم يومئذ يَموجُ فى بعضٍ ونُفِخَ فى الصُّورِ فجمعناهم جمعاً» الكهف ٩٩ .

وانظر معها آيات : آل عمران ٢٥ ، الجاثية ٢٦ النساء ٨٧ ، الواقعة ٥٠ ، الأنعام ١٢ ، التغابن ٩ ، المرسلات ٣٨ ، الشورى ٩ ، ٢٩ .

كما استعمل الإجماع فى حشد الرأى وتدبير الأمر وإحكام المكيدة ، فى مثل آيات :

يوسف ١٥ : «فلما ذهبوا به وأَجْمَعوا أَن يجعلوه فى غَيابَةِ الجُبِّ» .

يوسف ١٠٢ : «وما كنتَ لديهم إِذْ أَجمعوا أَمرَهم وهم يمكُرون» .

يونس ٧١ : «واتلُ عليهم نبأَ نُوحٍ إِذْ قال لقومِهِ يا قومِ إِنْ كان كَبُرَ عليكم مَقامى وتذكيرى بآياتِ اللهِ فعلى اللهِ توكَّلتُ فأَجْمِعوا أَمْرَكم وشُركاءَكم» .

طه ٦٤ : «فأَجْمِعوا كيدَكم ثم ائْتُوا صَفًّا ، وقد أَفلح اليومَ من اسْتعلَى» .

وبكل ما لهذا اللفظ من دلالات الحشد ، والتجمع ، ومظِنة القوة ، يأتى فى «فوَسَطْنَ به جَمْعًا» فيوحى بما كان من احتشادٍ هو مظنةُ قوة لهذا الجمع الذى اقتحمته العادياتُ ضبحًا ، فى إغارتها المصبحة ، وسط النقع المثار .

هنا بلغ المشهد ذروته ، ثم يُتْرَك للتصور أن يذهب كلَّ مذهب فيما يعقب هذا الاقتحامَ المصبحَ المباغِتَ ، من تشتتٍ حائر وارتباكٍ مبعثر ، واستسلامٍ للمصير المحتوم .

* * *

وتمضى الآيات :

«إِنَّ الإِنسانَ لربِّه لَكَنُودٌ * وإنه على ذلك لَشَهيدٌ * وإنه لحُبِّ الخيرِ لَشَديدٌ» .

الكنود وحيدة في القرآن * صيغة ومادة . وهو في اللغة : الكفور للنعمة ، والبخيل ، والعاصي . وربما كان أصل استعماله في الأرض لا تنبت شيئاً .

وجاء في الكشاف ، أن « الكنود بلسان كِندة : العاصي ، وبلسان بني مالك : البخيل ، وبلسان مضر وربيعة : الكفور » .

والمعاني متقاربة على كل حال ، وصلتُها واضحة بالمعنى الذى رجحنا أنه الأصل ، وهو الأرض لا تنبت شيئاً ، فهي عاصية ، وهي بخيلة ، وهي كفور .

وأقرب معانيها إلى آية العاديات ، والله أعلم أنه الكُفران بنعمة الله ، وهو ما ذكره الراغب في (المفردات) .

* * *

« وإنه على ذلكَ لَشَهيد » .

أي يشهد على نفسه بكفران نعمة ربه ، وليس أقوى منها شهادة . . . وهذه الشهادة الدامغة تأتى فى القرآن فى مقام التحذير ، والزجر المقرون بالوعيد ، كالذى فى آيات :

الأنعام ١٣٠ : « يا معشرَ الجنِّ والإنسِ ألم يأتِكم رسلٌ منكم يَقُصُّون عليكم آياتى ويُنذرونكم لقاءَ يومِكم هذا ، قالوا شهِدْنا على أنفسِنا ، وغرّتْهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين » .

والأعراف ١٢٧ ، والبروج ١٧ ، والتوبة ١٧ .

بل إن البيان القرآنى يُنطِقُ بهذه الشهادة ، يومَ الفصل . جوارحَ الإنسان وحواسَّه ، وجِلْدَه ، فى مثل آيات :

فصلت ٢٢ : « ويومَ يُحْشَرُ أَعداءُ اللهِ إلى النارِ فهم يوزَعون * حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودِهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كلَّ شىء ، وهو خلَقكم

أولَ مرةٍ وإليه تُرجَعونَ * وما كنتم تستترون أن يَشْهَدَ عليكم سَمعُكم ولا أَبصاركم ولا جلودُكم ، ولكن ظننتم أَن اللهَ لا يعلمُ كثيرًا مما تَعْمَلون » .

النور ٢٤ : « إن الذين يَرمُون المُحْصَنَاتِ الغافلات المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيم * يومَ تَشْهَدُ عليهم أَلسنتُهم وأَيديهم وأَرجلُهم بما كانوا يعملون » .

يس ٦٥ : « هذه جهنمُ التى كنتم تُوعَدُون * اصْلَوها اليومَ بما كنتم تكفُرون * اليومَ نَخْتِمُ على أَفواههم وتُكلِّمنا أَيديهم وتَشْهَدُ أَرجلُهم بما كانوا يَكْسِبُون » .

وأصل الشهادة فى اللغة من الشهود أى الحضور ، والمشاهدة : المعاينة وما شهادة الإنسان على نفسه بكنود ، وإقراره بكفران نعمة ربه ، إلا من هذا الذى ألفناه فى البيان القرآنى ، من إلزام بالحجة وتأكيد لفداحة الذنب واعتراف به ، فى موقف الزجر والوعيد ، حيث لا سبيلَ بعدَ مثلِ هذه الشهادة الدامغة ، إلى تنصُّل من الذنب أو ادعاء البراءة منه .

لكن عدداً من المفسرين أضاعوا هذا الملحظ البيانى بقولهم : إن الضمير فى « وإنه على ذلك لشهيد » يعود إلى الله تعالى .

مع أن المعنى إنما يقوى بأن يكون الإنسان شاهداً على نفسه ، وهذا هو ما تؤيده آيات الشهادة التى استأنسنا بها فى فهم الآية .

ثم عادوا فى آية « وإنه لحب الخير لشديد » فجعلوا الضمير للإنسان ، فتمزقت بهذا الصنيع وحدةُ السياق فى الآيات الثلاث !

وقالوا فى تفسير الخير هنا إنه المال ، واستأنسوا بآية الوصية الواجبة .

« كُتِبَ عليكم إذا حضَرَ أَحدَكم الموتُ إنْ تَرَكَ خيرًا الوصيةُ للوالدَين والأَقربينَ بالمعروفِ حقًّا على المتقين » . البقرة ١٨٠

وقيده « الراغب » بالمال الكثير : « لا يقال للمالِ خيرٌ حتى يكون كثيراً ، وعلى ذلك قولُه : وإنه لحب الخير لشديد»[١] .

وفى القرآن آيات أخرى ، قد تؤيد تأويل الخير بالمال ، بتوجيه السياق فى مثل :

المؤمنون ٥٦ : « أيحسَبون أنَّما نُمِدُّهم به من مالٍ وبنينَ * نُسارِعُ لهم فى الخيراتِ ، بل لا يشعرون » .

وجاء الخير مرة واحدة للخيل فى آية (ص ٣٢) على لسان داوُدَ :

« إذ عُرِضَ عليه بالعَشِيِّ الصافناتُ الجيادُ * فقال إنى أَحببتُ حُبَّ الخير عن ذكرِ ربى حتى توارتْ بالحجاب * رُدُّوها علىَّ فطفِق مَسْحاً بالسُّوقِ والأَعناق » .

على أن لفظ الخير ، أكثر ما يستعمل فى القرآن بمعنى الأفضل . وقد أحصيتُ من هذا الاستعمال نحو ١٢٥ مرة ، ويقترن بلفظ « أم » المعادلة ، أو يجىء تمييزاً ، أو معطوفًا عليه بأفعل التفضيل .

كما يأتى فى القرآن ، نقيضًا للشر صراحةً فى مثل آيات :

الإسراء ١١ : « ويدعو الإِنسانُ بالشرِّ دعاءه بالخيرِ ، وكان الإِنسانُ عجولا » .

يونس ١١ : « ولو يُعَجِّلُ اللهُ للناسِ الشرَّ استعجالَهم بالخيرِ لَقُضِىَ إليهم أَجَلُهم » .

الأَنبياء ٣٥ : « كلُّ نفس ذائقةُ الموتِ ، ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعون » .

المعارج ٢١ : « إن الإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً * وإذا مسَّه الخيرُ منوعا » .

---

(١) المفردات : مادة خير .

أو مقابَلا بالسوء والضر :

الأعراف ١٨٨ : «ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّنيَ السوءُ» .

الأنعام ١٧ : «وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ فهو على كلِّ شيءٍ قدير» .

ومعها آية يونس ١٠٧ .

واللغة تحتمل أن يكون الخير للمال ، والخيل ، وضد الشر ، والخيار والفضيلة . غير أن سياق آية (العاديات) يُرجح أن الخيرَ فيها هو الخير المادى من مال أو شبهه : فهذا الإنسان الكفور بنعمة ربه ، الشاهد على نفسه بالكنود ، لا يكون حبه للخير الذى هو فضيلة ، وإنما هو حُبٌّ للمال شديد .

والأصل فى الشدّ : قوةُ العقد والوثاق والإحكام ، ماديًّا كما فى آية :

محمد ٤ : «حتى إذا أثْخنتموهم فشُدُّوا الوَثاقَ ، فإما مَنًّا بعدُ وإمَّا فداءً» .

ومعنويًّا فى مثل آيات :

يونس ٨٨ : «ربَّنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبِهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» .

الدهر ٢٨ : «نحن خلقناهم وشدَدْنا أسْرَهم» .

طه ٣١ : واجعل لى وزيراً من أهلى * هرونَ أخى * اشْدُدْ به أزْرى» .

القصص ٣٥ : «قال سَنَشُدُّ عضُدَكَ بِأخيكَ ونجعلُ لكما سلطاناً» .

ص ٢٠ : «وشددنا مُلْكَه وآتيناه الحِكمةَ وفَصْلَ الخطاب» .

كما يعبر القرآن ، عن بلوغ الرشد والقوة بصيغة : بلغ أو يبلغ أشده ، في مثل آيات :

الأنعام ١٥٢ ، الإسراء ٣٤ ، يوسف ٢٢ ، القصص ١٤ ، غافر ٦٧ ، الأحقاف ١٥ ، الكهف ٨٢ ، الحج ٥ .

أما صيغة شديد ، فجاءت في القرآن ، في نحو أربعين موضعًا ، مضافة إلى عذاب الله، و بطشه ، وأخذه ، وعقابه في الآخرة ، أو وصفًا لهذا البطش والأخذ والعذاب ، في مقام الزجر والوعيد : « إنه قوى شديد العقاب » . « إن بطش ربك لشديد » .

وجاءت مرة وصفاً للحديد : « فيه بأسٌ شديد » ومرةً على لسان لوط إذ قال لقومه في آية هود ٨٠ :

« لو أَن لى بكم قوةً أَو آوى إِلى ركن شديد » .

وعلى لسان سليمان منذراً متوعداً ، في آية النمل ٢١ :

« وتفقَّد الطيرَ فقال مالِيَ لا أَرى الهدهدَ أَم كان من الغائبين * لأُعذِّبنَّه عذاباً شديدًا أَو لأَذبحنَّه أَو ليأْتِيَنِّي بسلطانٍ مبين » .

كما جاءت أربع مرات وصفًا لأولى البأس ، والحرَس ، في آيات : الإسراء ٥ ، النمل ٣٣ ، الفتح ١٦ ، الجن ٨ .

كذلك جاءت الشدة ، بصيغة أفعل التفضيل « أشد » في نحو خمسة وعشرين موضعًا ، مميزاً بالقسوة ، والبأس ، والتنكيل ، والكفر ، والعتو ، والعذاب ، والبطش ، والرهبة ، والوطء ، والعداوة ، والخشية ، والقوة .

ومعها آية الصافات ١١ : « فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا » .

وجاءت مرة واحدة مميزةً بالحب في آية البقرة ١٦٥ :

« ومن الناسِ من يتخذُ من دونِ اللهِ أَندادًا يُحبونهم كحُبِّ اللهِ والذين آمنوا أَشدّ حبًّا لله » .

وغلبة الاستعمال القرآني لمادة الشدة ، في موقف الزجر والإرهاب والوعيد ،

يضيف بلا شك ، إلى ما اكتفى المفسرون به فى آية العاديات ، من معنى البخل والإمساك وعدم الانبساط ، إيحاء بالزجر والوعيد، مع ماسبق الآيةَ من شهادة الإنسانِ على نفسه بالكنود لربه .

كما أنه يـَقْوى بالآيات بعده .

* * *

« أَفَلَا يَعْلَمُ إذا بُعثِرَ ما فِى القبورِ * وحُصِّل ما فى الصُّدورِ » .

بما فيها من نذير صادع وزجر رادع .

والبعثرة لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية وفى آية الانفطار :

« وإذا القبورُ بُعثِرَتْ * عَلِمَتْ نفسٌ ما قَدَّمتْ وأَخَّرَتْ » .

وكلتاهما فى بعثرة القبور يومَ القيامة ، وفيهما جاء الفعل مبنيًّا للمجهول ، صرفاً للذهن إلى الحدث نفسه ، وتركيزاً للانتباه فيه . وفيهما أيضًا ، انتقالٌ سريع من بعثرة ما فى القبور إلى الحساب العسير يحصِّل ما فى الصدور وتعلم به كل نفس ما قدمتْ وأخرت .

والبعثرة لغة ، فيها معنى التبديد والتفريق والاختلاط ، وقلْب بعض الشىء على بعض . وقالوا : بعثر الحوض ، هدمه وجعل أسفله أعلاه . وقد يُلحظ فيها معنى التفتيش والكشف ، فيقال : بعثر الشىءَ ، استخرجه فكشفه وأثار ما فيه . كما استُعمِلت البعثرة فى قلَق الجوف وغثَيان النفس .

والمتبادر من مفهوم * بعثر * فى آيتى العاديات والانفطار ، هو التشتت والتفرق والانتثار ، وما يكون عنها من حيرة وضلال واختلاط وارتباك « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » ولكن اللفظ يحتفظ كذلك مع التفريق والاختلاط بما فى الأصل اللغوى ، من دلالة الإثارة والكشف ، فيمهد لما بعده :

« وحُصّل ما فى الصدور »

وقد جىء به فورَ البعثرة، مبنيـًّا للمجهول كذلك ، صَرْفًا عن كلٍّ ما عدا الحدث نفسه ، على المألوف من آيات القيامة .

ولم تأت مادة « حصل » إلا فى آية العاديات :

والتحصيل لغة : الجمعُ والتمييز . وأصله من الحوصل والحوصلة والحوصلاء ،

وهى من الطير كالمعدة للإنسان ، ومن الحوض مستقَرُّ الماء فى عُمقِه الأقصى .

ولهذه الدلالة اللغوية الأصيلة ، أثرها فى معنى « حُصِّل » هنا ، فكل ما يعمله الإنسان مستقر فى أعماقه ، مجموعٌ فى صدره ، حتى يحين أوانُ كشفه بعد بعثرة ما فى القبور للبعث والقيامة .

والتحصيل لما « فى الصدور » إيذاناً بكشف المستور وإظهار المطوى المضمَر — دلالة واضحة ، لا نخطئها فى استعمال القرآن للفظ الصدور :

فالشيطان * يوسوس فى صدور الناس * * والله عليم بذات الصدور[1] *

وهو تعالى : « يعلم خائنة الأَعين وما تخفى الصدور » . غافر ١٩

« يعلَمُ ما تُكِنُّ صدورُهم » القصص ٦٩

« أَوَليسَ الله بأَعلمَ بما فى صدورِ العالمين » . العنكبوت ١٠

« وإن ربَّك ليَعلمُ ما تُكِنُّ صدورُهم وما يعلنون » . النمل ٧٤ .

« قلْ إن تُخفُوا ما فى صدورِكم أَو تُبْدوه يعلمْه اللهُ » . آل عمران ٢٩

وتدبُّر هذه الآيات جميعاً ، يرينا ما فى تأويل آية العاديات : « إن معنى حُصِّل ، جُمِع فى الصحف . أى أظهِرَ محصّلا مجموعاً » من جَوْرٍ على المعنى القوى المثير لقوله تعالى : « وحصل ما فى الصدور » فليس المقام هنا للجَمْع فى الصحف ، وإنما المقام للإنذارِ بيوم ينكشف فيه ما طُوِىَ فى الصدور ، ويظهر ما تُخفِى الضمائر ، وقد كان الظن الكاذبُ به أن يظلّ خفيّاً مستوراً .

* * *

ويلفتنا هنا أن تأتى آية :

« إن ربَّهم بِهِمْ يومَئذٍ لَخَبير » .

بعد بعثرة ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور ، فتصل بالمشهد المثير إلى

---

(١) انظر آيات : آل عمران ١١٩ ، ١٥٤ والمائدة ٧ ، والأنفال ٤٣ ، هود ٥ ، لقمان ٢٣ فاطر ٣٨ ، الزمر ٧ ، الشورى ٢٤ ، الحديد ٦ ، التغابن ٤ ، الملك ١٣ .

ذروة عنفه ، ثم تدع ما بعد ذلك للخاطر يذهب فيه كل مذهب ، وقد آل الأمرُ كله إلى العليم الخبير .

ولسنا هنا بحاجة إلى القول بتضمن خبير لمعنى « مُجازٍ لهم فى ذلك اليوم »(١) بل أولى منه أن نلحظ أن القرآن لم يستعمل الخبير قط ، إلا مسنداً إلى الله تعالى أو اسمًا من أسمائه الحسنى باستقراء مواضع الكلمة وهى نحو خمسة وأربعين.

وتفسيره بالعليم غير دقيق ، إذ جاء الخبير مقترنـًا بالعليم فى آية التحريم ٣ : « قال نبأنى العليم الخبير » . ولقمان ٣٤ والحجرات ١٣ : « إن الله عليم خبير » والنساء ٣٥ : « إن الله كان عليمـًا خبيراً » فدلَّ ذلك على أن الخبرة غير العلم ، واقترن الخبير بالحكيم « وهو الحكيم الخبير » فى آيات : الأنعام ١٨ ، ٧٣ وسبأ ١ ، وآية هود ١ « من لـَدُنْ حكيم خبير » كما اقترن بالبصير فى آية الشورى ٢٧ : « إنه بعباده خبير بصير » . ومعها آيات : الإسراء ١٧ ، ٣٠ ، ٩٦ وفاطر ٣١ .

وتفرَّد الله وحده بوصف « الخبير » — وليس الأمر كذلك فى العليم ، حيث جاء وصفـًا لغير الخالق فى آيات: يوسف ٥٥، ٧٦ . الحجر ٥٣ ، الشعراء ٣٤، ٣٧ هذا التفرد يدل على أن الخبرة أخصّ من العلم ، وهو ما يظهر بوضوح فى آيات :

فاطر ١٤ : « ... ذٰلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ ، والذين تَدعُون من دونِه ما يملكون من قِطمير * إن تَدْعُوهم لا يسمعوا دُعاءَكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون بشِركِكم ، ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير » .

الفرقان ٥٨، ٥٩ : « وتوكَّلْ على الحيِّ الذى لا يموتُ وسبِّح بحمدِه وكفى به بذنوبِ عباده خبيرًا * الذى خلق السمواتِ والأَرضَ وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرشِ الرحمٰنُ فاسأَلْ به خبيرًا » .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط : سورة العاديات

ومن المعانى الحسية للخبر فى اللغة : منقع الماء فى أصوله بالجبل ، والصوف الجيد من أوّل الجزّ . واختبرتَ الشىء أو الشخص . فحصتَه وامتحنتَه لتعرف حقيقةَ أمره .

وإيثار لفظ « خبير » هنا ، بعد أن حُصِّل ما فى الصدور ، مع تأكيده باللام وإنّ فى أول الآية ، يبلغ به الترهيب منتهاه ، ثم يدع للخاطر بعد ذاك أن يتصور ما شاء ، فى ذلك الجو الحافل بالنذير والوعيد .

* * *

وهذه الوقفة الحاسمة ، يبلغ بها القرآن ذروة المشهد العنيف لبعثرة ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور ، تتَّسق مع مشهدِ الإغارة العنيفة فى مُستَهَلِّ السورة ، على وجه باهر من البيان المعجز . ولا أعرف أن أحداً من المفسرين حاول أن يربط بين المشهدين أو لمح ما بينهما من صلة هى معقد القسم ومجلى دِقَّته البيانية .

فالسورة ، كما قلنا آنفًا تبدأ بواوِ القسم لافتة فى قوة إلى المشهد المألوف ، لإغارة عنيفة مفاجئة ، تبغت القوم صُبْحًا فلا ينتبهون إلا وقد توسطت جمعَهم ومزقت شملهم وبعثرتهم وسط النقع المثار .

ويتمثل القوم ما عهدوا من مثل هذه الغارات المصبحة المباغتة ، وما يعقبها من بعثرة وحيرة وارتباك ، توطئة بيانية لمشهد غيبٍ لم يقع يستطيعون أن يدركوا صورةً منه فى ذلك الذى ألفوه وعاينوه . . .

ذلك هو مشهد البعث ، يباغت القومَ — وقد طال ما جحدوا نعمة الله وغرتهم الأمانى — فإذا هم قد بُعثِروا من القبور حيارى ممزقين ، وصدروا أشتاتًا مفرقين ، ثم إذا بالأحداث تتلاحق سراعًا ، مترابطة متدافعة ، فليس بين بعثرة ما فى القبور ، وهول الموقف بين يدى الخبير ، إلا أن يُحَصَّل ما فى الصدور ، لا تفلت منه خافية مضمرة ، ولا غائبة مطوية مستورة فى الأعماق ، كما ليس بين العاديات ضبحًا ، وتوسط الجمع ، وتدبير الأمر ، إلا أن تنطلق فى إغارتها صبحًا ، موريات قدحًا ، مثيرات نقعاً !

وبين هذا المشهد المألوف الواقع ، وذاك الغيب الذى سوف يقع يقينا ، يأتى المقسَم عليه :

«إن الإنسانَ لربِّه لكَنُود * وإنه على ذلك لشهيدٌ * وإنه لحُبِّ الخيرِ لشديد » .

صدق الله العظيم

سورة النازعات

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً *
فَٱلسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ *
تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ
أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً
كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِٱلسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ
إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ *
فَأَرَاهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ *
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللهُ نَكَالَ ٱلآخِرَةِ وَٱلْأُولَى * إِنَّ فِى
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ
سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ
دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ *
فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ * فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ

هِىَ ٱلْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

صدق الله العظيم

السورة مكية متأخرة ، فهى الواحدة والثمانون على المشهور فى ترتيب النزول نزلت بعد النبأ .

وتبدأ بواو القسم ، متلوة بخمس صفات متتابعة فى آيات خمس : وقد أفسح حذفُ الموصوف فيها وإقامةُ الصفات مقامه ، مجالاً واسعًا لتأويلات كثيرة بلغت فى بعض كتب التفسير نحوَ عشرة أقوال .

يطول الخلافُ أولاً حول النازعات ما هى ، وتتعدد الأقوال فيها ثم يَحتكم كلُّ قولٍ منها فى توجيه الآيات التى بعدها ، مع الحرص فى كل حالة على بيانِ وجه التعظيم « للنازعاتِ » بحكم وقوعها بعد واو القسم .

فمن أقوالهم فى النازعات [1] :

أنها الملائكة تنزع نفوس بنى آدم — عن عبد الله وابن عباس .

وقيل : هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق — عن الحسن وقتادة وأبى عبيدة .

وقيل : هى النفوس تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذاهبها — عن السدى .

وقيل : هى القسىّ تنزع بالسهام — عن عطاء وعكرمة .

وقيل : هى الجماعات النازعاتُ بالقِسِىّ — عن عطاء أيضًا .

وقيل : هى المنايا تنزع النفوس — عن مجاهد .

وقيل : هى الوحش تنزع إلى الكلأ — حكاه يحيى بن سلام .

وقيل : هى خيلُ الغُزاةِ تنزع فى أعِنّتِها — جاء فى الكشاف .

وقيل : هى الريح تقلع القوم لشدة هبوبها — جاء فى المفردات .

وأشهر هذه الأقوال جميعًا ، أنها الملائكة تنزع أرواح بنى آدم ، وهو أحد أقوال ثلاثة اختارها الزمخشرى وأدار تفسير الآيات عليها ؛ والقولان الآخران

---

(١) بتلخيص من : تفسير الطبرى ، وتفسير الرازى والبحر المحيط لأبى حيان : سورة النازعات .

هما : النجوم ، وخيل الغزاة .

واختار « الراغب » تفسيرها بالملائكة ، أو الريح .

* * *

ومن تدبر السور المفتتحة بواو القسم ، يبدو لنا أن القرآن يعدل فى هذا الأسلوب عن الأصل اللغوى للتعظيم بالقسم إلى استعمال بلاغى ، هو قوة اللفت إلى مادى محسوس وواقع مشهود ، ليس مظنة مماراة ، توطئة بيانية لمعنوىّ أو غيبى غير مـُدرَك بالحس . على ما سبق الالتفات إليه فى سورتى الضحى ، والعاديات .
وهذا التوجيه يمكن أن تقبله سور : العصر ، والليل ، والفجر ، والشمس ، والمرسلات ، والذاريات ، والتين ، والطور ، والقلم ، والنجم . .
وهى جميعـًا من السور المكية .

وأمام ذلك المألوف من أسلوب القرآن فى اللفت بالواو إلى مادى مُدرَك ، لا نطمئن إلى تفسير « النازعات » بما ذهب إليه أكثر المفسرين ، من أنها الملائكة تنزع الأرواح ، إذ ليست الملائكة فى نزعها للأرواح ، وسبقها إلى تدبير أمر الله ، مما يدخل فى نطاق الحسيات المدركة . كما يبدو مستبعداً فى فهمنا ـ والله أعلم ـ أن يلفت إليها القرآن للاستدلال على البعث ، مَن لا يؤمنون بملائكة تنزع الأرواح وتدبر شئون الكون بأمر الله ، إذ لو كانوا مؤمنين بها ، لصدقوا بالبعث واليوم الآخر .

ونحن أكثر اطمئنانـًا إلى تفسير النازعات بالخيل المغيرة ، دون تحديد لها بخيل الغزاة كما قال الزمخشرى وغيره من المفسرين متأثرين بنزعة التعظيم فى القسم بها ، فما كان للمسلمين فى العهد المكى خيل تغزو ، ولا كان هناك دار سلام ودار حرب يخرج الغزاة منها وإليها ، والقول بأن هذا سوف يكون بعد الهجرة ، لا مجال له هنا مع هذا اللفت إلى واقع مشهود ، توطئة للإقناع بغيب يمارون فيه !

وقد لفت القرآن فى (سورة العاديات) إلى الخيل عاديات ضبحـًا مثيرات نقعـًا مغيرات صبحـًا ، ليستحضر بها موقف البعث إذا بُعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور . وما نرى السياق فى (النازعات) إلا شبيهـًا بالذى فى (العاديات) ؛

فالاستئناس بإحداهما فى فهم الأخرى ، أصحُّ منهجًا من أن نبعد فى التأويل إلى مسبح الملائكة فى آفاقها الغيبية غير المنظورة ولا المدركة .

* * *

وما نطمئن إليه من تفسير (النازعات) بالخيل ، يوجه الآيات بعدها فى يُسر وبلا تكلف ، فهى تنزع فى عَدْوِها وتُغرِق فيه ، وهو الملحظ نفسه فى السبح الذى يجمع له السابح قوته . وبهذا النزع السابح ، تسبِقُ إلى الغاية فتدبر من الأمر ما أجمعت له فى معاناة .

وننظر فى المفردات ، فنرى النزع — وهو لغويًّا بمعنى الجذب والشد والقلع ، ومنه المنازعة شدةُ التجاذب فى الخصومة — قد استعمل فى القرآن ملحوظاً فيه قوةُ الجذب والمعاناة فيما يُظن به الرسوخُ والتأصل ، سواء فى ذلك الفعلُ فى نزع الشيطان لباس أبوينا (الأعراف ٢٧) ونزع موسى يده فإذا هى بيضاء للناظرين (الأعراف ١٠٨ والشعراء ٣٣) ونزع الله النعمة من الإنسان (هود ٩ وآل عمران ٢٦) ونزع ريح صرصر عاتية كُفَّارَ عاد كأنهم أعجاز نخل مُنقعِر (القمر ٢٠)

والصفةُ فى لظى نار جهنم « نزّاعة للشوى » ، أى الأطراف (المعارج ١٦)

وآية النازعات غَرْقا

والغرق فى الأصل اللغوى بمعنى الرسوب فى الماء ، ويستعمل مجازاً فى إغراق البلاء والنعمة . كما يقال أغرق النازعُ فى القوس استوفى مدَّها ، واغترق الفرسُ الخيلَ خالطها ثم سبقها ، وامرأة تغترق نظرَهم أى تشغلهم بالنظر إليها عن النظر إلى غيرها لحسنها .

وفى القرآن جاءت مادة غرق ، عدا آية النازعات ، اثنتين وعشرين مرة . كلها على اختلاف صيغها ، فعلا ومصدراً واسم مفعول ، من الغرق بمعناه الأول القريب فى أصل الوضع اللغوى بصريح سياقها فى اليم والبحر والموج . أو فى إغراق قوم موسى والكفار من قوم نوح .

فسر الزمخشرى « غرقًا » فى النازعات ، بأن الخيل تنزع نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها .

وأخذه أبو حيان من الإغراق فى الشىء أى المبالغة فيه ، قال : أغرق النازع فى القوس بلغ غاية المد حتّى ينتهى إلى الفصل ، وذهب الفيروزابادى فى القاموس إلى أن الغرق فى الآية أقيم مقام المصدر الحقيقى وهو الإغراق .

وقال الشيخ محمد عبده : الغرق فى النزع هو الإتيان على الغايات منه ، حين تنزع الكواكب عن قسى دوائرها .

ونحمله فى الخيل على النزع المغرق ، بما فيه من عنف الجذب وقوة المعاناة .

* * *

«والناشِطَاتِ نَشْطًا » .

لم ترد مادة « ن ش ط » فى القرآن إلا فى هذا الموضع . والنشْطُ فى اللغة يستعمل أصلا فى العقد الذى يسهل حلُّه ، ومنه الأنشوطة : العُقدة يسهل حلها . وبئر نشاط : قريبة القعر يخرج دلوها بجذبة واحدة . ثم قيل : أنشط البعيرَ حلَّه . فنَشِطَ أى انطلق فى سهولة . ومنه ثور ناشط : خارج من أرض إلى أرض .

والتفت « الراغب » إلى ما فى استعمال النشط هنا من تنبيه على السهولة واليسر . ونؤثر أن نضيف إليه ما يربطه بأصله اللغوى ، إفلاتاً من عقال .

* * *

«والسابحاتِ سَبْحاً » .

السبح : العوم ، والأصل فيه أن يكون فى الماء ، ويستعارُ لغةً للخيل فيقال لها السوابح . كما يجىء فى القرآن لسبح النجوم فى الفلك : « وكلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون » ولسرعة المضى فى العمل : « إن لك فى النهار سَبْحًا طويلا » .

والسبْحُ من الخيل ، إنما يكون فى غير مجاله الذى هو الماء ، وهذا يقتضى من تجمع القوى وعنف المعاناة ، ما يلائم النزع المغرق .

* * *

« فالسابقات سَبْقاً » .

السبق التقدم ، ملحوظًا فيه معنى السرعة والمبادرة . واستعماله فى الخيل واضح وقريب ، لكن الذين فسروا النازعات بالملائكة أو بالنجوم أو بالآجال والمنايا ، ذهبوا فى تأويل السابقات ، إلى أنها وصف لهذه أو تلك ، فالملائكة تسبق إلى تدبير شئون الكون بأمر الله ، « والنجوم سابقات فى سبحها فتتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتمم غيرها ، كالقمر يتمم دورته فى شهر قمرى ، وكالأرض تتمم دورتها فى سنة شمسية ، ونحو ذلك من السيارات . ومنها ما لا يتمم دورته إلا فى سنين ، لكن السابقات هى التى انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى[1] » .

وهو تأويل اقتضاه توجيه واو القسم إلى تعظيم المقسم به وهو الملائكة أو النجوم ، « إظهاراً لعظم شأنها وإتقان نظامها وغزارة فوائدها وأنها مسخرة له — تعالى خاضعة لأمره »[2] .

ونفهم السبق هنا ، أثراً لما جمعت الخيلُ من قواها فى نَزْعِها المُغرِق وسبحِها الناشط .

* * *

« فالمدبرات أمراً »

ويلحظ من مادة « التدبير » فى القرآن ، أن الفعل منه يجيء مضارعًا ، مسنداً إلى الله تعالى « يُدَبِّرُ الأمرَ » فى آيات : يونس ٣ ، ٣١ ، والرعد ٢ ، والسجدة ٥ .

وفى المضارعة معنى الاستمرار والإحضار وتدبيره تعالى إحكام للسنَن الكونية . وليس على المفهوم من التدبير الكسبى الذى يكون من البشر . وأصل التدبير فى الاستعمال اللغوى ، أنه من التفكير فى دُبر الأمور وعواقبها ، على أنه يُطلق عادة على تولى الأمر والنهوض بتنظيمه وإدارته ، دون أن تنقطع صلته بالأصل اللغوى .

وقد فسرها الراغب فى النازعات ، بأنها ملائكة موكلة بتدبير أمور الكون .

(١ ، ٢) الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ، سورة النازعات .

وفى الكشاف : « إما أنها الملائكة تدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم فى دينهم أو دنياهم ، وإما أنها خيل الغزاة تدبر أمر الغلبة والظفر ، وإما أنها النجوم تدبر أمراً فى علم الحساب » .

وفى البحر المحيط عن ابن عطية : « لا أحفظ خلافاً فى أنها الملائكة التى تدبر الأمور التى سخرها الله تعالى وصرفها فيها ، كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات » .

وقال الشيخ محمد عبده : « ليس التدبير إلا ظهور الأثر لعمل الكواكب السابقات التى انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية » .

وإذ فهمنا النازعات بالخيل فى نزعها المغرق وسبقها السابح ، يكون التدبير غاية ما تجمعت له قواها فيما أريد لها من أمر الغلبة والحسم .

ووقف « أبو حيان » فى آيات النازعات الخمس الأولى ، عند الوصل بالواو مرتين وبالفاء مرتين . ونص عبارته فيه : « والذى يظهر أن ما عطف بالفاء هو من وصف المقسم به قبل الفاء ، وأن المعطوف بالواو هو مغاير لما قبله . على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض»(١) .

ويظهر من صنيع المفسرين فى توجيه الصفات الأربع ، تبعاً لما اختاروه فى تأويل النازعات ، الميل إلى اعتبار الربط بالواو أو بالفاء من تتابع الصفات : فالناشطات والسابحات فالسابقات فالمدبرات ، كلها أوصاف لموصوف واحد تعينه « النازعات » .

والذى نراه أن السبق والتدبير يرتبطان بالسبح والنشط ، وبالإغراق فى النزع ، على وجه الترتيب والتعقيب الملحوظ فيه السببية ، وهو ما تقضى به طبيعة الاستعمال اللغوى للفاء ، فإغراق الخيل فى نزعها ، ونشاطها المطلق وسبحها فى الهواء ، يعقبه ويترتب عليه أن تسبق فتدبر أمراً جمعت له قواها .

ونتفق مع المفسرين فى أن ما بعد الواو فى الآيات الثلاث صفات لموصوف واحد ، وإن كنا لا نجزم برأى « أبى حيان » فى أن الواو هنا للعطف ، إذ يحتمل كذلك أن تكون فى المواضع الثلاثة ، واو القسم اللافتة ، وقد تغيرت بعدها الصفات والموصوف واحد .

---

(١) بنصه ، من البحر المحيط : ٨/٤٢٠

وفى جواب القسم قيل : قد يكون محذوفاً وتقديره « لَتُبعَثُنَّ » لدلالة ما بعده عليه – قاله « الفراء » . ونص أبو حيان فى (البحر) على أنه المختار .

وعن الترمذى . أن الجواب : « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » – فيما يلى من السورة – ردَّه ابن الأنبارى بقوله : وهذا قبيح . لأن الكلام قد طال .

وقيل : الجواب ، لَيوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . حُذفت فيه اللامُ ، ولم تدخل نون التوكيد ، لأنه فصل بين اللام المُقدَّرةِ والفعل .

وقيل : التقدير ، يوم ترجف الراجفة والنازعاتِ ، على التقديم والتأخير . رفضه أبو حيان وقال : ليس بشىء .

وقول خامس . على تقدير : فإذا هم بالساهرة والنازعات . خطّأه « ابن الأنبارى » ، لأن الفاء لا يُفتَتَحُ بها الكلامُ .

وسادس يقول : الجواب ، « هل أتاك حديث موسى » لأنه فى تقدير : قد أتاك . قال فيه أبو حيان : « ليس بشىء » .

وأضاف : وهذا كله إعرابُ من لم يُحكم العربية . وحذفُ الجوابِ هو الوجهُ(١) .

ولا داعى عندنا لإطالة الوقوف عند هذه التأويلات . فليس القسم هنا على أصل وضعه اللغوى ، فنحتاج معه إلى تسوية القاعدة فى وجوب دخول اللام على الفعل مؤكداً بالنون فى جواب القسم . وإنما يتم لنا بالمقطع الأول من السورة – بآياته الخمس – مشهد حسى وصورة مادية للخيل فيما تعانى من عنف النزع وقوة الجذب وشدة التجمع للإفلات والانطلاق ، كى تحسم أمراً أريدت له ، وتبتّ فى مصير حشدت له قواها ، وعانت فى السبق إليه ما عانت من نزع وجذب ، ومن تجمع وتقبض وتوثب ، شأن النازع المغرق ، والسابح فى غير مجال .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ /٤٢٠ .

والقرآن فى سورة « العاديات » قد لفت إلى انطلاق الخيل فى غارتها المصبحة المفاجئة ، وهو هنا يعرض المشهد من جانب حركة العدو ، وما فيها من معاناة وتجمع وانطلاق . والوقع المادى لحركة العدو ، يوحى بما تهدر به صدور الخيل وهى تتجمع للمعركة ، وما تضطرب به أعماقها وهى تتقبض وتتوثب ، مفلتة من العقال ، سابحة فى الهواء ، سابقة إلى حيث أريد لها . فإذا ما بلغت من ذلك كله ، تدبير الأمر المراد ، جاءت صورة أخرى غيبية ، تصور حركة القيامة بما فيها من رجف ووجف ، وما يصحبها من هزة عنيفة تغير الثابت من نظام الكون ، وتدبر أمراً كان حتماً مقضياً .

* * *

« يَوْمَ تَرْجُفُ الراجِفَةُ » .

الرجف : الاضطراب الشديد . ويستعمل لغةً فى الراجف : الحمى ذات الرعدة . والرجفة الزلزلة . ومنه أرجفت الأرض : زلزلت . ويستعار للفتنة ونحوها فيقال أرجف القوم إذا خاضوا فى أخبار الفتن أو الإفك . ويقال كذلك أرجفوا إذا تهيئوا للحرب .

وهذا التهيؤ للحرب ، قريب من النزع المغرق حين تتهيأ الخيل للمعركة .

وفى القرآن جاء الإرجاف مرة فى الفتنة ، يراد بها هز القيم وزلزلة الأمن ، فى آية الأحزاب ٦٠ :

«لَئِنْ لم يَنْتَهِ المنافقون والذين فى قلوبِهم مرضٌ والمرجفون فى المدينةِ لنُغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يُجاوِرونك فيها إلا قليلا » .

وجاءت « الرجفة » أربع مرات ، كلها فى موقف الفزع الشديد والاضطراب المزازل ، وعُبّر عنها جميعاً بِ« أخذتهم الرجفة » فى آيتى الأعراف : ٧٨ ، ٩١ ومعهما آيتا العنكبوت ٣٧ والأعراف ١٥٥ .

أما الفعل فجاء مرتين ، كلتاهما فى المضارع : آية النازعات ، وآية

المزمل ١٤ : « يوم ترجف الأَرضُ والجبالُ وكانت الجبالُ كثيباً مَّهِيلا » .

وبها استأنس الزمخشرى فى تفسير الراجفة ، بالأرض ترجف يوم القيامة . لكنه لم يقف ، وهو البلاغى المفسر ، عند إسناد الرجف إلى الأرض نفسها ، مع وضوح الظاهرة الأسلوبية فى الآيات بعدها : الرادفة والساهرة ، والحافرة ، وخاسرة .

والأصل فيه أن الأرض مرجوفة لا راجفة ، وأن التابعة مُردَفة لا رادفة ، وأن حفرة القبر محفورة لا حافرة ، وأن الكرّة خسر أصحابها ، وكذلك الساهرة . وعدول القرآن عن هذا الأصل ، إلى الإسناد المجازى فيها جميعاً ، ظاهرة أسلوبية لافتة ، لا يهون إغفالها .

وفى سورة الزلزلة ، أشرنا إلى غلبة استعمال الفعل مبنيًّا للمجهول ، أو مطاوعاً ، فى الحديث عن يوم القيامة . وذكرنا أن فى هذا تركيزاً للانتباه فى الحدث نفسه ، ودلالة على الطواعية التلقائية التى يستغنى بها عن فاعل .

والذى قلناه فى إخراج الأرض أثقالها وتحدثها بأخبارها ، يقال مثله هنا فى الأرض راجفة وهى مرجوفة ، والرادفة التابعة وهى مردوفة ، وكذلك الشأن وهنا تلقائية تغنى عن ذكر المُحدِث . بما أودع جلّ شأنه الأرضَ من قوة
وهنا تلقائية تغنى عن ذكر المُحدِث ، بما أودع جلّ شأنه الأرضَ من قوة
التسخير لما يريد لها . وهنا أيضًا مباغتة ، لا يدرى معها الإنسان يوم القيامة من أين جاء الرجف ، وتركيز للانتباه فى أخذة الرجفة .

وكما تنزع الخيل نحو غاياتها التى سُخرت لها ، بحركة تلقائية ذاتية ، وتنشط وتسبح بقوى مودَعة فيها ، فكذلك الأرض يومَ القيامة ، ترجُف بحركة تلقائية ذاتية ، صائرة إلى ما سُخرَت له ، فهى مرجوفة راجفة .

* * *

« تَتْبَعُها الرادِفَةُ » .

والردف فى العربية : الإتباع ، والراكب يحمل غيره على رِدْف الفرس وراءه فيقال : ردَفه . ثم أُطلِقَ على الإتباع بعامة ، وإن لم يكن على رِدْف فرس .

وفى القرآن ، جاءت المادة فى ثلاث آيات :

النمل ٧٢ : «ويقولون متى هذا الوَعْدُ إِنْ كنتمْ صادقين * قُلْ عسى أَن يكونَ رَدِفَ لكم بعضُ الذى تَستعجِلون » .

الأنفال ٩ : «إِذ تَستغيثون ربَّكم فاستجابَ لكم أَنى مُمِدُّكم بأَلْفٍ من الملائكة مردِفين » .

والردف هنا فى موضعه .

وآية النازعات والرادفة فيها تابعة ، والأصل أن يكون التابع مردَفاً لا رادفاً . والعدول عنه كما فى * ترجف الراجفة * بيان للطواعية والتسخير ، والتلقائية التى يقع فيها الحدَثُ على المحدَث ، فكأنه هو !

وللمفسرين فى تأويل الراجفة والرادفة أقوال : فى (الكشاف ، والبحر) أنهما النفختان تتبع الثانية الأولى وتلحق بها .

وقيل : الراجفة هى الأرض ، والرادفة السماء إذ تنشق وتنتثر كواكبها .

والأوْلى عندنا أن تكون الرادفة هى ما يتبع الرجفةَ من بعثرة ما فى القبور ، لتتصل الآية بما بعدها :

* * *

«قلوبٌ يومئذٍ واجِفَةٌ * أَبصارُها خاشِعَةٌ » .

الوجف والوجيف لغةً : الاضطراب . وربما كان الأصل فيه ضرباً من سير الخيل والإبل فيه سرعةٌ مضطربة ، وقد التفت «الراغب» إلى هذا الاستعمال اللغوى الأصيل ، فى تفسير «واجفة» ، وتقوى به دلالة الوَجْفِ هنا على الاضطراب الناشئ من عنف خفقان القلوب واضطراب وجيبها فى رجَّة القيامة .

والخشوع يكون عن ضراعة أو عن رهبة وإجلال ، وهو فى الصوت والبصر : السكونُ والغض ، وفى الكوكب : دنوُّه من الغروب ، والخُشعة ، بالضم : الأكمة اللاطئةُ بالأرض . وتَخَشَّع : تضرع .

وكل خشوع فى القرآن الكريم ، إنما يكون لله سبحانه من مخلوقاته .

وحين يكون الخشوع من المؤمنين ، فهو فى الحياة الدنيا ، عن صدق إيمان بالله واليوم الآخر :

(البقرة ٤٥ ، آل عمران ١٩٩ ، الأنبياء ٩٠ ، الإسراء ١٠٩ ، المؤمنون ٢ ، الأحزاب ٢٥ ، الحديد ١٦) .

وأُسنِدَ الخشوعُ لله ، إلى الأصوات (١٠٨ طه) والأرض (٣٩ فصلت) على سبيل المجاز ، عن فرط الرهبة والإجلال . ومن ذلك أيضًا آية الحشر ٢١

« لو أَنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأَيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله » .

وجاء فى موقف الذلة والهوان والخوف ، مسنداً إلى الأبصار ٤ مرات ، وإلى الوجوه مرة واحدة ، يومَ الهول الأكبر ، فى آيات :

المعارج ٤٤ : « يومَ يَخرجون من الأَجداثِ سِراعاً كأَنهم إلى نُصُبٍ يوفِضون * خاشعةً أَبصارُهم تَرهقُهم ذِلَّةٌ » .

القلم ٤٣ : « يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعةً أَبصارهم ترهقُهم ذِلَّةٌ وقد كانوا يُدْعَون إلى السجودِ وهم سالمون » .

الغاشية ٢ : « هل أَتاكَ حديثُ الغاشيةِ * وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ » .

القمر ٧ : « فَتَولَّ عنهم يومَ يَدْعُ الداعِ إلى شيءٍ نُكُر * خُشَّعاً أَبصارُهم يَخرجون من الأَجداثِ كأَنهم جرادٌ منتشر » .

وآية النازعات : « قلوب يومئذٍ واجفة * أَبصارُها خاشعة » .

والآيات الخمس مكية ، وكلها فى موقف القيامة ، وأربع منها صريحة الاختصاص بالكافرين ، والخامسة — وهى آية القمر — يرجح السياق أنها كذلك. من ثَم نطمئن إلى أن خشوع الأبصار فى آية النازعات ، هو غض البصر عن ذلة وانكسار ، وشعور بهول الموقف الرهيب الذى يستيقن فيه الكفار من فداحة الذنب وصدق النذير وسوء المصير :

* * *

«يقولون أَئنا لَمَردودون فى الحافرة * أَئذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَة * قالوا تلك إِذًا كَرَّة خاسِرة ».

الرد : الرجعُ والعَوْد ، والارتداد : الرجوع فى الطريق الذى جىء منه . والردةُ تختص بالرجوع إلى الكفر ، أما الارتداد ففى الكُفر وغيره . والاسترداد : الاسترجاع (الراغب) .

ويتعين معنى الرجوع والعود فى الاستعمال القرآنى حين يكون الردّ إلى الله ، فى مثل آيات :

الكهف ٣٦ ، ٨٧ ، الأنعام ٦٢ ، يونس ٣٠ ، النساء ٥٩ ، التوبة ٩٤ ، الجمعة ٨ .

ويتعين معنى الردة ، حين يكون الارتداد رجوعًا عن الدين فى مثل آيات :

البقرة ١٠٩ ، ٢١٧ ، آل عمران ١٠٠ ، محمد ٢٥ ، المائدة ٥٤ .

ويتعين معنى الإرجاع فى مثل آيات :

إبراهيم ٩ ، النساء ٨٣ ، القصص ١٣ ، يوسف ٦٥ ، البقرة ٢٢٨ .

وقريب منه استعمال الرد فى رجع التحية « النساء ٨٦ » وهو شبيه باستعمالنا الرد فى الجواب .

وقوله تعالى : « فلا رادّ لفضله » يونس ١٠٧ « عذاب غير مردود » هود ٧٦ « ولا يُردُّ بأسه » الأنعام ١٤٧ « ولا يرد بأسنا » يوسف ١١٠ ؛ ملحوظ فيه مع الإرجاع معنى الصَّرْفِ ، فلا صارف لفضل الله ، ولا مرجع عن عذابه وبأسه .

ويتعين معنى الرجوع فى الطريق الذى جىء منه ، ماديًّا ، أو معنويًّا ، حين يصرّح بالردّ على الأعقاب ، أو الأدبار ، وذلك فى مثل آيات :
آل عمران ١٤٩ ، الأنعام ٧١ ، الأعراف ٥٣ ،

أو على الآثار كآية الكهف ٦٥ .

أو مع لفظ «كلما » فى مثل آية النساء ٩١ :

« كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُركِسُوا فيها » .

وكذلك مع كرَّة ، فى آية النازعات ، وآية الإسراء ٦ :

« ثم رددنا لكم الكرةَ عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم أكثرَ نفيراً » .

وكل هذه المعانى متقاربة ، وبها يفسر « مردودون » بمعنى الإرجاع والعودة إلى حيث كانوا « فى الحافرة » .

والحفرة فى اللغة معروفة ، والحفْر : إخراج التراب من الحفرة ، والمحفرة : المسحاة أو ما يُحفَر به ، وسُمى حافر الفرس لحفره فى عدوه . وسموا القبر حفيراً ، والذى يحفر القبورَ حفَّاراً . **وأما الحافرة فأصل استعمالها أن العرب كانت لا تبيع الخيل** نسيئة بل تقول : النقدَ عند الحافرة . تعنى ألا يزول حافرُ الحصان عن مكانه حتى يُنقد ثمنُه . ثم نقل استعماله إلى كل حالة أُولى ، ومنه قيل للخِلقة الأولى حافرة (القاموس . البحر المحيط) وقالوا : رجع فلان فى حافرته . أى فى طريقه التى جاء فيها فحفرها وأثر فيها بمشيه . جعلوا أثر قدميه حَفْراً .

وقد جاءت المادة فى القرآن مرتينْ :

آل عمران ١٠٣ : « وكنتم على شفا حفرة من النار » .

والنازعات : « أئنا لمردودون فى الحافرة » .

وبكلا المعنيين : حُفرة القبر ، والحالة الأولى ، فُسِّرت آية النازعات ، واقتصر « الزمخشرى » على المعنى الثانى .

وفى (الطبرى ، والبحر) عن ابن عباس : الحافرة الحياة الثانية .

وقيل : الحافرة النار * ذكره أبو حيان .

وهو ما لا يستطاع حمل اللفظ عليه ، فيما نرى ، إلا على بُعد وتكلف .

وقيل : الحافرة جمعُ حافر بمعنى القدم ، أى مردودون أحياء نمشى على أقدامنا ، ونطأ بها الأرض . وليس من المألوف استعمال الحافر للإنسان إلا أن يستعار .

والأوْلى أن يستبقى اللفظ دلالته اللغوية على حُفرة القبر وعلى الحالة الأولى . **فيكون السؤال حين ترجف الراجفة : أئنا لمردودون فى حفرة القبر أحياء ، عائدون إلى حالتنا الأولى ؟**

* * *

« أئِذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَة » .

وقرئ ناخرة [1] ، وكلاهما من النخر بمعنى البلى ، لكن نَخِرة أبلغ من ناخرة . ولعل أصل استعماله اللغوى فى النخير : الصوت ينبعث من شىء أجوف ، والمنخر الأنف ، والناخرة من العظام : المجوفة فيها ثقب . وربما لحظ فى الشىء الأجوف أو المثقوب ، الهشاشةُ وسرعةُ التفتت ، فأُطلِق النخرُ والناخر على البالى المتفتتِ ، والنخرة من العظام : البالية .

ولم يأت من المادة فى القرآن ، غير « نخرة » فى آية النازعات .

فسرها الراغب بأنها من قولهم : نخِرت الشجرةُ أى بليت .
والأقرب عندنا أن يفسر بالاستعمال اللغوى ، فى التفتت والبلى .

والسؤال فى : أئنا لمردودون فى الحافرة * أئذا كنا عظاماً نخرة * [2] يحتمل عند بعض المفسرين أن يكون على وجه التمنى ، إذ يقولون فى موقف الهول : ليتنا نرد فى الحافرة ونكون عظامًا نخرة . ولكن يُبعِدُ هذا الاحتمالَ قولُهم بعد ذلك : تلك إذن كرة خاسرة . إذ لو كان الاستفهام على وجه التمنى ، لكانت الكرة فى حسابهم رابحة ، كالذى فى آيتى :

الشعراء ١٠٢ : « فلو أن لنا كرةً فنكونَ من المؤمنين » .

والزمر ٥٨ : « أو تقولَ حين تَرى العذابَ لو أن لى كَرَّةً فأَكونَ من المحسنين » .

فهل الاستفهام هنا على وجه الاستبعاد والاستهزاء كما ذكر « الزمخشرى وأبو حيان » ؟

الاستهزاء قريب والاستبعاد متبادر فى سؤال الكفار للرسل ، بآيات :

الإسراءُ ٤٩ : « وقالوا أَئِذَا كنا عِظاماً ورُفَاتاً أَئنَّا لَمَبعوثون خَلْقًا

---

(١) هى قراءة أبى بكر وحمزة والكسائى . وقرأها الباقون بغير ألف (تيسير الدانى : ٢١٩) .

(٢) انظر فى (تيسير الدانى : ١٣١) اختلاف القراء الأئمة ، فى الاستفهامين إذا اجتمعا : « أئنا » وذلك فى أحد عشر موضعا من القرآن الكريم .

جديدًا * قل كونوا حجارةً أَو حديدًا * أَو خَلْقاً مما يَكبُرُ فى صُدورِكُم ، فسيقولون مَنْ يُعيدنا قل الذى فَطَركم أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

الإسراء ٩٨ : « ذلك جزاؤهم بأَنهم كفروا بآياتِنا وقالوا أَئذا كنا عظاماً ورُفاتا أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديدًا » .

المؤمنون ٨٢ : « بل قالوا مثل ما قال الأَولون * قالوا أئذا مِتنا وكنا تراباً وعظاماً أَئنا لمبعوثون * لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أَساطير الأَولين » .

الواقعة ٤٧ : « وكانوا يُصِرُّون على الحِنْثِ العظيم * وكانوا يقولون أَئِذَا متنا وكنا تُراباً وعظاماً أَئِنا لمبعوثون * أَوَ آباؤنا الأَولون » ؟

والآيات كلها مكية والسياق فيها متشابه : فهى من جدال الممارين فى البعث ، والسؤال بها « أئذا كنا عظاماً » ؟ مما قالوه فى الدنيا لرسل الله إليهم ، على وجه الاستبعاد والتكذيب والإنكار .

وليس الأمر كذلك مع آية النازعات حيث السؤالُ يوم ترجف الراجفة ، لا فى الحياة الدنيا . وهو يأتى مع الفعل المضارع « يقولون » التى انفردت بها آية النازعات ، دون الآيات السابقة التى صُدِّر السؤال فيها بالفعل ماضيًا « قالوا » والمضارعة تعنى الإحضار ، وبهذا الإحضار يتجه مقولُ القول إلى موقف القيامة ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة . . . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظامًا نخرة ؟

ومقتضى هذا عندنا ، أن يُحمَلَ الاستفهامُ هنا ، لا على وجه التمنى الذى تصرف عنه الآيةُ التالية ، ولا على وجه الاستهزاء الذى لا يمكن تصورُه فى مثل ذاك الموقف ، ولا على وجه الإنكار الذى لا محل له مع الإحضار وتحقق البعث ،

وإنما على وجه الدهشة والاستغراب والخوف ، وحيرة المأخوذ برجفة القيامة بغتة !

* * *

« قالوا تِلْكَ إذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ » .

الكرّ : العطف على الشيء بالذات أو بالفعل ، ويقال للحبل المفتول : كَرّ ، فيُلحظ فيه معنى العَوْدِ بالفتل ، وسُمى الليلُ أو النهار كَرّةً ، لما فيهما من عود وتكرار .

وجاءت كرة فى القرآن ، مصدر المرة من : كَرّ ، أى انعطف وعاد ، فى خمسة مواضع ، أحدها فى العودة الغلبة والنصر بعد هزيمة :

وأربعة فى العودة إلى الحياة الدنيا :

الإسراء ٦ : « ثم ردَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم وأَمَدْدناكم بأَموالٍ وبنينَ وجعلناكم أكثرَ نفيرا » .

البقرة ١٦٧ : « إذ تبرأَ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعَوا ورأَوا العذابَ وتقطَّعتْ بهم الأَسبابُ * وقال الذين اتَّبَعُوا لو أَن لنا كَرَّة فنتبرأَ منهم كما تبرءُوا منا ، كذلك يُريهم اللهُ أَعمالَهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار » .

الشعراء ١٠٢ : « وما أَضَلَّنا إلا المجرمون * فما لنا مِنْ شافِعين * ولا صديقٍ حميم * فلو أَن لنا كَرَّةً فنكونَ من المؤمنين » ؟

الزمر ٥٨ : « أَو تقولَ حين ترى العذاب لو أَن لى كَرَّةً فأَكونَ من المحسنين » .

وآية النازعات : « تلك إذن كرة خاسرة » .

وجاءت كَرَّة مثناة فى آية المُلك ٤ :

« ثم ارْجِعِ البصَرَ كَرَّتين يَنْقَلِبْ إليكَ البصَرُ خاسئاً وهو حَسِير » .

وإذا فسرنا الردَّ فى الحافرة، بأنه البعث للقيامة ، فالكرّةُ فى آية النازعات بمقتضى اسم الإشارة ، هى تلك العودة والرجعة إلى الحياة بعد موت .

والخسارة نقيض الربح ، ويكثر استعمال الخسر فى النقص والهلاك والضياع . وكون الكرّةِ خاسرةً، مطرد مع النسق البيانى الذى أشرنا إليه فى الحافرة والراجفة والرادفة . وقد ذهب بعض المفسرين إلى تعيين الخاسرين هنا بأنهم صناديد قريش الذين كذبوا بالآخرة، و « قالوا تلك إذاً كرة خاسرة » على وجه الاستهزاء .

وقد مضى القول فى استبعاد الاستهزاء فى موقف القيامة ورجفة البعث. ويمنعه أيضاً أن الاستفهام فى الآيتين السابقتين جاء مع فعل المضارعة « يقولون » الذى يعنى الإحضار . أما الكرة الخاسرة فجاءت مع الفعل ماضياً « قالوا » وأتدبر هذا الانتقال من المضارعة إلى المضىّ ، فأراه يهدى إلى بيان وجه المقول وتحديد الجو الذى قيلت فيه كل منهما . والدلالة على الحالة النفسية للقائلين فى كل من الموقفين : بغتتهم رجفةُ القيامة ، بما تَبِعها من هزة ووجيف وخشوع ، فهم يقولون فى دهشة المأخوذ وحيرة من فوجئ بما لم يكن فى حسابه قط : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة ؟ ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى إجابتهم عما سألوا عنه . وقد قُضِىَ الأمر وصار كل هذا الذى كذبوا به واستبعدوه واقعاً مشهوداً . فلما عاينوا اليقين « قالوا تلك إذاً كرة خاسرة » فى حسرة وندم ويأس .

وفى كلمة « قالوا » من سر البيان ، أنها تأتى حيث يبدو فى ظاهر الأمر إمكان الاستغناء عنها بـ : يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة، أئذا كنا عظاماً نخرة؟ تلك إذن كرة خاسرة . ومجيئها هو الذى يوجه إلى انتقالهم من حال إلى حال .

فهم فى أخذة الرجفة يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة؟ والمضارعة هنا هى التى تلائم حيرة المأخوذ وعجب المستغرب . كما أن المضى فى « قالوا » بعد أن أتاهم اليقين ، هو الملائم لحالة اليأس من استرجاع ما فات أو استدراك ما مضى والتيقن من الخسران المحقق والمصير المحتوم . . .

هذا مما يوجه إليه « يقولون » فى صدر الآيتين الأوليين ، عند رجفة القيامة ثم المغايرة بـ «قالوا» حين تحقق الخسران وقضى الأمر فلاسبيل الى استرجاع ما فات

« فإنما هى زَجْرةٌ واحدة * فإذا هم بالساهِرَة » .

الزجرة الصيحة ، وأكثر ما تكون فى سوق الكلاب والبهم والدواب ، ويُلحظ فيها معنى الإذلال ، من قولهم : تركه بمزجَرِ الكلب . وناقة زجور : لا تدر لبنها حتى تُزجَر . كما استعملوا الزجرَ فى التأنيب أو الردْع ، ومنه فى القرآن الكريم آية القمر ٤ :

« ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزدَجَر * حِكمةٌ بالغةٌ فماتُغنِ النُّذُرُ » .

وجاءت « زجرة » مرتين :

آية الصافات١٩ : « فإنما هى زجرةٌ واحدةٌ فإذا هم ينظرون »

وآية النازعات .

والآيتان مكيتان ، ووحدة السياق فيهما تجعلنا نطمئن إلى أن الزجرة فيهما ليست مجرد صيحة ، وإنما هى صيحة فيها كلُّ ما يحتمل الزجرُ من قهر وردع وهوان ، مع ملحظ قريب من المعنى الحسى الأصيل للمادة ، من قولهم زجر الكلب إذا ساقه ! دون تحديد هذه الزجرة « بأنها النفخة الثانية يبعث بها الأموات » كتأويل الزمخشرى .

والمفاجأة فيها صريحة بإذا ، وهى تناسب الزجرة الواحدة . وبغتة القيامة ، وتتسق بيانياً مع حركة الخيل فى صدر السورة ، وعنف معاناتها لتنطلق ناشطة سابحة - إلى حسم معركة وتدبير أمر .

ولَشدَّ ما تكلف المفسرون فى تأويل الساهرة !

قيل : هى الأرض البيضاء المستوية ، سُميت بذلك لأن السراب يجرى فيها ، من قولهم : عين ساهرة ، أى جارية الماء ! قاله الزمخشرى . ومثله الشيخ محمد عبده.

وقيل : هى جهنم ، عن قتادة (الكشاف والبحر) .

وعن ابن عباس : هى أرض من فضّة ، يخلقها الله تعالى (جاء فى البحر)

وعن وهب بن منبه : جبل بالشام يمده الله يوم القيامة لحشر الناس !

وقيل : بل هى أرض مكة ، أو أرض قريبة من بيت المقدس .

وقيل : بل هي الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق [١] .

وهكذا يقول تعالى « الساهرة » فيجعلون منها أرضاً من فضة ، بيضاء مستوية يجري فيها السراب ، ويحددون مكانها فهي مكة ، أو الشام ، أو بيت المقدس ، أو هي الأرض السابعة يأتي بها الله !!

ولو قصد القرآن إلى شيء من هذا لصرح به . لكنه لم يقصد إلى تحديد موقع الأرض ولونها وشكلها ومادتها ، وإنما اكتفى « بالساهرة » وصفاً لساحة الحشر أو عرصات جهنم حيث لا نوم هنالك ولا رقاد ! وهو مأخوذ ببساطة عن قرب . من المدلول اللغوي للسهر : عدم النوم ليلا . وقالوا : ليل ساهر ، ذو سهر ، والقمر ساهر وساهور ، المذلك . والساهرية نوع من العطر ، سُميت بذلك لأنه يُسَهر في عملها وتجويدها .

ولم ترد مادة « س ه ر » في القرآن إلا في آية النازعات ، فهل في سياقها أو مادتها ، أو أصل استعمالها اللغوي ، ما يشير من قرب أو بعد ، على الحقيقة أو المجاز ، إلى فِضَّة وبياض ، وإلى شام وحجاز ، وإلى أرض سابعة وغير سابعة ، وإلى استواء وعدم استواء ؟

وأين في القرآن كله ، من غيب الآخرة ، ما يُحدد موضعَ مكانَ الحشرِ أو جهنم ، حتى يجوز القول بأن الساهرة أرض مكة أو بيت المقدس أو جبل بالشام ؟!

* * *

« هَلْ أَتاكَ حديثُ موسى * إذ ناداه ربُّه بالوادِ المقدَّسِ طُوًى * اذهبْ إلى فرعَونَ إنه طغىٰ * فقلْ هلْ لكَ إلى أَن تزَكَّى * وأَهدِيَك إلى ربِّك فتخْشَى * فأَراه الآيَةَ الكُبرىٰ * فكذَّب وَعصَىٰ * ثم أَدبَرَ يَسْعَىٰ * فحَشَرَ فنادَىٰ * فقال أنا ربُّكم الأَعلىٰ * فأَخذه اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولىٰ * إنَّ في ذلك لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ » .

---

(١) بتلخيص وتضمين ، من : تفسير الطبري ، والكشاف ، والبحر المحيط ، وتفسير الرازي .

هنا يلفت القرآن إلى مصير طاغية علا وتكبر وقال : أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . .

وذلك هو مصير الطغاة فى الآخرة . .

وإنه لكذلك مصيرهم فى الدنيا .

وبحسب القرآن أن يلفت إلى مصير طاغية ، ليكون عبرةً لمن يخشى .

ولم يعن القرآن هنا بشيء من تفصيل القصة : لم يَذْكر نشأةَ موسى ، وصلته الأولى بفرعون . ولم يحدد تاريخَ الحادثة ، بل لم يذكر كذلك نوع الآية الكبرى التى أراها موسى فرعون ، ولا نوع النكال الذى أخذه الله به فى الآخرة والأولى . وإنما الذى عناه أن يعرض من القصة موضعَ العبرة دون تعلق بتفصيلِ لجزئيات مما ليس من جوهر الموقف .

وقد بدأ هنا بالسؤال اللافت المثير :

« هل أَتاكَ حديثُ موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طُوًى » .

فطَوَى كلٌّ ما كان من قصةِ موسى قبل هذا الحديث إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى .

والوادى المقدس ، هو المكان المطهر الذى تجلى فيه سبحانه لموسى وكلمه ، وألقى إليه رسالته . وفى قصة موسى من سورة طه :

« وهل أَتاكَ حديثُ موسى * إذ رأَى نارًا فقال لأَهلِه امكثوا إنى آنسْتُ نارًا لعلى آتيكم منها بِقَبَسٍ أَو أَجِدُ على النار هدى * فَلمَّا أَتاها نودىَ يا موسى * إنى أَنا ربُّكَ فاخلعْ نَعْليك إنك بالواد المقدسِ طُوًى » ٩– ١٢

وقد جهد المفسرون فى تأويل طُوى وإعرابها ، كما اختلف القراء فى قراءتها [1] .

قرئت : طُوًى ، بالضم والقصر والتنوين ، وقيل هى علم على الوادى المقدس ، فتعرب بدلاً أو عطف بيان .

---

(١) انظر أبا عمرو الدانى فى (التيسير : ١٥٠) .

وقرئت : طُوَى بالضم والقصر مع عدم التنوين . فتكون معدولاً بها عن « طاو » ويُمنع الصرفُ على اعتبار البقعة ، أى المكان .

وفى قراءة : « طِوًى » بالكسر والقصر والتنوين . مصدراً بوزن الثِّنَى وبمعناه. لأن الثِّنَى بالكسر والقصر : الشيء الذى تكرره . فكذلك الطوى للوادى ثُنيت فيه البركة والتقديس مرتين .

وقال قطرب : طُوى من الليل ، أى ساعة . والمعنى قُدِّس لك الوادى فى ساعة من الليل ، لأن موسى نودىَ بالليل فلحق الوادى تقديس مجدد (البحر) .

وقريبٌ أن يكون « طوى » اسمًا للوادى المقدس . وقد ذكره (الراغب) فى المفردات

وأقرب منه ، والله أعلم ، أن تكون حالاً للوادى المقدس ، حيث طُويت الأبعاد ما بين أرض وسماء ...

* * *

« اذهبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّه طَغَى » .

الطغيان : تجاوز الحد ، ويستعمل لغة فى الماء يتجاوز الحد إلى الخطر . ومنه فى القرآن :

آية الحاقة ١١ : « إنا لما طغى الماءُ حملناكم فى الجارية » .

وفسروا الطاغية كذلك بالطوفان فى قوله تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » .

على أن أكثر استعماله القرآنى ، فى تجاوز الحد فى العصيان والكفر ، وهو المعنى القريب فى آيات :

البقرة ١٥ ، الأنعام ١١٠ ، الأعراف ١٨٦ يونس ١١ ، المؤمنون ٧١ ، الإسراء ٦٠ ، المائدة ٦٤ ، ٦٨ ، ص ٥٥ ، عم ٢٢ .

كما جاء بمعنى تجاوز الحد ، فى التجبر والعتو والظلم ، فى آيات :

العلق ٦ ، الفجر ١١ ، الإسراء ٦٠ ، الكهف ٨٠ .

وأسند الطغيان إلى فرعون موسى ، فى آيتى طه خطاباً لموسى :

« اذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى » ٢٤ .

« اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنِيا فى ذكرى * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ٤٣ .

وفى آية النازعات :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكَّى » .

والاستفهام هنا للعرض مع تلطف . وهذا التلطف فى عرض الرسالة ، صريح فى آية طه : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » وفيه كذلك رجاء صريح . بشاهد من : « لعله » .

والزكاة ، النمو عن خير و بركة . وتزكية النفس : أن تتطهر وتنمو فضائلها ، وقد أمر الله تعالى موسى أن يذهب إلى فرعون فيقول له :

« هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * » .

والهداية : الإرشاد إلى الطريق لمستقيم ، ولعل أصل استعماله فى الهدى : الصخرة الناتئة فى الماء يؤمن بها العثار . والهدى : وجه النهار يتضح فيه الطريق .

واللافت هنا إضافة ربّ إلى كاف الخطاب ، مع أن فرعون لم يكن يؤمن برب موسى ، وهذه الإضافة مقصود بها التقريرُ والإلزام ، والتمهيد لقوله : « فتخشى » ، إذ الخشية من فرعون لن تكون إلا عن إيمان بربه .

« فأراه الآية الكُبرَى » .

الآية : العلامة ، ويكثر استعمالها — دينيًّا — فى الدلالة على وجود الله وعظمته ووحدانيته وقدرته وفى المعجزات التى يؤيد بها من يصطفيهم لرسالاته . وهى فى « النازعات » العلامة الدالة على أن موسى مبعوث برسالة من الله جل جلاله ، أو بعبارة المفسرين : « المعجزة الدالة على صدقه » .

ووصفت الآية بالكبرى تعظيماً وتقريراً لقوة دلالتها وبلوغها فى تأييد رسالة موسى غاية المدى . وإذا كانت هناك ضرورة لتحديد هذه الآية الكبرى ، فلنا أن نستأنس بحديث موسى فى سورة طه : « إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » .

وقال تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصاى أتوكأُ عليها

وأَهُشُّ بها على غنمى ولى فيها مآربُ أُخرى * قال أَلْقِها يا موسى * فألقاها فإذا هى حَيَّةٌ تَسعى * قال خُذْها ولا تَخَفْ سنُعيدُها سِيرتَها الأُولى * واضمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ آيةً أُخرى * لِنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى * اذهبْ إلى فرعون إنه طغى » ١٧ – ٢٤ .

وقد حاول مفسرون تأويل درجة كلٍّ آية من هذه الآيات . وقيل فيما قيل : إن اليد أعظم فى الإعجاز من العصا لأنه عقَّب على ذكر اليد بقوله : لنريك من آياتنا الكبرى . وقيل : بل العصا أعظم ، لأنه ليس فى اليد إلا تغيير اللون ، وأما العصا ففيها تغيير اللون ، وخلق الحياة والقدرة فى الجماد ، (البحر المحيط)

وإذ جاءت « الآية الكبرى » فى النازعات مطلقة بغير تحديد ، فقد ترددوا ما بين العصا واليد ، ثم رأى بعضهم حسم الموقف باعتبارهما آية واحدة ، لأن العصا ملازمة لليد ، فقال الزمخشرى : « الآية الكبرى قلبُ العصا حيةً ، لأنها كانت المقدمة والأصل ، والأخرى – يعنى اليد – كالتبع لها لأن موسى كان يتقيها بيده ، أو أرادهما تعالى جميعاً ، وجعلهما واحدة ، لأن الثانية أى اليد كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها » (الكشاف) .

وقال أبو حيان : « الآية الكبرى هى العصا واليد معًا ، جعلهما آية واحدة ، لأن اليد كأنها من جملة العصا لكونها تابعة لها » (البحر المحيط) .

والأَوْلى ألا نحدد الآية هنا ، ما دام القرآن نفسه لم ير تعيينها فى هذا الموضع ، مكتفياً بوصفها بالكبرى ، وهى صيغة تشهد بمبلغ دلالة الآية على صدق موسى ، وعلى قدرة ربه ، رب فرعون والخلق جميعًا .

* * *

« فكَذَّبَ وعَصَى * ثم أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فقال أنا ربُّكُم الأَعْلَى » .

هنا ينتقل الطاغى من التكذيب ، إلى العصيان ، إلى ادعاء الربوبية وهو أتعس الطغيان والكفر .

والآيات المحكمة تعرض مراحل هذا الانتقال، في خطوات متتابعة، تسلم كل منها إلى أخرى أفدح وأشد نكراً: بدأ فكذّب بعد إذ أراه موسى الآية الكبرى. وعصى الرسول، ثم ولّى مدبراً يسعى في تأكيد سلطانه وحمايته من خطر داهم يهدده، وكان سعيه هذا نتيجة لما ملأ نفسه من قلق، لو شاعت مقالة موسى في الناس، وأراهم ما أراه من الآية الكبرى، فأبطلت ما يدعيه فرعون لنفسه من ربوبية.

والإدبار هنا هو الإعراض عن موسى وما أراه من الآية الكبرى.

والسعي لا يكون في هذا الجو النفسي — المروَّع بما سمع من النبي المرسل ورأى من آيته الكبرى — إلا لمواجهة الخطر والحيلولة دون تصديق الناس برسالة موسى. وهذا هو ما تُفهمه الآيات البينات من قرب، دون حاجة إلى تكلف في تأويل الإدبار هنا بأنه فرار فرعون مرعوباً من الحية، وأن السعي هو الإسراع في المشية عن ذعر وطيش «وقد كان فرعون رجلا طياشاً خفيفاً» على ما ذكر مفسرون[١]، ولا ندري من أين جاءهم علم بذلك.

وإنما نستبعد هذا التأويل، لأن الذعر من رؤية الثعبان منقلباً عن عصا، يبدو لنا مستبعداً في بيئة كانت تمارس السحر وتأليف أفاعيل السحرة، فليست رؤية عصا تنقلب حية تسعى، بحيث تثير رعب فرعون وتدفعه إلى الفرار مذعوراً. والقرآن نفسه يحدثنا في (سورة طه ٥٧و٧١) عن موقف فرعون حين حشر السحرة من قومه، فألقوا حبالهم وعِصِيَّهُم، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي «تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى» ويمضي القرآن فيصور لنا وقع هذه الآية على السحرة وعلى فرعون: أما هم فسجدوا خاشعين أمام المعجزة وقالوا: «آمنا برب هرون وموسى» وأما فرعون فثبت على كفره وطغيانه، وأنكر تسليم السحرة وتوعد وأنذر. قال:

«آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيرُكم الذى علَّمكم السحرَ، فلأُقطعنَّ أيديكم وأرجُلكم من خلافٍ ولاصلبنكم في جذوعِ النخل ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذابا وأبقى».

---

(١) الزمخشري: الكشاف ٤/١٨١.

فكيف يقال ، وهذا موقفه عندما غُلب سحرتُه وخرّوا سُجّداً : إنه أدبر مذعوراً عندما انقلبت عصا موسى حية ، وفر بنفسه هارباً ؟

ما نطمئن إليه ، هو أن مسعاه كان لتدبير الأمر ودفع الخطر الذى يهدده :

« فَحَشَرَ فنادَى * فقال أَنا ربُّكم الأَعْلَى » .

لم يصرح القرآن بمفعول حشر ، ولكن لفظ الحشر بما له من دلالة صريحة على الجمع المزدحم ، يغنى عن ذكر المحذوف . وقلما يستعمل الحشر — لغةً — إلا فى موضع الحشد والشدة ، ومنه حشرُ الجماعة أى إخراجُها إلى الحرب ، والقرآن الكريم ، يستعمله غالباً فى اليوم الآخر ، وقد سمى « يوم الحشر » فى أكثر من ثلاثين موضعاً ، أما استعماله فى الحياة الدنيا فجاء منه فى القرآن :

وآية النمل ١٧ : « وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه » .

وآية الحشر فى خروج الذين كفروا من أهل الكتاب ، من ديارهم فى خيبر شمالى الحجاز : « لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » .

وآية ص ١٩ : « والطير محشورة كلٌّ له أواب » لداود عليه السلام .

وخمس مرات مع فرعون موسى : طه ٥٩ .

الأعراف ١١١ ، الشعراء ٣٦ ، ٥٣ . والنازعات ٢٣ .

والنداء فى : فحشر فنادى ، مسند إلى ضمير فرعون ، لكن الزمخشرى ذكر فيه احتمالين :

أن يكون فرعون « قد أمر منادياً فنادى فى الناس بذلك » .

وهذا ما لا يعين عليه النص .

أو « أن يكون قد قام بنفسه خطيباً »

والإيجاز البليغ فى قوله : « أنا ربكم الأعلى » ينفى أن يكون الموقف موقف خطابة ، وإنما هى كلمات ثلاث لم تزد . ولهذا الإيجاز دلالته على الحالة النفسية للطاغية حين شعر بالخطر ، وهو متسق مع ما يسيطر على السورة

كلها من سرعة حاسمة ، على حين كان مقام التفصيل فى (سورة طه) حيث ورد « حديث موسى » فى نحو تسعين آية ، اتسعت لذكر الحوار بين فرعون وموسى ، ثم بينه وبين السحرة . وهو ما لم يتجه القصد إلى شيء منه فى (النازعات) — وموضوعها اليوم الآخر ، لا قصة موسى — اكتفاء بموضع العبرة فى بيان مصير الطغاة .

وفى لفظ « الأعلى » هنا ملحظ دقيق ، فليس القصد منه معنى المفاضلة ، وإنما هو الإطلاق غير المحدود بمفضول . ومثله : الأشقى ، والأتقى ، والأعلى فى سورة الليل ، على ما سوف نزيده بياناً فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[1] .

* * *

« فأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرةِ والأُولى » .

أصل النكل فى اللغة : قيدُ الدابة وحديدةُ اللجام . ونكَّلته : قيَّدته . لُحِظَ فيه عجزُ المنكول وهوانُه ، فاستعمل التنكيل فى مطلق الإذلال ، منتقلاً إليه من معناه الأول وهو القيد والغل .

وجاءت المادة فى القرآن فى خمسة مواضع :

المزمل ١٢ : « إن لدينا أنكالًا وجحيما » جمع نِكْل .

النساء ٨٤ : «عسى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بأْسَ الذين كفروا ، واللهُ أشدُّ بَأْساً وأشدُّ تنكيلا » .

وصيغة نكال ، فى الآيات الثلاث :

البقرة ٦٦ : «ولقد عَلِمتم الذين اعتَدَوْا منكم فى السَّبْتِ فقُلْنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين * فجعلناها نَكالًا لما بين يديها وما خَلفَها وموعظةً للمتقين » .

المائدة ٣٨ : « والسارقُ والسارقةُ فاقْطَعوا أَيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نَكَالًا من اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيم » .

---

(١) دار المعارف بالقاهرة : الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

وآية النازعات فى فرعون موسى .

وللمفسرين فى تأويل « نكال الآخرة والأولى » قولان [1] :

أحدهما ، أنه الإغراق فى الدنيا والإحراق فى الآخرة .

والثانى : أنه نكال كلمتيه الآخرة والأولى فقد قال مرة : أنا ربكم الأعلى . وقال أخرى : ما علمتُ لكم من إله غيرى (القصص ٣٨) .

وليس فى السياق هنا ما يشير إلى احتمال أن يُقصد بالأخرى والأولى فى النازعات كلمتان لفرعون ، وإنما نطمئن فيها إلى تفسير الآخرة والأولى ، بالحياتين الأخرى والدنيا .

وقُدمت الآخرة على الأولى ، لأن نكالها أفدح وأبقى .

* * *

« إنَّ فى ذلكَ لَعِبْرةً لِمَنْ يَخْشَى » .

العبرة : الاعتبار ، وربما كان استعماله اللغوى الأول فى تعبير الدراهم أى وزنها لمعرفة قيمتها ، أومن : عبرَ الوادى ، إذا قطعه من عبره إلى عبره . وقيل عَبَّرَ الكتابَ إذا تدبره ولم يرفع صوتَه بقراءته . وناقة عبر أسفار : مجربة لا يزال يُسافر عليها .

واستعمال العبرة فى الاعتبار ، ملحوظ فيه أن المرء يرى مثلا أمامه فيزنه ويخبره ويتدبره ويتعظ به . والمثل هنا فى « النازعات » هو فرعون الذى طغى ، وكذب وعصى « ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى »

وحسبه مثلاً لمن يتعظ ، وعبرةً لمن يخشى .

* * *

« أأنتم أَشَدُّ خَلْقاً أَم السماءُ بناها * رفَع سَمْكَها فسوَّاها * وأَغْطَش ليلَها وأَخرج ضُحاها * والأَرْضَ بعد ذلك دَحَاها * أَخرجَ منها ماءَها ومَرعاها * والجبالَ أَرساها * مَتَاعاً لكم ولِأَنْعامِكُم » .

---

(١) الطبرى ، البحر المحيط ، الكشاف ، التفسير الكبير للرازى ، وتفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .

ظاهر الخطاب أنه عام . والمقصود منكرو البعث . على ما قال « أبو حيان »
وإنما أنكروه استبعاداً لإمكان عودة الإنسان إلى الحياة الدنيا بعد أن يقبَر ويَبْلَى .
ولو تدبروا آيات الله فى الكون لوجدوا فيها ما ليس أسهل ولا أهون من إحياء
العظام وهى رميم . وقد ساق القرآن هذه الآيات بأسلوب الاستفهام ليرجعوا إلى
أنفسهم فيلتمسوا جوابَ ما سئلوا عنه : « أأنتم أشد خلقـًا أم السماء بناها * رفع
سَمْكَها فسوَّاها * وأغطش ليلَها وأخرج ضُحاها »

ولمن شاء منهم أن يتصور صعوبةَ بناء سماء كهذه ، وقد ألفوا فى المبنى أن يكون
بمنال اليد وأن يُشَدَّ بما يمسكه ويرفعه فلا ينقضّ ، وأين ذلك كله من تلك
السماء ، فى ارتفاعها الشاهق الذى لا مجال لبلوغه ، وفى قيامها على غير عمد
تُرى أو قوائم تحس !

والسَّمْكُ : القامةُ والعُلُوُّ . وتكلف مفسرون فحددوا مقدار ذلك السمك ،
فنى (الكشاف والبحر) : « جعل مقدارها فى العلوّ مديداً رفيعـًا ، مقدارَ خمسمائة
عام ! » وهذا ما لا يقبله النص من قريب ولا من بعيد ، كما أنه ليس من
مألوف البيان القرآنى فيما تناول من ظواهر الكون وآيات القدرة الإلهية فيها . وهو
يعتريها من تفاوت قياس السرعة بالزمن ، على اختلاف العصور ، فما كان
يُقاس أيام الزمخشرى بالأعوام ، فى عصر الناقة ، أصبح يقاس بالدقائق
والثوانى فى عصر غزو الفضاء !

وذهب الشيخ محمد عبده إلى أن رفع السمك هنا هو « رفع أجرام السماء
فوق رءوسنا » ولا يبدو قويـًّا .

أما التسوية — وهى فى اللغة استقامة واعتدال واتزان — فمن المفسرين من
تأولها هنا بالتتميم وبالإصلاح (الكشاف) وبجعلها ملساءَ ليس فيها تفاوت ،
وبإتقان الإنشاء وإحكام الصنعة (البحر المحيط ، ومفردات القرآن) .

وهى معان متقاربة ، يحتملها النص فى قرب وبلا تكلف ، وأما قول الشيخ
محمد عبده إن التسوية هى « وضع كل جرم فى موضعه » فلا يعطى من قرب ،
الدلالة القرآنية العامة للتسوية والسوى والسواء ، بمعنى الاستقامة والاعتدال ،
فيما يكون فى استوائه ملحظ دقة وإحكام .

وإغطاش الليل : إظلامه . وفى العربية : فَلاةٌ غطشاء وغَطْشى لا يُهتَدى بها ، والغطَش – محركة – الغمش ، وغطش فلان غطشًا وغطشانًا ، مشى رُوَيداً من مَرَض أو كِبَر ، والتغاطُش : التعامى عن الشىء .

ولم تأت المادة فى القرآن فى غير هذا الموضع .

والإخراج للضحى ، وهو انبساط ضوء الشمس ، فيه لفت إلى خروجه من الليل ، آية من آيات القدرة فى الضحى يخرج من الليل وينسلخ منه فإذا الضوء السافر يعقب الظلمة الغَطْشَى :

وإضافة الليل والضحى إلى السماء ، لأنها مجال الضوءِ والظلام تُسفِرُ منها الشمس فإذا الضحى متألق ، وتغيب فإذا الليل مُغْطِش .

* * *

ومن آيات قدرته تعالى :

« والأَرضَ بعد ذلك دحَاها * أَخرجَ منها ماءَها ومرْعَاها » .

فسر الراغب * دحاها * بأنه أزالها عن مقرها ، أخذه من قولهم : دحا المطرُ الحصَى من وجه الأرض أى جرَفه . ومَرَّ الفرسُ يدحو دَحْواً إذا جَرَّ يده على وجهِ الأرض فدَحَا تُرابَها(١) .

ولعل الأقرب أن يؤخذ من : دَحَيْتُ الشىء أدْحَاه دحيًا بسطتهُ ، والمدحاة كمِسحاة : خشبة تمر على الأرض لا تأتى على شىء إلا اجتحفته ، وتدحّى : تبسط . وقيل لمبيض النعام : الأُدْحِىّ والمدحَى ، لأنه يدحوه برجله ويبسطه ويُوسعه ثم يبيض فيه . وهو المختار عند الزمخشرى وأبى حيان .

وظاهرة البَسط فى هذه الأرض واضحة ، على المشهود المرئى ، آية من آيات قدرته تعالى فى الكون .

والمرعى ، مَفْعَل من الرعى : والصيغة تحتمل أن تكون للمصدر وللزمان والمكان ، لكن الأرجح أن المراد به هنا ما يُرعى ، وهو مفهوم المرعى كذلك فى سورة الأعلى ٤ :

---

(١) الجزء الرابع من الكشاف ، والثامن من البحر المحيط : سورة النازعات

« الذى خَلَقَ فَسَوَّى * والذى قَدَّرَ فَهَدَى * والذى أخرج المَرْعَى * فجعله غُثَاءً أَحْوَى » .

والأصل فى الرعى أن يكون للإبل والأنعام ، وقد جاء بهذا المعنى فى آية طه ٥٤ :

« كُلوا وارْعَوا أَنعامَكم » .

واستعارة الرعى للإنسان قريبة ومألوفة . ومنه الراعى والرعية .

وفى تقديم الماء على المرعى ، بآية النازعات ، يقول أبو حيان : إن الماء سبب المرعى .

* * *

« والجبالَ أرساها » .

الإرساء : التثبيت والترسيخ ، ومن استعماله فى الحسيات : الرسِيُّ — كغنى — وهو العمود الثابت وسط الخباء ، وقدرٌ راسية : لا تبرح مكانها لعظمها . وقالوا : ألقت السفينة مراسيها إذا استقرت ، وكذلك السحابة إذا استقرت جادت .

ومنه فى القرآن : « وقدور راسيات » سبأ ١٣ .

« باسم اللهِ مَجريها ومرساها » هود ٤١ .

على أن المادة يكثر مجيئها فى الجبال ، لوضوح الثبات والرسوخ فيها ، والقرآن يطلق أحيانًا « الرواسى » على الجبال ، فيشهد هذا بأن صفة الرسو تبدو أوضح ما تبدو فى الجبال :

الرعد ٣ : « وهو الذى مدَّ الأَرضَ وجعل فيها رواسىَ وأنهارًا » .

الحجر ١٩ : « والأَرضَ مددناها وأَلقينا فيها رواسى » .

ومثلها آيات : ق ٧ ، الأنبياء ٣١ ، والنمل ٦١ ، والمرسلات ٢٧ ، ولقمان ١٠ ، والنحل ١٥ .

فإرساء الجبال ، فيه هذه الدلالة الأصيلة الواضحة على الثبات والرسوخ (١) ،

---

(١) يطرد وصف الجبال فى القرآن الكريم ، بالثبات والرسوخ والشموخ ، فى الحياة الدنيا . فإذا مرت أو سارت أو نسفت ودكت فذلك من آيات البعث . انظر تعليقنا على ما كتبه المستشرق الروسى « كراتشكوفسكى » عن نظريات جغرافية فى القرآن . والتعليق ملحق بالمجلد الثانى من الترجمة العربية لكتابه (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) نشر جامعة الدول العربية .

وفيه كذلك لفت قوىّ إلى قدرة الله الذى أرساها ، كما أن ظاهرة الرفع لا تبدو مثلما تبدو فى السماء . وظاهرة الاستواء والبسط لا تبدو مثلما تبدو فى الأرض .

* * *

« مَتَاعاً لكم ولأَنعامِكم » .

هنا يلفت القرآن إلى ملحظ آخر فى بناء السماء ورفع سَمْكِها ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء الجبال : فهى إلى جانب كونها من آيات قدرته تعالى وقوته ، شاهدة على أن الذى بناها ورفعها ودحاها وأرساها لا يشق عليه خلقُ الإنسان وإحياؤه بعد أن يبلى جسده وترمّ عظامه ؟

نعمة من نعمه تعالى على مخلوقاته ، يذكّر بها الغافلين والجاحدين والمغرورين .

وسياق الآيات هنا ، فى الانتقال من الاستدلال بمثل هذا على قدرة الخالق ، إلى بيان فضله تعالى ونعمته ، شبيهُ بالذى فى سورة عبس :

« قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَه * من أىِّ شىءٍ خَلَقَه * من نطفة خلقه فقدَّرَه * ثم السبيلَ يَسَّره * ثم أماتَه فأَقبَرَه * ثم إذا شاءَ أَنْشَره * كلَّا لمَّا يَقْضِ ما أَمره * فلينْظرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا * ثم شقَقْنا الأَرض شقًّا * فأَنبتنا فيها حَبًّا * وعِنَباً وقَضْباً * وزيتوناً ونخلًا * وحدائقَ غُلْباً * وفاكهةً وأَبًّا * متاعاً لكم ولأَنعامكم » .

وكما أردفت هذه الآياتُ من سورة عبس ، بقوله تعالى :

« فإذا جاءَت الصاخَّةُ * يومَ يَفِرُّ المرءُ من أَخيه * وأُمِّه وأَبيه * وصاحبتِه وبنيه * لكل امرئٍ منهم يومَئذٍ شأْنٌ يُغنِيه * وجوهٌ يومئذٍ مُسْفِرةٌ * ضاحكةٌ مستبْشِرة ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ * ترهَقُها قَتَرَة * أُولئك هم الكفَرةُ الفَجَرةُ » .

كذلك يأتى بعد آيات النازعات النذيرُ المباغتُ ، بحساب وجزاء :

« فإذا جاءَت الطامَّةُ الكبرى * يومَ يتذكَّرُ الإنْسانُ ما سعى * وبُرِّزت

الجحيمُ لمن يَرى * فأَمَّا مَنْ طَغَى * وآثرَ الحياةَ الدُّنيا * فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأْوى * وأَمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّه ونَهَى النفسَ عن الهوى * فإن الجنَّةَ هى المأْوى » .

والطامة الكبرى هى القيامة عند « الراغب » . وهى النفخة الثانية فيما رُوى عن «ابن عباس» أو وقت سَوْقِ أهل الجنة إليها وأهل النار إليها ، عن مجاهد[1]

وجاء الزمخشرى فى الكشاف بهذه الأقوال الثلاثة متتالية ، وإن بدا منه أنه يختار تفسير الطامة الكبرى « بالقيامة » .

ولم تأت المادة فى غير هذا الموضع ، وأخذها « الراغب » من الطَّمِّ أى البحر[2] ، ويقال : طمَّ البحرُ على كذا ، أى طغى وفاض وغلب .

وربما كان من المناسب أن نذكر كذلك أن العربية استعملت الطامة فى الداهية تغلِبُ ما سواها. وقد استأنس الزمخشرى بهذا فى تفسيره الطامة الكبرى بالقيامة .

* * *

ونفهمها بالآية بعدها :

« يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما سَعَى » .

والتذكر هنا عن نسيان ، وقد نظَّر له الزمخشرى بقوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد » المجادلة ٦ .

وقالوا فى « ما سعى » : إن (ما) تحتمل أن تكون مصدرية أو موصولة ، وقد اختار أبو حيان الموصولة ، أى عمله الذى سعى إليه ، أما الزمخشرى ، فقال بهما معًا ، دون ترجيح .

والذى نراه أن المصدرية أعم وأوْلى بالمقام ، فيكون المعنى : يوم يتذكر الإنسان مسعاه . * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى *

* * *

(١) تفسير الطبرى ، والبحر المحيط .

(٢) المفردات : مادة طم .

« وبُرِّزت الجحيمُ لِمَنْ يَرَى » .

والقرآن يستعمل البروز ، وهو قوة الشخوص والظهور ، فى موقف القيامة والحساب . ومنه آيات :

الشعراء ٩١ : « وأُزلفت الجنةُ للمتقين * وبُرِّزت الجحيمُ للغاوين »

غافر ١٦ : « يومَ هم بارزون لا يخفَى على اللهِ منهم شيءٌ ، لمن المُلْكُ اليومَ ، للهِ الواحدِ القهار » .

إبراهيم ٢١ : « وبَرزوا لله جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعاً فهل أَنتمُ مُغنُونَ عنا من عذابِ الله مِن شيءٍ » ؟

إبراهيم ٤٨ : « يومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غيرَ الأَرضِ والسمٰواتُ ، وبَرزوا للهِ الواحدِ القهار » .

وتسمية جهنم بالجحيم فى المصطلح الدينى ، ملحوظ فيها الأصل اللغوى وهو شدة تأجج نارها . فالجحيم والجحمة فى اللغة : النارُ الشديدة التأجج ، وكل نار بعضها فوق بعض . وكل نار عظيمة فى مهواة . والجاحم : الجمر الشديد الاشتعال ، والجحام داء فى العين . ومن المجاز : التجحم التحرقُ حِرْصًا وبخلا أو غضباً .

وإسناد البروز إلى الجحيم ، بالبناء للمجهول ، تطرد به الظاهرة الأسلوبية فى صرف النظر عمداً عن الفاعل لأحداث القيامة ، تقريراً لفاعليتها التلقائية ، وتركيزاً للانتباه فيها .

* * *

« فأَمَّا من طَغَى * وآثَرَ الحياةَ الدنيا * فإنَّ الجحيمَ هى المأْوَى » .

الأثر ، لغة : بقيةُ الشيء ، ومنه الخبر المأثور الباقى ، والأثَرة المكرمة تبقى ، والبقية من العلم تؤثر . ولعل أصل استعماله فى الأثيرة الدابة العظيمة الأثر فى الأرض بحافرها . والأثْر سمة فى باطن خف البعير يُقتفى بها أثره ، أى ما يترك

من علامة باقية . وأثر فيه تأثيراً ، ترك فيه أثراً يبقى ، والآثار ما بقى من الماضين .

والإيثار : التفضيل ، وبهذا المعنى جاء فى آيات :

يوسف ٩١ : « قالوا تاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإنْ كنا لَخَاطِئين » .

الأعلى ١٦ : « بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا * والآخِرةُ خيرٌ وأَبقى » .

طه ٧٢ : « قالوا لن نُؤثِرَكَ على ما جاءَنا من البيناتِ والذى فطَرنا ، فاقْضِ ما أَنتَ قاضٍ إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا » .

وجاء نقيضاً للأثرة فى آية الحشر ٩ :

« ويؤثرون على أَنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ »

وهو تفضيل أيضاً لكن للغير على النفس ، كرماً وفضلا .

ويجىء الإيثار بمعنى الاختيار ، ملحوظـاً فيه أن المرء يختار ما يحسبه أفضل وأبقى . وبمعنى الأثرة ، ملحوظـاً فيها أن الأثِرَ يستبقى لنفسه الأشياء المختارة .

والمأوى : المكان يؤوَى إليه ويـُلاذ به ويُسكـَن فيه . ولم يستعمله القرآن إلا فى الحياة الآخرة : إما مع الجنة (السجدة ١٩ ، النجم ١٥ ، النازعات ٤١) .

وإما مع الجحيم أو النار أو جهنم وبئس المصير :

(آل عمران : ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٩٧ ، الأنفال ١٦ ، المائدة ٧٢ ، الحديد ١٥ ، العنكبوت ٢٥ ، الجاثية ٣٤ ، النساء ٩٧ ، ١٢١ ، يونس ٣٨ ، الإسراء ٩٧ ، السجدة ٢٠ ، التوبة ٧٣ ، ٩٥ ، التحريم ٩ ، الرعد ١٨ ، النور ٥٧ ، النازعات ٣٩) .

وهو صنيع يشهد بأن القرآن الكريم يقرر أن الدار الآخرة هى المأوى . ويلحظ فيه من قرب ، أنها المقر الدائم والمنزل الأخير ، وأنها نهاية المطاف وغاية المصير .

أما الفعل من « أوى » فيأتى فى القرآن أربع عشرة مرة ، لا يخطئ الحس فيها جميعـاً ، معنى المأمن والحمى والملاذ ، إما حقيقة فى مثل آيات :

الضحى ٦ : « أَلم يجدْك يتيماً فآوى » .

الأنفال ٧٢ ، ٧٤ : « والذين آوَوا ونصروا » .

الأنفال ٢٦ : « فآواكم وأيدكم بنصره » .

ومعها آيات : الكهف ١٠ ، ١٦ ، ٦٣ ويوسف ٦٩ ، ٩٩ والمؤمنون ٥٠ والأحزاب ٥١ .

وإما على سبيل الرجاء أو الوهم :

هود ٨٠ : « قال لو أنَّ لى بكم قوةً أَوْ آوِى إلى رُكْنٍ شديد » .

هود ٤٣ : « قالَ سَآوِى إلى جبلٍ يَعصِمُنى من الماءِ ، قال لا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللهِ إلا مَن رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

المعارج ١٣ : « يُبَصَّرُونهم ، يَوَدُّ المجرمُ لو يَفتدِى من عذاب يَوْمئذٍ ببَنيه * وصاحبتِه وأخيه * وفصيلتِه التى تؤْويه »

* * *

« وأمَّا مَنْ خافَ مَقامَ ربِّه ونهَى النفسَ عن الهوَى * فإن الجنةَ هى المأْوى » .

فى ذكر المقام هنا ، مقام ربه، إيحاء بأن الخائفَ يراقب ربَّه فى كل عمله ومسعاه ، عن يقين بأنه واقف بين يدى الله ، ماثل فى مقامه تعالى . وأيًّا ما حملنا المقام ، على المصدرية أو الزمان أو المكان ، ففيه إحضار وشهود ، ونظيره فى القرآن آيات :

إبراهيم ١٤ : « لمن خافَ مقامِى وخَافَ وَعِيدِ » .

الرحمن ٤٦ : « ولمن خافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتان » .

قال أبو حيان : « وفى إضافة المقام للرب تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعًا عظيما » .

والهوى الميل ، وربما كان أصل استعماله فى : هَوَتِ العُقَابُ إذا انقضت على فريستها . ومن هذا الاستعمال أخذ الميل ، والانجذاب إلى شىء مرغوب ، شرًّا كان أو خيراً ، محموداً أو غير محمود . على أن أكثر استعماله ، كما قال

أبو حيان ، فيما ليس بمحمود . ويجىء فى القرآن ، مفرداً وجمعًا ، فى سياق الغواية والضلال ، بصريح آيات :

النساء ١٣٥ : « فلا تتَّبِعوا الهوى » معها آية ص ٢٦

النجم ٣ : « وما يَنْطِقُ عن الهَوَى » .

الأعراف ١٧٦ : « واتبع هواه » . والكهف ٢٨ ، طه ١٦ ، القصص ٥٠ .

الفرقان ٤٣ : « أرَأَيْتَ مَنِ اتَّخذ إلٰهه هَواه » . والجاثية ٢٣ .

المائدة ٧٧ : « ولا تتبعوا أهواءَ قوم قد ضلوا من قبل »
ومعها الأنعام ١٥٠ ، والجاثية ١٨ .

البقرة ١٢٠ : « ولئن اتبعت أهواءَهم بعد الذى جاءَك من العلم ، مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير » .
ومعها البقرة ١٤٥ ، والشورى ١٥ ، والرعد ٣٧ .

المؤمنون ٧١ : « ولو اتبع الحق أهواءَهم لفسدت السموات والأَرض ومن فيهن »

الروم ٢٩ : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءَهم بغير علم »
ومعها : محمد ١٤ ، ١٦ ، والقمر ٣ .

الأنعام ١١٩ : « وإنَّ كثيرًا لَيضلُّون بأَهوائهم بغيرِ علم » .

وهذا التتبع ، يؤيد ما يطمئن به السياق فى آية النازعات : « ونهى النفس عن الهوى » أى عن الاستجابة إلى الشهوات الضالة والغواية المهلكة .

وفى « نهى » هنا ملحظ دقيق ، فكما استعملت العربية النهى ضد الأمر ، استعملت « النُّهى » كذلك فى العقل والرشد ، ومنه فى القرآن الكريم آيتا طه ٥٤ ، ١٢٨ ، « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

وهو ما يجعل للفعل « نهى » النفس عن الهوى ، إيحاء الاستجابة إلى صوت العقل فى زجر النفس عن شهواتها ، واعتقال هواها المضل . . .

* * *

« يَسْأَلونَك عن الساعةِ أَيَّانَ مُرسَاها » .

وإذ يبلغ القرآن بالوعيد غايته . وينتهى به إلى الأمر المقضى من ثواب أو عقاب ، لا يدع الموقف دون أن يعقِّب عليه بحسم عـُقدته ، والرد على سؤالهم عن الساعة : أيان مرساها !

ولفظ ساعة فى العربية ، يعنى الجزء من الوقت . ثم تحدد . بستين دقيقة .

ويستعمل معرفا بـِ(ال) للعهد، ظرفَ زمانٍ للوقت الحاضر ، فيقال : أزورك الساعة . **ثم غلب استعمال « الساعة » فى الآلة الضابطة للوقت ، بعد اختراعها .**

ثم غلب استعمال « الساعة » فى الآلة الضابطة للوقت ، بعد اختراعها .

لكن للقرآن استعمالَـه الخاص للساعة ، فهو لا يستعملها نكرةً ، إلا فى برهة من الوقت قصيرة دون تحديد لها بالدقائق :

الروم ٥٥ : « يُقْسِمُ المجرمون ما لبثوا غيرَ ساعةٍ » .

النحل ٦١ : « فإذا جاءَ أَجلُهم لا يستأْخرون ساعةً ولا يستقدمون »
ومعها الأعراف ٣٤ وسبأ ٣٠ ويونس ٤٩ .

يونس ٤٥ : « ويومَ يَحشرُهم كأَن لم يلبثوا إلا ساعةً من النهار » .

الأَحقاف ٣٥ : « كأَنهم يومَ يرون ما يُوعَدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار » .

أما حين يستعمل القرآن « الساعة » معرفة بـِ : ال ، فتلك — دائمًا — هى ساعة الآخرة ، لم يتخلف هذا فى أى موضع من المواضع الأربعين التى جاءت « الساعة » فيها فى القرآن الكريم ، بدلالتها الإسلامية فى المصطلح الدينى .

والملحظ البيانى فى هذا الاستعمال المطرد ، أن هذه « الساعة » تنفرد دون ساعات الزمان كله ، بأنها الحاسمة الفاصلة التى يتغير فيها نظام الزمن وسير الكون ، لما يحدث فيها من حدث هائل خطير . وهو معنى يقوى ويتضح ، بـِإسناد القيام ، والإتيان ، والمجىء ، إلى هذه الساعة المتميزة الحاسمة، دلالةً على بروزها وشخوصها وفاعليتها :

الأنعام ٣١ : «حتى إذا جاءَتْهم الساعةُ بغتة».

الأنعام ٤٠ : «أَو أَتتكم الساعةُ».

يوسف ١٠٧ : «أَو تأْتيهم الساعة بغتة».

ومعها الحج ٥٥ ، والزخرف ٦٦ ، محمد ١٨ .

الروم ١٢ ، ١٤ ، ٥٥ «ويوم تقومُ الساعةُ». ومعها طه ١٥ ، والجاثية ٢٧ .

سبأ ٣ : «وقال الذين كفروا لا تأْتينا الساعةُ : قل بَلَى وربِّى لتأْتينكم».

القمر ١ : «اقتربت الساعةُ وانشق القمر».

الكهف ٣٦ : «وما أَظن الساعةَ قائمةً». ومعها (فصلت ٥٠)

وفى السؤال «أيّان مرساها ؟» إنكار واستبعاد ، فما قصَد السائلون إلا أن يحرجوا الرسول عليه الصلاة والسلام بسؤالهم : أيان مرساها ؟ على الاستبعاد والجحد والإنكار .

* * *

«فيمَ أَنت من ذِكْراها * إلى ربِّكَ مُنْتَهاها».

وعن عمدٍ ، صرف القرآنُ عن السؤال عن مرسى الساعة ومستقَرِّها وأوانها ، لأن الله تعالى قد استأثر بعلمها ، فإليه وحده منتهاها ، على وجه القصْر الصريح بالتقديم والتأخير فى الآية : «إلى ربِّك منتهاها» لا إلى غيره : ونظيره ما فى آيات :

الأحزاب ٦٣ : «يسأَلك الناس عن الساعةِ قل إنما عِلْمُها عند اللهِ وما يدرِيكَ لعل الساعةَ تكونُ قريباً».

فصلت ٤٧ : «إليه يُرَدُّ عِلمُ الساعة».

لقمان ٣٤ : «إن اللهَ عندَهُ عِلْمُ الساعة» ومعها الزخرف ٨٥ .

عنده وحده علم الساعة ، وإليه وحده مردُّها ومنتهاها ، ففيم أنت من ذكراها يا محمد ، والله قد استأثر بعلمها ، لم يؤتِه أحداً من خلقه !

لكن من المفسرين من يذهبون إلى أن المقصود بالآية ، هو« أن لا فائدة لهم من العلم بوقتها » فيضيعون ما للموقف من رهبة وخطر ، ويخطئهم حِسُّ ما فى تجهيل الوقت من تهويل وإرهاب . فليس صحيحاً أن علم السائلين بوقت الساعة لا يفيدهم ، وكيف ، وهم لو علموه يقيناً لا ستعدوا له ؟ ! إنما صُرِفوا عمداً عن ذلك السؤال عن وقتها ، كما صُرف الرسولُ عليه الصلاة والسلام عن الاشتغال بهذا ، والله وحده قد استأثر بعلمها ، ليظل لها رهبة المجهول وعنف البغتة ، وهو واضح تماماً فى آيات الساعة تأيتهم بغتة ، فكأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار .

والفرق دقيق بعيد ، بين أن يُصرَفوا عن السؤال عن وقتها لأن الله قد استأثر بعلمها ، وبين ما يقوله الزمخشرى وأبو حيان وغيرهما من أنه « لا فائدة لهم من علمهم بوقتها »

* * *

« إنما أنت مُنْذِرُ مَنْ يَخشاها » .

فيه قصر لمهمة النبى عليه الصلاة والسلام ، فيما يتعلق بهذه الساعة : أن ينذر من يخشاها ، لا أن يذكر موعدها ومرساها . وفيه تخصيص للإنذار بمن يخشى الساعة ، لأنه — كما قال أبو حيان — الذى يُجدِى معه الإنذار .

والخشيةُ ليست مجرد خوف ، وإنما هى خوف مشوب برهبة المخشى وإعظامه ، وأكثر ما تجىء فى القرآن ، فى مقام خشية الله ، مسنَدة إلى المؤمنين ، أو الرسل ، أو العلماء ، أو مَن تُرجى لهم الهداية . ويبلغ القرآن بالخشية أقصى دلالتها على الرهبة والإجلال ، حين تكون من الحجارة أو الجبل :

البقرة ٧٤ : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » .

الحشر ٢١ : « لو أنزلناهذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .

* * *

« كأنهم يومَ يَروْنَها لم يلبثوا إلا عَشِيةً أو ضُحاها » .

هنا تبلغ المباغتة غاية العنف والنذير ، ولا نتعلق بما ذكره المفسرون فى مكان اللابثين وهل يكون فى القبور أو فى الحياة الدنيا : فالآية حين أطلقت اللُّبْثَ ، صرفتْه عمداً إلى كلِّ ما قبل رؤيتهم الساعة .

والأصل فى الرؤية أن تكون حسية ، وكونُ الساعة شيئًا يرونه رأى العين ، فيه مع التشخيص والتجسيم والبروز ، إلباسُ الظرف بالمظروف ، وإدماج الحدث « القيامة » بالوقت الذى يحدث فيه وهو « الساعة » : فهذه الساعة الحاسمة الفاصلة ، كأنها الحدث الهائل الضخم الخطير الذى يقع فيها . وهذا الملحظ من التجسيم ، وتقوية الصلة بين الوقت والحادث ، هو نفسه الذى لحظناه فى إسناد القيام والإتيان والمجىء إلى « الساعة » وربما تُنوسيت ظرفية الساعة فأخبر عنها بصيغة المذكر ، على اعتبار أنها الحدث نفسه « وما يدريك لعل الساعةَ قريبٌ » الشورى ١٧ ومعها آية الأحزاب ٦٣ .

وإن تكلف المفسرون له محذوفًا مقدراً هو « قريب وقتها » !

وبغتة المفاجأة ، هى المسيطرة على آية النازعات : « كأنهم يومَ يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » كما تسيطر على أكثر الآيات التى جاءت « الساعة » فيها ، فهى تأتيهم بغتة ، كأن لم يلبثوا إلا ساعة .

ولا حاجة بنا بعد هذا إلى الوقوف عندما قاله بعض المفسرين فى إضافة الضحى إلى العشية : « لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما فى نهار واحد: الزمخشرى » أو لكونهما طرفى النهار « بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوزاً واتساعًا : أبو حيان » فليس شىء من هذا ومثله بذى بال ، أمام ذلك النذير الصادع برهبة المفاجأة ، فإذا الساعة قائمة يراها هؤلاء الذين أنكروها وسألوا فى استبعاد واستهزاء « أيان مرساها ! » وإذا هول اليقين يفجأ من غرتهم الدنيا ، فيحسم المشهد المثير وينتهى به إلى غايته المقررة ، متسقًا مع المشهد الحسى المادى الذى لفت إليه القرآن أول السورة فى : « والنازعات غرقًا * والناشطات نشطًا * والسابحات سبحًا * فالسابقات سبقًا * فالمدبرات أمراً » .

صدق الله العظيم

سورة البلد

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«لَا أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ».

صدق الله العظيم

فراغ

السورة مكية ، ترتيبها الخامسة والثلاثون على المشهور فى ترتيب النزول . نزلت بعد (ق) .

وهى إحدى سورتين ابتدأتا بلفظ القسم صريحًا مسبوقًا بـ : لا

والسورة الأخرى هى القيامة : « لا أقسم بيوم القيامة » .

على أن عبارة « لا أقسم » وردت فى مستهل آيات أخرى ، لكن فى غير مفتتح السورة :

الواقعة ٧٥ : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لَقسمٌ لو تعلمون عظيم » .

الحاقة ٣٨ : « فلا أقسمُ بما تُبصرون * ومالا تبصِرون » .

المعارج ٤٠ : « فلا أقسم بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنا لقادرون » .

القيامة ٢ : « ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة » .

التكوير ١٥ : « فلا أُقسم بالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّس * والليلِ إذا عسعس والصبح إذا تنفس » .

الانشقاق ١٦ : « فلا أُقسِم بالشفَقِ * والليل وما وسق * والقمرِ إذا اتسق » .

وكلها آيات مكية . . .

وفعل القسم فيها جميعاً ، مسند إلى الله سبحانه متكلماً .

وجمهرة المفسرين يكتفون هنا بالقول أن « لا أقسم » معناها : أقسم ، زيدت لا ، للتأكيد : دون إشارة إلى المقتضى البيانى للعدول عن « أقسم » إلى « لا أقسم » أو إيضاح وجه تأكيد القسم ، بنقيضه وهو النفى !

على أن الشيخ محمد عبده ، لم يفته الوقوف عندها ليقول : « إن لا أقسم ، عبارة من عبارات العرب فى القسم ، يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم . ويقال إنه يؤتى بها فى القسم إذا أريد تعظيم المقسَم

به ، كأن القائل يقول : إنى لا أعظمه بالقسم لأنه عظيم فى نفسه . والمعنى فى كلٍّ حال على القسم »[١] .

وفى « لا أقسم » قول آخر ، ذكره أبو حيان بين الأقوال فى تفسير الآية[٢] وهو أن النفى هنا حقيقى ، وليس لتأكيد القسم ! وتوجيه العبارة عنده، على النفى : « أن هذا البلد لا يقسم الله به وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمته »[٣]

ونستقرئ كل مواضع الاستعمال القرآنى لهذا الأسلوب فى نفى القسم فنجد :

* أنه لم يستعمل " لا أقسم " إلا حين يكون الفعل مسنداً إلى الله تعالى .

* أن فعل القسم لم يأت فى القرآن كله مسنداً إلى الله ، إلا مع « لا » النافية .

وهذا الاستقراء صريح الدلالة على أنه سبحانه ليس فى حاجة إلى القسم وأن نفى الحاجة إلى القسم تأكيدٌ له. ومن مألوف استعمالنا أن نقول: لا أوصيك بفلان ، تأكيداً للتوصية . كما نقول : بغير يمين ، تأكيداً للثقة التى لا نحتاج معها إلى يمين[٢] .

وفى لفظ « أقسم » هنا ملحظ ذو بال . فقد يبدو من السهل هنا أن نفسر أقسم بلفظ أحلف ، وليس فى استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر ، فالنابغة يقول فى اعتذاره للنعمان :

* حلفتُ فلم أترك لنفسِك ريبة *

وقال الأعشى :

* حلفت بربِّ الراقصات إلى منى *

وقال شاس بن عبدة ، أخو علقمة الفحل :

* حلفتُ بما ضم الحجيج إلى مِنَى *

---

(١) تفسير جزء عم : سورة البلد .

(٢،٢) البحر المحيط : « .

(٣) تناولت هذه الظاهرة الأسلوبية بمزيد تدبر واستيعاب، فى (الإعجاز البيانى)ص٢٥٩ ط المعارف ١٩٧١ .

وفى القاموس : حلف أى أقسم . . .

لكن استقراء الكلمتين فى القرآن يمنع هذا الترادف : فلقد جاءت مادة «حلف» فى القرآن الكريم فى ثلاثة عشر موضعاً ، كلها بغير استثناء ، فى مقام الحِنْث باليمين . منها ست آيات فى المنافقين الذين فضحتهم سورة التوبة بعد غزوة تبوك :

التوبة ٤٢ : « لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتَّبعوك ولكن بعُدت عليهم الشقة ، وسيحلفون باللهِ لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسَهم واللهُ يعلم إنهم لكاذبون»

التوبة ٥٦ : « ويحلفون باللهِ إنهم لمنكم وما هم منكم » .

التوبة ٦٢ : يحلفون باللهِ لكم ليُرضوكم ، والله ورسوله أَحقُّ أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين » .

التوبة ٧٤ : « يحلفون باللهِ ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفرِ وكفروا بعد إسلامهم » .

التوبة ٩٦ : « يحلفون لكم لترضَوا عنهم فإن ترضَوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

التوبة ١٠٧ : « وليحلِفنَّ إن أَردْنا إلا الحسنى واللهُ يشهد إنهم لكاذبون »

ومعها ، فى المنافقين أيضاً ، آيات :

المجادلة ١٤ : « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » .

المجادلة ١٨ : « يوم يبعثهم اللهُ جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسَبون أنهم على شىءٍ ألا إنهم هم الكاذبون » .

القلم ١٠ : « ولا تطِع كلَّ حلَّاف مهين * همَّاز مشَّاءٍ بنميم * منَّاع للخير معتدٍ أَثيم » .

النساء ٦٢ : « وإذا قِيلَ لهم تعالَوا إلى ما أنزل اللهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقين يَصُدُّون عنكَ صُدوداً * فكيف إذا أَصابتهم مصيبةٌ بما قدَّمتْ أَيديهم ثم جاءُوكَ يَحلِفون باللهِ إنْ أَردْنا إلا إحساناً وتوفيقاً » .

وجاء الفعل مرة واحدة مسنداً إلى الذين آمنوا ، فلَزِمَتْهم كفَّارةُ الحِنْثِ باليمين

« ذلك كفارةُ أَيمانِكم إذا حَلَفْتم » . المائدة ٨٩

أما القسم فيغلب مجيئه فى الأيمان الصادقة .

وجاء المصدر منه موصوفاً بالعظمة فى آية الواقعة : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ويجىء الفعل فى الشهادة ومثلها ، حيث لا يحل الحنث باليمين ، كالشهادة على الوصية : المائدة ١٠٦ ، ١٠٧

وحين يُسنَد القسمُ فى القرآن إلى المجرمين فإنهم فى ظنهم غير حانثين :

« ويومَ تقومُ الساعةُ يقسم المجرمون ما لبثوا غيرَ ساعةٍ » . الروم ٥٥

وكذلك حين يقسم الكفار بالله جهد أيمانهم ، عن اقتناع بصدق ما يقسمون عليه ولو كان فى حقيقته كذباً :

« وأقسموا بالله جهد أَيمانهم لئن جاءتهم آية ليُؤمنن بها » . الأنعام ١٠٩

ومعها آيات : الأعراف ٤٩ ، إبراهيم ٤٤ ، المائدة ٥٣ ، النحل ٣٨ ، النور ٥٣ ، فاطر ٤٢.

وأمام هذا الاستعمال القرآنى ، لا يهون أن نفسر القسَم بالحلف ، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما ، فرق يؤيده فقه العربية ، فاختلاف مادتى اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما ، وبين حلف وحنث من القرب ، ما ليس بين حلف وقسم ، مما يبعد أن يكونا سواء .

* * *

ولا أعرف أنهم اختلفوا فى أن « هذا البلد » . المقسَم به فى الآية ، هو « مكة » .

ونضيف من الاستقراء ، أنه حيثما جاء « هذا البلد » فى القرآن الكريم ، مفرداً معرفًا بـِ : ال ، مشاراً إليه بهذا ، فإن الإشارة تعين أن « ال » للعهد ، وهذا البلد هو مكة . فى آيتى البلد :

« لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد » وآيتى :

التين ٣ : « وهذا البلدِ الأَمينِ » .

إبراهيم ٣٥ : « ربِّ اجعلْ هذا البلد آمِناً » .

وجاء البلد ، بغير اسم الإشارة ، فى آية الأعراف ٥٨ وليست خاصة بمكة ، بل عامة لجنس البلد الطيب :

« والبلَدُ الطيِّبُ يَخرُجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه والذى خَبُثَ لا يَخرُجُ إلا نَكِدًا »

أما بلد ، بالإفراد والتنكير ، فقد جاء مرة فى دعاء إبراهيم لمكة : فى آية

البقرة ١٢٦ : « رب اجعل هذا بلدًا آمناً » .

وثلاث مرات على العموم المستفاد من التنكير مع قيده بالوصف ، فى آيات :

النحل ٧ : « وتحملُ أثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأَنفُسِ » .

فاطر ٩ : « واللهُ الذى أَرسل الرياحَ فتثير سحاباً فسُقْناه إلى بلدٍ ميت » .

ومعها آية الأعراف ٥٧ .

ومن هذا التتبع ، نرى أن تخصيص « البلد » بمكة فى القرآن ، لا يكون إلا معَرَّفا بـِ : « ال » للعهد ، وباسم الإشارة الذى يفيد التعيين والاختصاص والإحضار .

* * *

وسبقت الإشارة فى « لا أقسم » إلى قول ذكره أبو حيان فى تفسير

الآية ، وهو أن « لا » هنا لنفى القسم لا لتأكيده ، لأن « هذا البلد لا يقسم الله به وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمته » .

يبدو أن القول بالنفى هنا ، وجّه إليه أن القسمَ للتعظيم ، فلما منع ظاهرُ السياق هنا أن يكون المقسم به موضع تعظيم ، قيل إن « لا » نافية وليست مؤكدة ، وقد هدى تدبر الظاهرة الأسلوبية ، إلى تأكيد القسم بنفى الحاجة إليه ، حين يكون فعل القسم مسنداً إلى الله تعالى .

ويبقى القسَم فى الآية على وجهه من تعظيم حُرمة هذا البلد ، واستعظام أوضاعٍ لأهله متوارثة ، لا تليق بجلال حرمته .

* * *

وآية « لا أقسم بهذا البلد » مرتبطة كما قلنا بالآية بعدها « وأنت حِلٌّ بهذا البلدِ » .

من ناحيتين : واو الحال ، وهى قيد للجملة الأولى ، ثم تكرار « هذا البلد » توكيداً للصلة بين الآيتين .

وفى معنى « حِلّ » خلاف بين المفسرين [1] :

قيل : هو من استحلال حرمة الرسول فى البلد الحرام الذى يأمن فيه الطير والوحش والجانى .

وقد واجهتهم هنا مشكلة : إذ كيف يستقيم القسَم بمكة ، حال استحلال أهلها لحرمة الرسول فى البلد الحرام ، والقسم هنا على وجهه للتعظيم ؟

قال « أبو حيان » فى (البحر) إن « لا » نافية للقسَم الذى هو تعظيم . وقال ابن القيم : المعنى متضمن تعظيم بيت الله ورسوله [2] ، وقال الشيخ محمد عبده : « ومعنى كونه حلا ، أنه استُحِلّ لأهل مكة : استحلوا إعناته — صلى الله عليه وسلم ومطاردته واستباحوا حرمة الأمن فى ذلك البلد الأمين حتى اضطروه إلى

---

(١) بتلخيص وتضمين ، من : تفسير الطبرى وكشاف الزمخشرى ، وتفسير الرازى ، والبحر المحيط لأبى حيان ، والتبيان لابن قيم الجوزية .

(٢) التبيان : ٣٧ .

الهجرة . ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها فى جميع الأحوال حتى فى هذه الحالة التى لم يرعَ أهلها تلك الحرمة التى خصها الله بها »[١] .

وقيل : « حِلٌّ » هنا بمعنى إحلال الله لرسوله أن يفعل بمكةَ وأهلها ما شاء « فأنت حل به فى المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر . وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فُتِحتْ على أحد قبله ، ولا أُحِلَّت له ، فأحل ما شاء وحرم ما شاء »[٢] .

والآية مكية باتفاق وقد نزلت قبل فتح مكة بسنين ، فاحتاجوا إلى تعليل هذا التأويل ، فقال الزمخشرى يجيب عن سؤال طرحه فى هذا الموقف : إن المستقبل هنا كالحاضر المشاهد ، ونظيره قوله عزوجل : « إنك ميت وإنهم ميتون » .

وما بنا حاجة إلى مثل هذا ، فالإخبار عن المستقبل مألوف فى العربية وفى القرآن ، وأبو حيان معذور حين يرد على الزمخشرى هنا بقوله : « وأما سؤاله والجواب ، فهذا لا يسأله من له أدنى تعلق بالنحو ، لأن الأخبار قد تكون بالمستقبلات » .

ثم قال أبو حيان : لم نحمل « وأنت حل » على أنه يحل لك ما تصنع فى مكة من الأسر والقتل ، بل حملناه على أنه مقيمٌ بها خاصة ، وهو وقت النزول كان مقيماً بها ضرورة .

وفى الآية ، قول ثالث هو أن يكون « حِلٌّ » من الإحلال ضد الإحرام ذكره ابن القيم فى التبيان .

وقول رابع : أنه من الحلول بمعنى الإقامة ضد الظعن ، ذكره الراغب فى (المفردات) وكذلك ابن القيم : « قسم بحرمة المكان ، وبحلول الرسول فيه ، قسم بخيرِ البقاع وقد اشتمل على خيرِ العباد »[٣] .

وقال أبو حيان فى البحر : « أقسم بها لما جَمَعَت من الشرفين : شرفها بإضافتها إلى الله تعالى ، وشرفها بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وإقامته بها ، فصارت أهلاً لأن يقسم بها » .

---

(١) تفسير جزء عم ٨٧ .

(٢) الزمخشرى ، وذكره أبو حيان ثم رفضه .

(٣) التبيان : ٣٧ .

والحل لغةً ، يحتمل أكثر الأقوال التى ذكرها المفسرون ، فيكون من الحلول ضد الظعن ، أو من الإحلال ضد الإحرام ، أو من استحلال الحرمة وانتهاكها ، وربما كان آصل معنى فيه ، حلّ العقدة ، ومنه دعاء موسى : « واحلل عقدة من لسانى » .

ثم قيل : حللتُ أى نزلت ، من حَلِّ الأحمالِ عند النزول، ومنه فى القرآن الكريم آيات :

الرعد ٣١ : « أو تحُلّ قريباً من دارهم » .

إبراهيم ٢٨ : « وأَحَلُّوا قومَهم دارَ البوار » .

فاطر ٣٥ : « الذى أَحَلَّنا دارَ المقامةِ من فضلهِ » .

ثم نُقِلت إلى المصطلح الدينى فى الدلالة الإسلامية على الحل والحلال ، نقيض الحرام . وهو الغالب على الاستعمال القرآنى ، ومعه الإحلال ، ضد الإحرام فى آية المائدة ٢ : وهى مدنية .

وبمعنى الحلال جاءت كلمة « حِلّ » فى القرآن ، فى أربع مرات من خمس ، هى كل ما فى الكتاب الكريم من صيغة « حل » :

المائدة ٥ : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم ، وطعامكم حِلٌّ لهم » .

الممتحنة ١٠ : « لا هُنَّ حلٌّ لهم ، ولا هم يحلون لهنّ » .

آل عمران ٩٣ : « كلُّ الطعامِ كان حِلاًّ لبنى إسرائيلَ إلا ما حَرَّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أَن تُنَزَّلَ التوراة »

وكلها آيات مدنية .

ونطمئن إلى تفسير آية البلد بالحلول — وهو المختار عند أبى حيان — والمعنى يستقيم بهذا الفهم ، مع ملحظ من دلالة الاستحلال لحرمة الرسول فى هذا البلد ، لا فتٍ إلى الأحوال الشاخصة لهذا البلد وأهله ، فكل ما يقع على الرسول من إيذاء،

حاضرٌ مشهود ؛ يعانيه صلى الله عليه وسلم ويكابده ، إذ هو موضع الأذى والاضطهاد بمكة ، وهو مقيم بها . وإنها ، لكما قال المصطفى يوم الهجرة : «لأَحَبُّ أرضِ اللهِ إلى الله وأحب أرض الله إلى رسوله » عليه الصلاة والسلام

وبهذا الفهم لا يبدو معنى الإحلال ضد الإحرام قريباً والسياق لا يطمئن به ، والأذهان غير متجهة إليه فى هذا المقام .

كما نستبعد أن يكون حِلٌّ بمعنى إحلال الله لرسوله هذا البلدَ يفعل به بعد الفتح ما شاء ، لظهور تكلفه ، فضلا عن كون الصيغة لا تقبل لغويًّا أن يكون الإحلال من حَلَّ ، وليس الاشتقاق .

وتفسير الحِلّ بالإقامة وهو المعنى المتبادر ، أو بجعل أذى الرسول حلالا وهو أكثر استعمال القرآن للمادة ، يبدو قويَّ الصلة بالآيات التالية ، على وجه لا انضطار معه إلى تمزيق السياق أو الإبعاد فى التكلف ، وبخاصة حين تحمل آية « وأنت حل بهذا البلد » على الحالية ، وهو ما ذهب إليه « أبو حيان » ؛ وليس على الاعتراض كما قال « الزمخشرى » وتابعه على ذلك الشيخ محمد عبده فقال : « واعترض بها بين العاطف والمعطوف ، ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها فى جميع الأحوال » .

وهذا القول بأن الآية معترضة . يغيب عنه ما فى الحالية من قوة الربط وتقرير الصلة بين الآيتين . إذ تكون الثانية قيداً للأولى . ووصلا لها بالآية التالية :

* * *

« ووَالِدٍ وما وَلَدَ » .

فالواو هنا للعطف ، ووالد وما ولد « معطوفان على هذا البلد فى الآية الأولى : « لا أقسم بهذا البلد « وأنت حلٌّ فيه تعرف أحوالَ أهله وأوضاعهم ، وتعانى ما تعانى من أمرهم .

وعند بعض المفسرين أن « ما » فى الآية ، يحتمل أن تكون نافية ، وهو احتمال لا يدعو إليه ملحظ من السياق أو داع من المعنى فيما نرى ، وتأويلها عندهم « و والد ،

والذى ما ولد » أى العاقر ، على تقدير موصول مضمر يصح به هذا المعنى . مع أن إضمار الموصول لايجوز عند البصريين . . . . (أبو حيان) .

على أن جمهرة المفسرين ، ذهبوا إلى أن « ما » هنا اسم موصول ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى تأويل : والد وما ولد . . .

وأهم ما عناهم منه ، هذا التنكير فى « والد وما ولد » قال الزمخشرى : هو للإبهام المستقلّ بالمدح والتعجب .

وأوْلى منه قولُ من قالوا بالتعميم . لكن ما حدود هذا التعميم ؟

أطلقه قوم ، منهم ابن عباس — فيما نقل الطبرى وأبو حيان — فأدخل فيه جميعَ الحيوان !

وجعله بعضهم . منهم ابن جرير الطبرى . عامًّا فى البشر والحيوان والنبات .

وهو ما أخذ به الشيخ محمد عبده فقال : « المراد منه أى والد وأى مولود من الإنسان والحيوان والنبات كما يرشد إليه التنكير ، وكما هو مختار عند ابن جرير وجمع من المحققين » .

واكتفى قوم من العموم بالبشر دون سائر الحيوان والنبات ، فقالوا : الوالد والولد هنا ، آدم وذريته « ابن القيم ، وذكره الزمخشرى » .

وخصه قوم : بالصالحين من ذريته .

وحصره فريق فى محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقد ذكره الطبرى بصيغة الاحتمال ، وأورده الزمخشرى فى (الكشاف) وذكره أبو حيان مرويًّا عن « مجاهد » . . .

وفى قولٍ : إنه نوح وذريته ، أو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده !

وهكذا يتسع عموم التنكير عندهم ، حتى يحتمل جميع الناس والحيوان والنبات . . .

ثم يتدرج فى الضيق ، حتى ينحصر فى أحد الأنبياء عليهم السلام وأمته ، أو الصالحين من ذريته وولده !

ولا أدرى هل هذه الأقوال جميعًا مما يمكن أن تحتمله العبارة لغويًا ؟ لكنها مما لا يحتمله المقام بيانيًا . ولا يتبين لنا بقول منها موضعه من المعطوف عليه « لا أقسم بهذا البلد »

شَغَلَ المفسرين أن يبينوا وجه العظمة فى « والد وما وَلد » لوقوعهما فى حيز المقسم به ، مع أن القسم كما يكون للتعظيم ، يكون لاستعظام ما هو جسيم وخطير .

فالذين قالوا : هو آدم وذريته ، قالوا إن وجه التعظيم أن آدم مرجع العباد ، كما أن مكة مرجع البلاد ! (التبيان) .

والذين قالوا : هو محمد وأمته ، قالوا إن القسم هنا لتعظيم الله محمداً وأمته ، بعد ما أقسم ببلده ، مبالغة فى شرفه صلى الله عليه وسلم (الطبرى - ونقله أبو حيان) .

والذين قالوا : هو كل والد وما ولد ، من جميع البشر والحيوان والنبات ، فسروه بأنه تعالى أقسم بذلك « ليلفت نظرنا إلى رفعة هذا الطور من أطوار الوجود ، وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود فى ذلك . فإذا تصورتَ فى النبات كم تعانى البذرة فى أطوار النمو من مقاومة فواعل الجو ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، إلى أن تلد بذرة أو بذوراً أخرى ، تعمل عملها وتزين الوجود بجمال منظرها . . . إذا أحضرت ذلك فى ذهنك ، والتفتَّ إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم »[1] .

وما أرى نص الآية ، يحتمل كل ذلك . وهذا الإطناب فى بيان عظمة التوالد فى النبات والحيوان ، لم يرتبط على وجه ما ، بهذا البلد الذى ارتبط به « والد وما ولد » لفظًا بواو العطف ، ومعنى بوقوعهما جميعًا فى حيز المقسم به . . .

(١) الشيخ محمد عبده : سورة البلد .

وتخصيص والد، بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو نوح ، أو إبراهيم ، عليهما السلام ، يُبعده ، إن لم ينفه ، العمومُ المستفاد من التنكير ، فضلا عن دلالة « ما » على غير العاقل .

ونتدبر الآية فى سياقها من السورة ، فنرى التعميم أقرب إلى أن يُفهَم منه تتابعُ الأجيال من أهل « هذا البلد » طبقةً بعد طبقة ، وما توارثوا ، ولداً عن والد ، من أحوال وأوضاع يستعظمها القرآن فيقسم بها لفتـًا إلى جسامة خطرها ، ثم يتولى بيانها فى آيات تالية .

ووضع « ما » مكان مَن — التى هى للعاقل — فى قوله تعالى : « وما ولد » لفتٌ إلى أن المقصود هنا ليس أشخاصًا بذواتهم ، وإنما الحديث عن تتابع الحياة وأجيالها على نمط واحد ، وعن توارثها ولداً عن والد وخلفـًا عن سلف . والأمر بهذا الفهم ، أبسط من أن نتكلف له مثل ما ذكره الشيخ محمد عبده أو نحو ما قال الزمخشرى فيه :

« وقوله تعالى ما ولد ، فيه ما فى قوله : « والله أعلم بما وضعتْ » أى بأى شىء وضعت ، يعنى موضوعـًا عجيب الشأن ! »

وربما كان « الفراء » أهدى منهجـًا ، حين اكتفى بالاستئناس بما فى القرآن من آيات جاءت فيها « ما » للناس كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم . . . وما خلق الذكر والأنثى » دون أن يتكلف فى الأمر مايدعو إلى العجب ! (البحر المحيط) .

* * *

« لَقَدْ خلَقْنا الإنسانَ فى كَبَدٍ » .

جمهور المفسرين على أن الإنسان اسم جنس (أبو حيان) .

والراجح أنه كذلك ، فأكثر ما تجىء كلمة « الإنسان » فى القرآن ، معرفة بأل للجنس — نحو ٦٣ مرة — وجاءت مرة واحدة نكرة ، لكن مع الاستغراق بلفظ كل ، فى آية الإسراء ١٣ : « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنُقه» .

لكن الزمخشرى خصَّ الإنسان فى آية البلد ، بمرضى القلب من بنى آدم !

وقال أبو زيد فيما نقل أبو حيان : إن الإنسان هو آدم .

على أن استقراء كل آيات الإنسان فى القرآن الكريم ، يشهد بأن دلالة الإنسانية فيه أخص من الآدمية والإنسية ، فالإنسان هو الذى يختص بالبيان والجدل ويحتمل التكليف والأمانة والعهد والوصية ، والابتلاء بالخير والشر والتعرض للغواية ، مع ما يلابس ذلك كله من غرور وطغيان [1] . . . .

* * *

أما « كَبَد » فلم ترد فى القرآن صيغةً ولا مادة ، غير هذه المرة . وأصل الكبد فى اللغة من وجع الكبد ، يقال : كَبَدَ الرجُلَ يَكبُدُه ، ضرب كَبِدَه ، وكُبِد — كعُنِى — شكا كَبِدَه . والكُباد ، كغراب : وجع الكبد .

ثم أطلق على الألم بعامة ، فقيل : كَبِدَ ، أى ألِم . ومنه أُخِذ معنى الشدة والمشقة ، فقيل : كبد البردُ القومَ شقّ عليهم ، والكبَد بالتحريك : الشدة والمشقة ، والمكابدة : المقاساة والمعاناة .

ولم يختلف المفسرون فى أن معناها فى آية البلد الشدة . لكن أقوالهم شتى فى تحديد هذه الشدة ، فالزمخشرى يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى مَرَض هو مرض القلب وفساد الباطن » ، ثم انتبه إلى أنه بهذا يثير موضوع المسئولية والجزاء ، وهو الموضوع الذى فتح عليهم باباً لم يستطيعوا سدَّه وإقفاله ، فالخالق هنا هو الله ، خلق الإنسان مريض القلب فاسد الباطن ، ومن ثم يستدرك الزمخشرى المعتزلى قائلا : « يريد : الذين علم منهم — تعالى — حين خلقهم ، أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات » .

ومقتضى هذا أن تكون « ال » فى الإنسان للعهد لا لاستغراق الجنس الذى يرجحه سياق الآية ، ويؤيده الاستعمال القرآنى للإنسان مقصوداً به عموم النوع الإنسانى ، وهو ما عليه الجمهور ، كما صرح بذلك أبو حيان فى (البحر) .

---

(١) يأتى بيان ذلك بمزيد تفصيل فى تفسير سورتى العلق والعصر ، بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وفى (التبيان) : لم يخلق اللهَ خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم . . . يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وفيه كذلك عن « ابن عباس » : يعنى بالكبد ، حمله وولادته ورضاعه وفصاله ، ونبت أسنانه ، وحياته ومعاشه ومماته ، كل ذلك شدة .

فصّله ابن القيم فقال : « الإنسان مخلوق فى شدة ، بكونه فى الرحم ثم فى القماط ثم فى الرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ومكابدة المعيشة والأمر والنهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ ، وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ، ولا راحة إلا فى الجنة » .

وقال الشيخ محمد عبده : « إنه فى عناء من تصريف قواه فى عمله ، بل وفى أكله وشربه ، وحماية أهله فى سربه » .

وكل ذلك يمكن أن يقال ، لكن ما وجهُ ارتباط القسم بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، بتلك الشدة التى خُلق فيها الإنسانُ ، والعناءِ المحتوم عليه من ساعة مولده إلى يوم القيامة ؟

يقول الشيخ محمد عبده : « إن الإنسان نوع من الوالد والمولود ، فحق له أن يخلق فى كبد وكد ونصب . . . وما يصيب الرسولَ من تقريع المستحلين لحرمته ، فهو من شأن الإنسانِ وقدَر قُدِّر على كلِّ مولود منه . وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم عن ذلك الإيذاء ما هو ظاهر ، وأن العناء الذى يلاقيه مَن اختصه الله بوحيه ، هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغه الغاية من سير نموه » .

ووجه الغرابة فى هذا التأويل أن يُسوى بين أعباء الرسالة ، وما يتحمله كل مولود من عناء النمو . وقد رأينا أنه — رحمه الله — ذهب فى التعميم إلى آخر مدى ، فجعل « ما ولد » فى الآية ، لكل مولود من إنسان وحيوان ونبات ، فهل تستوى حقًّا أعباء الرسالة الكبرى ، وما يكابده كل مولود من البشر . ودَعْكَ من بذور النباتِ وصنوفِ الحشرات والحيوان ؟ !

ما نظن المكابدة هنا تنصرف إلى ما ذكروه من مشاق الحمل والنمو

والعيش والموت والحساب ، كما نستبعد أن يكون « الكبد » فى الآية هو مرض القلب وفساد الباطن كما قال « الزمخشرى » وإنما الكبد – فيما نرجح – هو ما هُيِّئ له الإنسان بفطرته من احتمال المسئولية ومشقة الاختيار بين الخير والشر . ووجه ارتباطه بالقسم قبله – بحال أهل مكة وما اختاروا لأنفسهم من استحلال أذى الرسول وهو مقيم بالبلد الحرام – واضح ظاهر . وهو أوضح ارتباطاً بالآيات بعد . من ضلال الغرور بهذا الإنسان الذى وهب الله له وسائل الإدراك والتمييز ، وبين له معالم الطريقين : الخير والشر .

وقوله تعالى : « خلقنا » بدلا من : جعلنا ، إشارة إلى أن الإنسان مخلوق بفطرته لهذه المكابدة ، على ما فهمناها من معاناة المسئولية وأمانة التكليف ، والابتلاء بالشر أو الخير ، دون حاجة إلى ما أثاره المجبرة أو المعتزلة من كلام فى المسئولية والجزاء

ثم تأتى الآيات بعد هذا ، مبينة الكَبَدَ الذى خُلِقَ فيه الإنسانُ ، موضحة ما هُيِّئ له من وسائل الهدى والتمييز .

* * *

« أَيَحْسَبُ أَنْ لن يَقْدِرَ عليه أَحد » ؟

فهنا تبدأ المعاناة ، بما يشعر به الإنسان فى حال قوته وثرائه من غرور يطغيه ويُضله فيحسب أن لن يقدر عليه أحد : « كلاَّ إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

وبلاغة الاستفهام فى الآية ، تأتى من هذا الطىِّ المتعمَّد لتحديد نوع الكَبَد ، على مألوف الإيجاز المعهود ، وبخاصة فى قصار السور من العهد المكى . ثم يفاجأ السامع بظواهر الكَبَد وعلله وآثاره ، فى صورة استفهام تقريرى ، يحمل من الإنكار قدر ما يحمل من التقرير القاطع الحاسم ؛ فهنا وقفة عند « كَبَدٍ » منكرة ، يذهب فيها الظن كل مذهب . يليها الاستفهام المثير : أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ و « لن » لتأبيد النفى فى حساب هذا الإنسان المغتر .

ولا حاجة بنا إلى تحديد مرجع الضمير فى « أيحسب » بشخص معين ،

هو فى قولٍ : أبو الأشد ، كان قوياً يُبسَط له الأديمُ العكاظى فيقوم عليه ويقول : " من أزلنى عنه فله كذا " فلا ينزع إلا قِطعاً ويبقى موضع قدميه . أو هو فى قولٍ آخر : الوليد بن المغيرة ، وغروره بقوته وجاهه وماله ذائع معروف . فالعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول ، لو صح أن الآية نزلت فى أحد الرجلين . . . .

هو الإنسان بعامة ، كما فهم « أبو حيان » وإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، ومع الطغيان تغره قوته فيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، ويغره ثراؤه فيتشدق مباهياً مفاخراً :

* * *

« يقولُ أَهلكْتُ مالًا لُبَدا » .

لفظ « لبد » لم يأت فى القرآن فى غير هذا الموضع ، وهو فى اللغة الكثير المجتمع ، وأصلُه من : تلبد الصوف ونحوه ، إذا تداخَل ولزِق بعضُه ببعض .

واللِّبدة ، بالكسر : شعر زُبرة الأسد لوفرته وتداخله ، والتبدت الشجرة وتلبدت : كثرت أوراقها ، واللِّبَدَى : القوم المجتمع .

يقول : أهلكتُ ، ولم يقل : أنفقت ، مع قربها ، إذ الإهلاك أوْلى بالغرور والطغيان ، وأنسب بجو المباهاة والفخر المسيطر على المقام . . .

والتنكير فى « مال » كالتنكير فى : لُبَد ، وفى : أَحَد ، مقصود به إلى الإطلاق والتعميم .

* * *

« أَيَحْسَبُ أَنْ لم يَرَه أَحَدٌ » .

هنا عاد الاستفهام ، بكل ما فيه من ردع وإنكار ، يفجأ المغتر بماله وقوته ، وفى حسابه أن لم يره أحد . وقد عدل البيان القرآنى هنا عن « لن » التى فى الاستفهام الأول ، إلى « لم » التى تنصرف إلى الماضى فتقرر أن ماضى المغتر محسوب عليه محاط به . بعد أن أكَّد فى : أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟ أن مصيره فى يد القادر المحيط بما يعمل ، لا تخفى عليه خافية ، فمهَّد هذا للآيات بعده :

« أَلَمْ نجعلْ له عينين * ولساناً وشَفَتَين * وهَديْناه النَّجْدَين » .

بدأ فيها بوسائط الإدراك الحسى ، ووسائل الإبانة : فالعين أداة البصر ، واللسان والشفتان أدوات النطق والإبانة والتعبير . وليس المراد هنا ، والله أعلم ، أدوات الحس العضوية العضلية ، فذلك ما لا يختص به الإنسان دون البهم والوحش والطير والحشرات . وإنما يراد بها ما يسأل الإنسان عنه ، على وجه الحض والزجر والإلزام بالحجة ، من أمانة البصر والنطق ، تمهيداً لما يلى فى السورة ، من تقرير تبعات الرشد ومسئولية الكلمة .

* * *

بعد وسائل الإدراك الحسى من بصر ونطق ، يأتى التذكير بما هدى تعالى الإنسان من إدراك مميز لمعالم الطريقين :

« وهَدَيْنَاه النَّجْدَين » .

والأصل اللغوى للهُدى أنه الصخرة الناتئة فى الماء يؤمن بها من العثار ، ووجهُ النهار يعرف السائر فيه طريقه فلا يضل . ثم استعمل فى هوادى الإبل أى المتقدمة منها ، ومنه الهادى أى الدليل الذى يتقدم القوم ويهديهم الطريقَ ، واستعمل بعد هذا مجازياً فى الهداية ضد الضلال ، وهو أكثر المعانى وروداً فى القرآن . كما استعمل — فى هذا الجو الدينى — فى التوفيق والإلهام .

والنَّجْدُ لغةً : ما أشرف من الأرض ، والطريق المرتفع الواضح . والنجود من الإبل والأُتُن : الطويلة العنق ، والماضية ، والمتقدمة ، والتى تبرك على المكان المرتفع .

ومن الوضوح والارتفاع والتقدم ، أُطلِقَ النجدُ على الدليل يَظْهَرُ مكانُه فى القوم ، ويسبِقهم هادياً إلى الطريق .

وفسر « الراغب » النجدين فى الآية ، بطريق الحق والباطل فى الاعتقاد ، والصدق والكذب فى المقال ، والجميل والقبيح فى الفعال .

واقتصر « الزمخشري » ومثله « ابن القيم ، والشيخ محمد عبده » على القول بأنهما طريقا الخير والشر ، وذكر « أبو حيان » أن هذا هو ما عليه الجمهور .

على أن هناك قولا — فى الأساس والبحر المحيط — بأن النجدين « هما الثديان ، لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه » !

والتأويل به ، فيه شطط التكلف مع ظهور وهَنه وضعفه . . . .

كلمة « وهديناه » — دون : بينا له أو أوضحنا — توجهنا إلى أن الهدى ملحوظ فيه أنه تعالى ألهم الفطرة الإنسانية الإدراك المميز للخير والشر ، وجعل لها الأدوات الحسية لهذا الإدراك . كما أن « النجدين » — ولم يأت هذا اللفظ فى القرآن ، إلا فى هذه الآية — ملحوظ فيهما معنى الوضوح والشخوص المستفاد من الدلالة الأصلية للمادة ، بحيث يرى الإنسان الطريقين ببصره ، ويدركهما بما تهيأ له من هدى الله وإلهام الفطرة . . .

واتصال هذه الآيات الثلاث بما قبلها واضح بين : فهذا الإنسان الذى خلقه الله مهيأ لأمانة التكليف الصعبة ، مستعداً لمكابدة اختيار أحد الطريقين . قد زوّده — جلت قدرته — بوسائل الإدراك الحسى ، وهداه معالم الخير والشر واضحة أمامه شاخصة ماثلة ، يراها بعينيه كما يرى النجدين فى وجه النهار ، ويدركها بما تهيأ له فى فطرته من تمييز بين الخير والشر ...

واستعمل « ألم » فى صدر الاستفهام هنا ، لأن خَلْقَ الإنسانِ مزوداً بوسائل الإدراك والتمييز ، يسبق شعورَه بقوته واغتراره بما له ، فناسبه أن ينسحب الفعل بها إلى الماضى بـِ (لم) .

أما حسبانه أنْ لن يقدر عليه أحد ، فيأتى متأخراً بعد أن تطغيه القوة والمال ، ومن ثم جاءت (لن) لتنقل الفعل من الحال إلى المستقبل ، إذ ليس أمعن فى الغرور من أن يحسب المغتر أن لن يقدر عليه أحد أبداً .

ويقال كذلك ، إن الانسحاب إلى الماضى فى « أيحسب أن لم يره أحد . . . ألم نجعل له . . . » وإلى المستقبل فى « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد » بيان لمدى إحاطة الله بالإنسان مهما يبلغ من قوته وطغيانه ، فهو تعالى يملك من أمر مستقبله

ما يملك من حاضره وماضيه : بيده الخلقُ ، وإليه المصير ؛ وذلك هو ما فى قوله تعالى فى سورة الوحى الأولى : « كلاَّ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى » (العلق) .

* * *

« فَلَا اقْتَحَمَ العقَبَةَ » .

الاقتحام : توسُّطُ شدة مخيفة ، فيما فسره « الراغب » . ولم ترد مادته فى القرآن إلا فى موضعين : آية البلد هذه ، وآية (ص) ٥٩ :

« هذا فَوْجٌ مقتَحِمٌ معكم لا مَرْحَبًا بهم ، إنهم صَالُوا النارِ » .

وأصل القَحمة ، من الطريق : مصاعبه . ومن الشهر : لياليه الثلاثُ الأخيرة ، يَشق فيها السُّرَى وتتوه السبل . وقَحَمَ المفاوزَ ، كمنع : طواها .

وأما العقبة ، بالتحريك . فأصلها المرقى الصعب من الجبال . والعُقابُ : الطائر الجارح المعروف ، وصخرة ناتئة فى عرض الجبل ، وحجَر ناتئ فى جوف البئر يخرق الدلو .

ولم تأت العقبة ، بهذا المعنى ، إلا فى آيتى البلد ، وفيما عداهما ، تدور المادة فى القرآن حول العِقاب والعاقبة والعقبى والتعقيب .

والاقتحام هو أنسب الألفاظ للعقبة لما بينهما من تلاؤم فى الشدة والمجاهدة واحتمال الصعب . والمناسبة بين اقتحام العقبة وخلق الإنسان فى كبد ، أوضح من أن تحتاج إلى بيان ؛ فالإنسان المخلوق فى كَبَدٍ ، أهل لأن يقتحم أشدَّ المصاعب ويجتاز أقسى المفاوز ، على هَدْيِ ما تهيأ له من وسائل الإدراك والتمييز ، وما فُطر عليه من قدرة على الاحتمال والمكابدة .

ووقف المفسرون طويلا عند « فلا » فى صدر الآية ، ويميل أكثرهم إلى اعتبار « لا » نافية ، مع السكوت عن الفاء فيها . ولكن عُقَدَ الصنعة الإعرابية واجهتهم ، فالقاعدة المشهورة عندهم أن « لا » النافية لا تدخل على الماضى إلا مكررة ، **وقد ساق « أبو حيان » قول الفراء والزجاج : « والعرب لا تكاد تفرد**

" لا " مع الفعل الماضي حتى تعيد ، كقوله تعالى : * فلا صدَّقَ ولا صلَّى * »

لكنها في آية البلد ، دخلتْ على الماضي دون تكرار ، ومن ثم احتالوا للتوفيق بينها وبين القاعدة الإعرابية .

فقال الزمخشري : هي متكررة في المعنى ، على تقدير : فلا اقتحم العقبة ولا آمن . . .

وعند الزجاج أن قوله تعالى : * ثم كان من الذين آمنوا * يدل على معنى : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن .

وأنكر الشيخ محمد عبده هذه التأويلات ، إذ لا وجه عنده للالتفات إلى القول بمخالفة القاعدة « لأن القرآن نفسه حجة في الفصاحة ، وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها » .

على أن هناك قولا آخر في توجيه « فلا » في الآية ، وهو أن تكون استفهامية . وقريب منه القولُ بأن (لا) في الآية من : (ألا) التي للتحضيض . وردَّه قوم منهم الشيخ محمد عبده – بأنه لم يعرف تخفيف ألاَّ التحضيضية . ولست أدرى لم جاز عند الشيخ أن يلتفت هنا إلى هذه المخالفة للمعروف من قواعدهم ، وقد أخذ عليهم الالتفات إلى مخالفة القاعدة في عدم تكرار لا النافية مع الماضي ، لأن القرآن نفسه حجة في الفصاحة ؟

والذي نطمئن إليه في : فلا ، أنها على أي الوجهين حملناها ، تُشعر بالإنكار والتأنيب والحض . والمعنى بالنفي والاستفهام متقارب ، فاختيار « لا » في موضع الاستفهام ، صريح في نفي اقتحام العقبة عن هذا الإنسان المغتر بقوته وماله ، وقد خلقه الله في كبد وهداه النجدين . واللغة حين تستعمل ألاَّ وهلاَّ في الاستفهام ، فذلك إنما يكون في مقام التحضيض والتأنيب عند انتفاء الفعل ، فلست تقول لأحد « هلاَّ صنعت كذا » إلا وهو لم يصنعه .

فمعنى التأنيب والحض صريح في « فلا اقتحم العقبة » مع تقرير النفي بها لا ينفك عنها . والفاء هنا ، للربط والترتيب : خُلق الإنسان مُهَيَّئًا لمكابدة المسئولية ، وأعطي وسائل التمييز والإدراك ، ليقاوم الشر والضلال ، ويسلك طريق الصلاح على

ما فيه من مشقة هو أهل لاحتمالها . ويقتحم العقبة التي حُض على اقتحامها .

لكن ، ما العقبة التي يتحدث عنها القرآن هنا ؟

في الطبري عن الحسن البصري : عقبة والله شديدة . مجاهدةُ الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان .

وقريب منه ، ما قاله الزمخشري ، ونقله الشيخ محمد عبده .

وقيل : العقبة جهنم ، أو جبل فيها ، لا يُنجى منها إلا الأعمال الصالحة .

نقله أبو حيان في « البحر المحيط » عن الحسن أيضًا ، وعن ابن عباس ومجاهد وكعب .

ونرى السياق في غير حاجة إلى تأويلٍ يغني عنه أن القرآن نفسه قد تولى بيان « العقبة » حين أتبعها السؤال اللافت :

* * *

«وما أَدْرَاكَ ما العقبةُ * فَكُّ رقبة * أَو إِطْعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ * يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ * أَو مِسْكينًا ذَا مَتْرَبَة * ثم كان مِنَ الَّذِين آمنُوا وتَواصَوا بالصَّبرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمةِ * » .

فهذا بيان للعقبة التي يجب أن يقتحمها الإنسان . بما تهيأ له من وسائل المكابدة وطاقة المجاهدة ، والإدراك والتمييز .

وهو كذلك بيان لأوضاع ظالمة نشأت عن غرور القادرين وطغيان أصحاب المال في « هذا البلد » : فليس ما كان المجتمع المكي يعانيه من مآسي الرق ، ومن التصدع الطبقي ، ومن البغي والاستبداد إلى حدّ انتهاك حرمة الرسول — عليه الصلاة والسلام — في البلد الحرام ، ليس هذا كله إلا أثراً لطغيان هذا الإنسان الذي غرته قوته فاستعبد مخلوقين مثلَه وملك رقابَهم بأغلالِ الاسترقاق المهين ، كما زين له جاه الثراء أن يباهي بأنه أهلك مالاً لبدا ، وعلى مقرُبة منه يتيمٌ محتاج ، أو مسكينٌ لاصق بالتراب . . .

أوضاع مريضة ، استقرت على مرِّ الأجيال وتوارثها « هذا البلد » ولداً عن والد ، وطبقة في إثر طبقة . وكان الإنسان جديراً بأن يقاوم طغيان المال وغرور

القوة ، وأن يحتمل أعباء البذل والإيثار من أجل خير الجماعة ، على ما فى ذلك من مشقة وعناء .

ولو أن هذا الإنسان قد رجع إلى فطرته ، وثاب إلى رشده وحسه وبصيرته ، لاهتدى إلى معالم الخير والشر واضحة أمامه شاخصة ، ولأدرك أنه — على ما يتوهم من قدرته — ضعيفٌ أمام خالقه القادر الأعلى ، وأنه على ما يغره من ثرائه ، محاسَبٌ مسئول عن ذلك الشر الذى تمثل فى أوضاع « هذا البلد » .

وأى شر أفدح وأوضح ، من أن يُستَحَلَّ أذى الرسول فى البلد الحرام ؟ وأن يوجد فى هذا البلد ، مثابة الحج ومقر البيت العتيق ، قادرٌ مستبد يملك رقابَ الناس ، ثرىٌّ يُهلك مالاً لبدا ، وإلى جانبه ناس قد أُهدِرت إنسانيتهم بالرقِّ ، وذوو قُربى جياع ، ومساكين فقراء لاصقون بالتراب ؟ !

هكذا تتجسم أوضاع هذا البلد الحرام ، والرسول حِلٌّ فيه . وعلى هذا مضت بهم الحياة أجيالا متعاقبة : والدٌ وما ولد

من ثَمَّ تتحدد معالم النضال فى سبيل ما جاءت به الدعوة الإسلامية لهدى الناس وإصلاح ما فسد من أحوالهم : والقرآن إذ يدعو هنا إلى المجاهدة ضد الرق ، والفروق الطبقية والظلم الاجتماعى ، يستثير ما فى فطرة الإنسان من قدرة على المكابدة ويحضه على اقتحام العقبة الكبرى ، على هدى المعالم الواضحة أمامه لطريق الخير والشر . . .

والإثارة اللافتة ، لاتأتى من مجرد الاستفهام البيانى وحده ، وإنما تأتى كذلك من كل لفظ ونبرة ، فى قوله تعالى : « وما أدراك ما العقبة » ، ينفذ به إلى أعماق الوجدان ، ويهيئ السامع لما يعقبه من بيان : « فك رقبة . أو إطعامٌ فى يوم ذى مسغبة . يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ... »

وعسى ألا يفوتنا هنا ، هذا الترتيب لخطوات اقتحام العقبة ومراحل النضال من أجل صلاح الإنسان وخير الجماعة :

بدأ بفكِّ الرقبة ، ولهذا البدء دلالتهُ الصريحة عن أن تحرير الإنسانية من أغلال الرق هو أول خطوة فى النضال الصعب من أجل الوجود الكريم الجدير بالإنسان ، فليس شىء آخر بالذى يسبق ردَّ الكرامة الآدمية للإنسانية . وكل

إصلاح لخير البشر والمجتمع ، إنما يأتى بعد أن نرد إلى الإنسانية اعتبارَها المهدَر بالرق .

واستعمال الفك والرقبة ، فيه ما فيه من إشعار بأن العبد المسترق مغلول الرقبة بقيدٍ مهين يسلبه إنسانيته وينزل به إلى منزلة البهم والدواب ، وهو المخلوق الذى سوّاه الله بشراً حرًّا كريمًا ، فاستعبده مخلوق مثله ، حَسِبَ لفرط غروره بقوته وثرائه ، أن لن يقدر عليه أحد !

والآيات بعدها : « أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيمًا ذا مقربة * أو مسكينًا ذا متربة » هى آيات العدالة الاجتماعية ، لتصحيح الأوضاع المادية التى أباحت وجودَ مقتدرٍ ذى مالٍ لُبَد ، ويتيم جائع ذى مقربة أو مسكين ذى متربة . والقرآن يضع هذه العدالة الاجتماعية تالية لفك الرقبة ، ويأتى بها فى مساق البيان لاقتحام العقبة ، مقدراً ما فى تصحيح هذا الوضع الفاسد من صعوبة ، وما يتطلبه من مجاهدة ومكابدة .

وقوله تعالى : « فى يوم ذى مسغبة » ، يجسم بشاعة الوضع : فالمسغبة المجاعة ، أو هو الجوع العام كما قال « أبو حيان » ؛ وليس أبشع من تصور جار يتيم أو مسكين محتاج ، فى يوم مجاعة .

وكونُ اليتيم ذا مقربة ، يُفَسَّر بالقرب وبالقرابة ، ولكليهما حقُّ الجوار والقربى .

وكونُ المسكين ذا متربة ، بيان لمدى العوَز والهوان ، يُلصِق المسكينَ بالتراب ، أو يجعله ، من فَرْطِ العدم ، لايجد سوى التراب !

وضع بشع ، يستطيع الإنسان أن يدركه ببصره وبصيرته ، بحسه وبفطرته ، ويستطيع معه أن يميز طريق الخير ، لو اقتحم العقبة وجاهد من أجل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية .

* * *

«ثُمَّ كان من الذين آمَنُوا وتواصَوْا بالصَّبْرِ وتواصوا بالمرحمة » .

عطف الإيمان ، بلفظ : ثم ، على ما قبله يبيح لنا أن نفهم أن تحقيق الكرامة الإنسانية بفك الرقبة ، والعدالة الاجتماعية بإطعام يتيم ذى مقربة أو مسكين ذى متربة ، لازمان للإيمان وما بعده من تواصٍ بالصبر والمرحمة . الإنسان لايكون مؤمنًا ، ما لم يكن له من نفسه وازع يرده عن الطغيان ويلزمه حدَّه فلا يسترق بشراً مثله، ولا يتجاهل حقَّ يتيم ومسكين . وأنَّى لإنسان أن يؤمن بوجود خالق قادر عليم ، ما لم يتحرر أولا من غرور جاهه وقوته وثرائه ، ذلك الغرور الذى يعطل شعوره نحو أخيه الإنسان ، ويجعله يحسب أن لم يره أحد ولن يقدر عليه أحد . فالإيمان بالله ، نعمة لا تتاح لقساة القلوب غلاظ الأكباد عُمْى الأبصار والبصائر ، لا يميزون بين الخير والشر !

كل هذا ، مما يعطيه سَبْقُ فكِّ الرقبة والإطعام ، على الإيمان الذى جاء معطوفًا عليهما بلفظ : ثم . لكن المفسرين عطلوا هذا الملحظ الجليل ،بل عكسوا الوضع ، فجعلوا « ثُمَّ » مقصوداً بها إلى إبعاد الإيمان عن فك رقبة وإطعام يتيم أو مسكين ،فلا يكون الإيمان معهما فى مرتبة واحدة ! ونص عبارة الزمخشرى فى (الكشاف) « وجاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الفضيلة والرتبة عن العتق والصدقة، لا فى الوقت ، لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ، ولا يثبت عمل صالح إلا به » .

وقال أبو حيان فى (البحر المحيط) :

« ثم ، لتراخى الإيمان والفضيلة لا للتراخى فى الزمان ، لأنه لابد أن يسبق تلك الأعمالَ الحسنة الإيمانُ ، إذ هو شرطٌ فى صحة وقوعها من الطائع . أو يكون المعنى : ثم كان فى عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان ، إذ الموافاة عليه شرط فى الانتفاع بالطاعات . أو يكون التراخى فى الذكر ، كأنه قيل : اذكر أنه كان من الذين آمنوا . . . »

والإيمان مناط العقيدة الإسلامية . لكن المسلم قد يظن أن إيمانه يصح بمجرد أداء العبادات ، فهو من ثَمَ ، فى حاجة إلى التنبيه بأن صحة الإيمان تنفى الغرور والاستعباد والقسوة .

فماذا علينا لو أخذنا بصريح الترتيب فى الآيات المحكمات ، حيث يبين القرآن مراحل اقتحام العقبة ، فيضع الكرامة الإنسانية بالعتق ، والعدالة الاجتماعية بإطعام يتيم ومسكين ، مناط الإيمان ، مقرراً بذلك أن لا سبيل إلى رجاء الإيمان فيمن غرّه جاهُه فانتحل صفة الربوبية باستعباد مخلوق مثله ، وتحجّر قلبه فلم يُطعم يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ! ومعلناً أن لا مكان لإيمان صادق مخلص ، فى مجتمع يسيغ عبودية بشر لغير خالقه ويطيق أن يمسك الطعام فى يوم مجاعة ، عن يتيم ذى قربى ، ومسكين معدم لا يجد إلا التراب ؟

ويُقَوّى هذا الفهمَ ، عطفُ التواصى بالصبر والتواصى بالمرحمة على الإيمان بالواو المفيدة للربط دون تفاوت أو تراخ ، دلالةً على أن الإيمان متى وقع فى نفس سليمة الحس والإدراك ، قادرة على المجاهدة والبذل والإيثار ، مهتدية إلى طريقى الخير والشر ، فإن هذا الإيمان يصحبه ويقترن به ، شعورٌ بما يقتضيه حقٌ الجماعة من واجب التواصى بالصبر والمرحمة : الصبر على أعباء النضال من أجل الخير ، والتراحم الذى يجعل الناس إخوة متعاونين متكافلين مترابطين ، كأنهم أعضاء جسم واحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وقد جعل الله للإنسان لساناً وشفتين . كى لا يسكت عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

وهذا هو المجتمع المثالى الذى حض عليه القرآن الكريم فى سورة البلد ، وهدى إليه الإنسانية المرجوّة لتكاليف الجهاد للخلاص من محنة الرق ، وأنانية الفردية الطاغية المستبدة ، وإثم السلبية الساكتة عن الحق .

* * *

« أولئكَ أصحابُ الميْمَنةِ » .

وقد ألِفت العربية استعمالَ اليمين فى البركة واليُمنِ والتفاؤل والقوة . وفى الاستعمال القرآنى ، نلمح ملحظ البركة فى اختيار الجانب الأيمن للموضع الذى تجلى فيه الله سبحانه لموسى عليه السلام :

« فلما أتاها نودِىَ من شاطئ الوادِ الأيمن فى البقعة المباركةِ من الشجرة أنْ يا موسى إنى أنا الله ربٌّ العالمين » . القصص ٣٠

«ونادَيناه من جانب الطور الأَيْمَنِ وقرَّبناه نَجيًا» . مريم ٥٢ .

كما نلمح ملحظ القوة فى آيات الزمر ٦٧ ، طه ١٧ ، الأحزاب ٥٠ .

ومعها آيات : النساء ٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ، والنور ٥٣ ، ٥٨ والمؤمنون ٦٠ والمعارج ٣٠ والانشقاق ٧ .

وملحظ الخيرِ والتفاؤلِ فى إيتاء المؤمن كتابه بيمينه : الإسراء ٧١ ، الحاقة ١٩ ، الانشقاق ٧ .

وأهل الجنة يوم القيامة : هم أصحابُ اليمين ، وأصحاب الميمنة .

وأضيف إلى هذه المعانى جميعًا دلالة الحُرمة فى اليمين بمعنى القسم ، ومعنى دينى هو الإيمان .

وقوبل أصحاب الميمنة فى سورة البلد ، بأصحاب المشأمة فى قوله تعالى :

«والذينَ كَفَروا بآياتنا هم أَصحابُ المَشْأَمَة» .

فدلَّ ذلك من صنيع القرآن على أن الكفر بآيات الله ، مقابل لاقتحام العقبة : فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، ثم الإيمان ، والتواصى بالصبر والمرحمة .

والشؤم فى اللغة ضد اليُمن ، وقد سُمى أهل النار فى الآخرة أصحابَ المشأمة أو هم أصحاب الشمال .

* * *

«عليهم نارٌ مؤصَدَة»

مغلقة لا منفذ لها ولا مخرج منها . وأصل اللفظ من الوصيد وهو فى اللغة : الجبل ، وبيت من الحجارة فى الجبال للمال . وأخذها الزمخشرى من : أوصدت الباب وآصدته إذا أطبقته وأغلقته . ونرى أن الإيصاد ليس مجردَ الإغلاق ، وإنما فيه الشدةُ والإحكام الملحوظان فى أصل المادة .

وقد جاءت المادة فى القرآن ثلاثَ مرات : الوصيد فى آية الكهف ١٨ :

«وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد» .

ومؤصدة فى آية البلد . وآية الهمزة فى « الذى جمع مالا وعدده — يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن فى الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * فى عَمَد ممددة »(١).

وسورة الهُمَزة ، مكية نزلت بعد القيامة .

والاستئناس بها هنا يزيدنا تمثلا للمجتمع الإسلامى المتعاون المتكافل المتراحم الذى يهدى إليه القرآن ويحض عليه ، كما يزيدنا شعوراً بنظرة القرآن إلى ضراوة الجشع وشؤم الأنانية وغرور المال .

وقال فى الآيتين : « عليهم نار مؤصدة » ولم يقل : فوقهم ، وذلك لأن الفوقية تحتمل البُعْدَ وعدم الملاصقة ، بخلاف « عليهم » التى تفيد الإطباق المباشر .

* * *

وبهذه الآية ، تختم السورة التى جَسَّمت فسادَ الأوضاع فى هذا البلد ، والنبى حِلٌّ به قد عانى من ذلك ما عانى من أذى واضطهاد، ولمس أمراض المجتمع المكى ، بتوارثها ولد عن والد . كما بيَّنت السورةَ أسباب الفساد ، وطرق النجاة لافتة إلى ما فى طاقة الإنسان وفطرته ، من المكابدة لتصحيح المظالم الإنسانية والاجتماعية ، وإدراك ما ينجم عنها من شر ، وسوء مصير .

وهكذا تتسق الآيات فى نسق باهر وبيان معجز ، واستثارة نبيلة لتحقيق أمل الإنسانية فى مقاومة الرق والبغى ، والغرور والأنانية ، والقسوة والظلم . . .

« ذلك الدين القيِّمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

صدق الله العظيم

---

(١) يأتى التفسير البيانى لسورة الهمزة ، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

فراغ

سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ » .

صدق الله العظيم

فراغ

السورة مكية بلا خلاف ، وهى السادسة عشرة فى ترتيب النزول ، على المشهور . نزلت بعد الكوثر . ولا يخطئ الحس فيها سيطرة جو الوعيد والإنذار ، يعمد فيه البيان القرآنى إلى الإيجاز الحاسم مع التأكيد الجازم ، تقوية للردع وبلاغا للوعيد.

وقد ربطها بعض المفسرين – كالنيسابورى – بسورة القارعة ، لكن التكاثر نزلت قبل القارعة بثلاث عشرة سورة ، فلا وجه لربطهما ، إلا أن يكون ملحوظاً فى ترتيب وضعهما فى المصحف ، تشابُه الجو الإنذارى المسيطر على السورتين كلتيهما . ولا تنفردان بذلك بل تشاركهما فيه سور وآيات كثيرة ، وبخاصة تلك التى عرضت لمواقف الهول فى البعث والحشر ، وأنذرت بيقين الحساب والجزاء .

* * *

والسورة تبدأ بهذه الجملة الخبرية القصيرة :

« أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابِرَ » .

لكن « الرازى » أخرجها من الإخبار إلى الاستفهام بمعنى التوبيخ والتقريع . والخبرية هنا أوقع فى الزجر وأبلغ فى الوعيد ، بما تشهد به على أن إلهاء التكاثر إياهم واقع قد كان فعلا ، وليس المقام مقام استفهام ، وإنما هو مقام بيان لما وراء هذا التكاثر العقيم الخاسر الذى ألهى القوم وشغلهم عن التفكير فى المصير .

واللهو لغةً ، مايُلْهِى الإنسان . ولعل أصل استعماله فى اللهوة وهى مايلقيه الطاحن فى فم الرحى بيده ويشغلها به فلا تدور على هواء .

ولا يترادف اللهوُ والمشغلة فى القرآن الكريم ، بل يأتى الشغل بالجدى وغير الجدى . أما اللهو فلا يكون إلا بغير الجدى . وهو ما التفت إليه « الراغب » حين فسر الإلهاء فى سورة التكاثر . بالاشتغال عما هو أهم . وعند « الرازى » أنه الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى .

وقال أبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) : « اللهو لعب ، واللعب قد يكون ليس بلهو » .

وصنيع القرآن يؤذن بأن اللهو أيضاً قد يكون ليس بلعب .

فقد عُطف اللهو على اللعب ، أو العكس ، فى آيات :

الأنعام ٣٢ : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » ومعها آيات .

الأنعام ٧٠ ، محمد ٣٦ ، والحديد ٢٠ والأعراف ٥١ .

العنكبوت ٦٤ : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب » .

ودقة الاستعمال القرآنى تستبعد فى مثل هذا المقام ، أن يكون فيه ما يُعَدّ من عطف التفسير ، وإنما اللهو مشغلة بغير المجدى ، تكون بلعب وغير لعب من صنوف الملاهى الشاغلة :

كشخص : « وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهّى » .

عبس ١٠ .

أو أموال وأولاد : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » .

المنافقون ٩ .

أو تجارة وبيع : « رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله »

النور ٣٧ .

أو أمل : « ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهم الأملُ فسوف يعلمون »

الحجر ٣ .

أو حديث : « ومن الناس من يشترى لَهْوَ الحديثِ ليُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغير علم » .

لقمان ٦

والمتعين فى آية التكاثر ، أن الإلهاء فيها بالتكاثر . وهو لغةً : تفاعل من الكثرة نقيض القلة ، ونماء العدد ، وإليه ذهب الراغب فقال فى (المفردات) : « القلة والكثرة يستعملان فى الكمية المنفصلة كالأعداد ، كما أن العِظَم والصِّغَر للأجسام » .

ويُكنى بالقلة عن الذلة ، كما يكنى بالكثرة عن العزة :

* وإنما العزة للكاثر *

ومنه قوله تعالى : « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثّركم » - الأعراف ٨٦

والتكاثر ورد فى القرآن مرتين : « ألهاكم التكاثر » وآية الحديد ٢٠ : «اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولادِ » .

وفُسّر التكاثر فى الآيتين بأنه المبالغة بالكثرة ، وجعل « الرازى » التفاخر والتكاثر شيئًا واحداً ، وهو ما لا يوافق نَسَقَ آية الحديد ، إذ عُطِفَ التكاثرُ على التفاخر .

وحَمْلُ هذا العطف على التكرار ، مضيع لبهاء الآية ودقة نسقها . والعربية استعملت : كاثره المالَ واستكثره إياه إذا أراد لنفسه منه كثيراً وإن كان المال قليلا . وبهذا المعنى يُفسَّر التكاثر فى آية الحديد ، وأنه التكالب على حطام الدنيا ومحاولة الاستئثار به ، وهذا شىء غير المباهاة والتفاخر ، بل هو درجة من درجات الشر فى الدنيا بعد اللعب العابث واللهو الشاغل والزينة الزائفة والمباهاة الكاذبة : هو تزيُّد وتكالب على حطام الدنيا والاستكثار منه والاستئثار به — وهو قول ذكره النيسابورى فى تفسير الآية — وإن يكن جمهرة المفسرين أكثر ميلا إلى عدِّ التكاثر هنا مباهاة وتفاخراً ، متأثرين فى ذلك بما رُوى فى أسباب النزول [١] .

فالإمام الطبرى ذهب إلى « أنها المباهاة بكثرة المال والعدد . . . وعن قتادة أنه قال : كانوا يقولون: نحن أكثر بنى فلان ونحن أعدُّ من بنى فلان » .

وفى (البحر المحيط) أنها نزلت فى اليهود .

وفى قول : إنه التكاثر بالأموات منهم .

وهم فى هذا ، يأخذون من التكاثر معنى المفاعلة ، مع أن اللغة استعملت تفاعَلَ ، فى المفاعلة وغير المفاعلة ، فقيل : كاثر الماءَ واستكثره ، إذا أراد أن يستأثر لنفسه بكثير منه وإن كان الماء قليلا ، كما قيل : تمارض إذا ادَّعى المرض ، وتكاره الأمرَ إذا تكلفه على كره منه ، وتَهافَتَ إذا ظهر ضعفه . . .

والآية لم تحدد لنا موضوع التكاثر ، فليس من السهل أن نخصه بالمال على

---

(١) تفسير الطبرى الكشاف ، البحر المحيط ، تفسير النيسابورى : سورة التكاثر .

ما ذهب الراغب ، أو نقصره على العدد كما قال الرازى ، أو الموتى كما فى النيسابورى . كما لا وجه لاحتمال أن يكون التكاثر هنا على الاستغراق والتعميم ، وهو ما دعا مفسرين إلى أن ينبهوا إلى قَصْره على ما هو مذموم ، كأنما أشفقوا أن يُفهَم أن التكاثر فيما هو خير وطاعة وحق ، داخل فى عموم اللفظ فى سياق الوعيد :

والاستئناس بآية الحديد ، يكون التكاثُر هنا فى الأموال والأولاد ، وهو ما يبدو أن الطبرى والزمخشرى اطمأنا إليه . ونضيف : إن إسناد « ألهاكم » إلى التكاثر ، يغنى عن كل تأويل ، بصريح النص على أنه التكاثر فيما يلهى .

والخطاب هنا عام لكل من ألهاهم التكاثر والتكالب على زينة الدنيا من مال وولد ، مهما تكن خصوصيةُ السبب الذى قيل إن الآية نزلت فيه .

* * *

« حتى زُرْتُم المقابر » .

فى : حتى ، هنا معنى الغاية ، فغاية التكاثر إلى زيارة المقابر ، وليس وراء هذا التكالب إلا المقابر ، يأتى بها القرآن كهذا إثر التكاثر فيبلغ الترويع منتهاه بقصر المسافة بينهما ، والانتقالِ السريع بل المباغت ، من التكاثر إلى المقابر . . .

ولم يستعمل القرآن الزيارة إلا فى آية التكاثر ، وإنما ورد من المادة : تزاوَر بمعنى تزوَرَّ فى آية الكهف ١٧ :

« وترى الشمسَ إذا طلعت تزاوَرُ عن كهفهم ذاتَ اليمين وإذا غرَبتْ تقرِضهم ذات الشمالِ وهم فى فجوةٍ منه ، ذلك من آيات اللهِ »

والزور أى الباطل والميل عن الحق ، فى آيات :

الفرقان ٤ : « وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون ، فقد جاءوا ظُلماً وزوراً » .

الفرقان ٧٢ : « والذين لا يَشهدون الزورَ و إذا مَرُّوا باللغوِ مروا كراماً » .

الحج ٣٠ : « فاجتنِبوا الرِّجْسَ من الأَوثانِ واجتنبوا قولَ الزور » .

المجادلة ٢ : « وإنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا »

وذلك كل ما فى القرآن من المادة .

والدلالة الحسية لها فى اللغة ، الميل والاعوجاج : فى الزَّوَر ، وهو عِوَجٌ فى الزَّوْر . والأزْوَرُ : الناظر بمؤخر عينيه أو الذى يميل على شِق إذا اشتد فى السير . ومن هذا الأصل الحسى ، جاءت استعمالات المادة كلها فى الميل، فقيل : زار القوم زيارةً إذا مال إليهم وعاج بهم . وقيل للخيال يُرى فى النوم زَورا إما من الزيارة . أو لأنه وهم لا حقيقة . والزُّور : الميلُ عن الحق والصواب : ومنه الدلالة الإسلامية على الباطل والضلال ، ميلا عن الهدى .

وللمفسرين فى « زرتم المقابر » أقوال ثلاثة :

إن الزيارة بمعناها الحقيقى ، حين ذهب المتكاثرون إلى القبور يعدون موتاهم .

أو هى مجاز ، أريد به ذِكْرُ الموتى عند المفاخرة . وقد استبعده « أبو حيان » وقال : « هذا تعبير ينبو عنه لفظ : زرتم » .

والقولان يوجه إليهما ما قالوه فى سبب النزول ، وهو أن بنى سهم وبنى عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر عدداً ، فكثرهم بنو عبد مناف . فقالت بنو سهم : إن البغى أهلكنا فى الجاهلية ، فعادُّونا بالأحياءِ والأموات. ففعلوا ، فكثَرتْهم بنو سهم .

العربية ، ومنه قول الأخطل : * ذاق الضماد أو يزور القبرا * ومعه ، من شواهد الكشاف :

والقول الثالث ، إن الزيارة هنا معناها الموت ، وهو استعمال مألوف فى العربية ، ومنه قول جرير :

زار القبورَ أبو مالك فأصبح أَلْأَمَ زُوَّارِها

وقد اختاره الإمام الطبرى فى تفسير آية التكاثر ، وأخذ به غير قليل من المفسرين بعد[1] .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠ / ١٨٩ . ومعه تفسير الرازى ، والكشاف ، وتفسير جزء عم : سورة التكاثر .

واستعمال الزيارة بهذا المعنى ، صريح الإيحاء بأن الإقامة فى القبر ليست إقامة دائمة ، وإنما نحن فيها زائرون ، والزائر غير مقيم ، وسوف تنتهى الزيارة حتمًا إلى بعث وحساب وجزاء . وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ « زرتم » دون غيره ، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر ، كأن يقال صِرْتم ، أو رجعتم أو انتهيتم ، أو أبتم وألتم ، وليس القبر المصيرَ والمرجع والمآب والمآل . كما لا يقال : سكنتم فى المقابر ، أو أقمتم بها ، إلى غير ذلك من ألفاظ تشترك كلها فى الدلالة على ضجعة القبر ، ولكن يُعوِزها سرُّ التعبير الدال على أنها زيارة ، أى إقامة عابرة مؤقتة ، يعقبها بعث ونشور .

وليس بعجيب أن يفوت هذا السر البيانى مفسرين كان جهدهم أن يجمعوا كل ما يمكن أن تحتمله الدلالات المعجمية لزيارة المقابر ، وشتى المرويات فى تأويلها .

حتى الذين فسروا الزيارة بالموتِ هنا ، لم يلتفتوا إلى سره البيانى . وهو ما لم يَفُتْ أعرابيًّا سمع الآية فقال : « بُعِث القومُ للقيامة وربِّ الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا مقيم » ورِوى كذلك عن « عمر بن عبد العزيز » نحو من قول الأعرابى (١) .

والعجيب أن « أبا حيان » لم تستوقفه هذه اللمحة الثاقبة من كلمة قالها أعرابى يجد حِسَّ لغته فطرةً وسليقةً ، بل مر أبو حيان بها سريعًا كأن لم يعنه منها شىء ، ليأتى بقول من قال فى تفسير الآية : «إنه تأنيب على الإكثار من زيارة القبور تكثرًا بمن سلف وإشادة بذكره ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال : فزوروها ، أمر إباحةٍ للاتعاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر » .

* * *

ولفظ « المقابر » لم يأت فى غير آية التكاثر ، على حين جاءت « القبور » خمس مرات ، كما جاء القبر ، مفردًا ، فى آية التوبة ٨٤ :

(١) أبو حيان ، البحر المحيط : ٨/ ٥٠٧ .

« ولا تُصَلِّ على أَحدٍ منهم مات أَبدًا ولا تَقُمْ على قبره إنهم كَفروا باللهِ ورسولهِ وماتوا وهم فاسقون » .

وقد تجد الصنعة البلاغية فى استعمال المقابر هنا مجرد ملاءمة صوتية للتكاثر، وقد يحس أهل البلاغة ، ونحس معهم فيها ، نسقَ الإيقاع بهذه الفاصلة ، فهل تكون « المقابر » فى آية التكاثر لرعاية الفواصل فحسب ؟

المقابر جمع مقبرة ، وهى مجتمع القبور... واستعمالها هنا يقتضيه معنويًّا ،أنه اللفظ الملائم للتكاثر ،الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوى فان . . . هناك حيث مجتَمع القبور ومحتَشد الرمم ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم . وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول ، لايمكن أن يقوم بها لفظ « القبور » بما هى جمع لقبر . فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت ، يتجلى إيثار البيان القرآنى « المقابر » على القبور ، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر به المتكاثرون ، وحين يلفت إلى مصير هذه الحشود من ناس يلهيهم تكاثرُهم عن الاعتبار بتلكم المقابر التى هى مجتمع الموتى ومزارُ الراحلين الفانين . . .

فتأويل المقابر بالقبور ، ليس إلا أثراً لتناول مفردات القرآن تناولا لفظيًّا معجميًّا ، مجرداً عن إيحاء سياقه وسره البيانى ، معزولا عن الاستعمال القرآنى الذى لم يجئ بالمقابر هنا لمجرد المشاكلة اللفظية والرنين الصوتى ، وإنما هى الملاءمة المعنوية أيضًا بين التكاثر والمقابر بما فيهما من سعة وشمول وعموم ،وهو هو الإعجاز البيانى يوجز رحلة الدنيا وعبرة الموت ونذر المصير ، فى أربع كلمات فحسب ، تفجأ اللاهين فى نشوة الدنيا، بصدمة « زرتم المقابر » ليس بينها وبين «ألهاكم التكاثر» إلا "حتى" ، أداة غاية .

* * *

ثم يتوالى الزجر سراعًا :

« كلَّا سوف تَعلمون * ثم كلَّا سوفَ تَعلَمون » .

واضح هنا أن الخطاب لمن ألهاهم التكاثر ، وأن التكرار مبالغة فى الزجر

وتأكيد للوعيد والنذير ، وهو ما اطمأن إليه الطبرى والزمخشرى وأبو حيان وغيرهم ، ولكنهم أضافوا إلى هذا ، أقوالا أخرى ، فى توجيه الخطاب فى الآيتين :

فنى (تفسير الطبرى) عن الضحاك : أن الآية الأولى للكفار فهى وعيد ، وأن الثانية للمؤمنين فهى وعد !

وفى (البحر المحيط) هذه الروايةُ عن الضحاك ، وأخرى عن « على » كرم الله وجهه : « كلا سوف تعلمون » فى القبر ، « ثم كلا سوف تعلمون » فى البعث .

ومثله فى تفسير النيسابورى .

وأورد « الرازى » أربعة وجوه فى التكرير : أنه للتوكيد ، وأنه وعيد للكفار ووعد للمؤمنين ، وأن الأول عند الموت والثانى فى سؤال القبر ، وأن إحدى الآيتين لعذاب القبر والأخرى لعذاب القيامة [1] .

وليس النص القرآنى فى وضوح بيانه بمسئول عن هذا الخلاف ، ولا هو بحيث يوجه إلى تفسير الآية الواحدة بالنقيضين ، فيستوى خطاب الكفار والمؤمنين ، وأسلوب الوعد والوعيد فى البيان المعجز !

ولكى تسلم القاعدة ، فى إفادة حرف « ثم » للتراخى ، قيل إن الآية الأولى عند الموت ، والثانية فى سؤال القبر . أو إن الأولى لعذاب القبر ، والأخرى لعذاب القيامة « وتبقى ثُم على بابها من المهلة فى الزمان » [2] .

ونقول هنا ما قاله الزمخشرى ، إن ثم فى هذا السياق « ليست على موضعها عند النحاة ، وإنما جيء بها مبالغة فى الإنذار ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل هذا » .

وجو الوعيد هو المسيطر على السورة كلها .

ويأبى البيان القرآنى أن يستوى فيه أسلوب الوعيد والوعد ، فما الخطاب

---

(١) التفسير الكبير للرازى : جـ ٨ سورة التكاثر .

(٢) البحر المحيط :

فى الآيتين كلتيهما ، إلا للذين ألهاهم التكاثر ، وما التكرير إلا مبالغة فى ردعهم وزجرهم وإنذارهم .

ويلفتنا هنا أيضا . أنه قال : « تعلمون » ولم يقل : تعرفون . والعلم إدراك الشيء بحقيقته كعبارة « الراغب » فى مفرداته ، والعربية قد استعملت المادة حسيًّا فيما هو ظاهر واضح لا لبس فيه . فالعُلمة والعَلم شَق ظاهر فى الشفة العليا ، وعلَمه وسمه ، والعلامة : السِّمة ، والعلامة أيضًا ، والعَلَم : الفصلُ بين الأرضين ، وشيء منصوب فى الطريق يُهتدى به . والعلَم : الجبل الطويل ، والراية ، وما يُعقد على الرمح .

ومن هذا الوضوح المميز فى العلامة والعلم ، استُعمل العلم فيما يعرف معرفة واضحة قوية ، فقيل : عَلم الشيء ، إذا أدركه حقّ إدراكه ، وهو عالم به إذا انكشفت له حقيقته .

وفى الاستعمال القرآنى للمادة ، نرى الله تعالى يوصف بالعالم ولا يوصف بالعارف ، والعليم من أسمائه الحسنى ، ويسند إليه العِلْمُ ولا تسند إليه المعرفة . ويختص الله سبحانه بالعلم بما يكون خفيًّا ،وغيبًا ، ومضمراً ، فهو يعلم ما يُسرون ويعلم ما فى الأرحام ، وما تحمل كل أنثى ، وما فى أنفسكم ، وما فى قلوبكم ، وذات الصدور ؛ ويعلم ما فى السماوات والأرض ، وما فى البر والبحر ، ويعلم سركم وجهركم ، ويعلم سرهم ونجواهم ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما توسوس به نفسُك ، علام الغيوب ، وعنده علم الساعة ، وعلم الكتاب .

وحين يُسنَدُ العلم إلى البشر فهو العلم الكسبى عندما يكون على وجه التأكد واليقين ،أو فى النذير بيوم لاريب فيه .

وتأتى « سوف تعلمون » ، فى نظائر لآية التكاثر ، مثل ، آيات : الحجر (٣ ، ٩٦) والفرقان (١٢) والعنكبوت (٦٦) والصافات (١٧٠) والزخرف (٨٩) ، وفى أكثرها النسق بهذا الإنذار بيوم يأتى ،تنكشف لهم حقيقة ما خفى عنهم وما أنكروه أو ارتابوا فيه .

وهم هنا قد ألهاهم التكاثر فناسب هذا الإلهاءَ أن ينذرهم بما بعده من تلقف المقابر لكل ما يتكاثرون به، وأن يردعهم بمصيرٍ لا بد آت، يعلمون فيه حقيقة ما طالما ألهاهم عنه التكاثر: «لقد كنتَ فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» . ق ٢٢ .

ولا حاجة بنا إلى الوقوف لنسأل عما سوف يعلمونه ، على نحو ما فعل الطبرى والزمخشرى والرازى ، والآيات التالية تعفينا من تأويل ، وتغنينا عن تحديد ما سوف يعلمون :

* * *

«كَلَّا لو تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقينِ * لَتَرَوُنَّ الجحيمَ » .

هو علم اليقين ، حين لا مجال لشك فيه أو ارتياب ، ولا موضع لغفلة ولهو بما طالما تكاثروا فيه .

واليقين لغةً : إزاحة الشك ، وقد يقِنَ الأمرَ ، كفرح ، وأيقنه وأيقن به وتيقنه واستيقنه واستيقن به : علمه وتحققه .

ويبدو أن جمهرة المفسرين متفقون على أن معنى علم اليقين فى آية التكاثر « هو علم يقين ، أضيف إلى الصفة ، نحو : ولدار الآخرة » — الرازى ، النيسابورى ، أبو حيان .

وإنما اختلفوا فى تحديد المقصود باليقين : فقيل هو الموت ، ونظيره عندهم قوله تعالى :

«واعبد ربك حتى يأتيكَ اليقين » . الحجر ٩٩ .

وقيل هو البعث ، يزول به كل شك .

والطبرى يختار البعث ، على حين سكت الرازى وأبو حيان فلم يرجحا قولا على آخر .

والخلاف ليس بذى بال ، فالأمر بينهما قريب . على أنا لا نطمئن إلى

تفسير اليقين هنا ، ولا فى آية الحجر التى نظَّروا بها : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » بالموت أو البعث . فما يستوى التأويل : كلا لو تعلمون علم الموت ، أو علم القيامة . وعطاء الآية : « كلا لو تعلمون علم اليقين » من قوة ونذير

واليقين فى القرآن التحقق وإزاحة الشك ، والإدراك الواثق الذى لا يلتبس بوهم أو ظن أو تخمين أو ارتياب ، يطرد هذا فى كل المواضع التى وردت فيها المادة ، فعلا أو اسما ، على اختلاف الصيغ .

« واستيقنتها أنفسهم » — النمل ١٤

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب و المؤمنون » . — المدثر ٣١

« وما قتلوه يقيناً » . — النساء ١٥٧

« إن نَظُنُّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين » — الجاثية ٣٢

« وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين » . — النمل ٢٢

ويجئ اليقين فى القرآن مضافًا إليه عِلْم ، وعين ، وحق ، كما يجىء الاستيقان مع نفى الارتياب ، أو مقابلا للظن ، مما لا يدع مجالاً لتفسير اليقين بغيرِ التحقق والإدراك الواثق ، وإزاحة كل شك أو لبس أو ارتياب .

* * *

ثم إن الآية متلوة بقوله تعالى :

« لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثم لَتَرَوُنَّها عينَ اليقين »

وهو ما يجلو مفهوم « علم اليقين » بما لا يغنى عن أى تأويل ، فهذا بيان لما سوف يعلمون يقيناً . وإضافة عين إلى اليقين فى الآية الثانية ، تأكيدٌ وتجسيم وترسيخ : فالأصل الحسى للعين أنها الباصرة ، ولأهميتها بين الجوارح ، يُكتفى بها أحيانًا فى الدلالة على الشخص فيقال : ما بالدار من عين ، أى أحد . كما استعملت فى موضع العناية والاهتمام فى مثل قوله تعالى : « فإنك بأعيننا » أى بحيث

نراك ونرعاك . « ولتُصنَع على عيني » أى بكلاءتى وحفظى . كما استعمل ما يقر العين ، فيما هو للإنسان موضع غبطة ورضى وارتياح :

« فرددناه إلى أُمِّه كى تقرَّ عينُها » . القصص ١٣

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرةَ أَعيُن » . الفرقان ٧٤

و « الراغب » فى مفرداته ، يوجه كل ما استعير له لفظُ العين ، لمعنى موجود فى الأصل الذى هو الجارحة .

واستعمال العين فى أسلوب التأكيد ، له أصلٌ من مدلولها الحسى ، فأنت تقول : لَقِيته عيانًا ، أى معاينة لا شك فيها ، ورأيته رأىَ العين ، أى حقيقة ويقينًا لا على سبيل الوهم أو المجاز :

« يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء » آل عمران ١٣

وهذا الملحظ من الرؤية المتيقنة ، فى قولهم : رأيته رأىَ العين ، هو الذى استُعملت به « عين » للتأكيد . فيقال جاء هو عينه . فإذا أضيفت عينٌ — وهذا شأنها فى اليقين الحسى — إلى لفظ اليقين . مع فعل الرؤية مؤكداً : « ترُونَّ » : فذاك أقصى ما يبلغه البيان من تأكيد اليقين وترسيخه . فنى احتمال أى شبهة للشك أو الظــن أو الارتيــاب . إذ يجتمع هنــا . ما للرؤية من إدراك حسى ، إلى ما للفظ « عين » من دلالة التأكيد والبصر ، وما لصريح لفظ « اليقين » من ثقة وإزاحة لكل شك ، فضلا عن التوكيد اللفظى فى «لَتَرَوُن» باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ثم بالتكرار !

إنها كلمات أربع قصار . جمعت كل ما تعرف العربية من ادوات التوكيد وأساليبه اللفظية والمعنوية : اللام والنون والتكرار ، والرؤية والعين ، واليقين ، فبلغت من ذلك ما لا تبلغه الصفحات المطولات ، دون أن نحس فى إيجازها المعجز ، جهدَ الحشد وضغط الامتلاء .

هو إذن اليقين الذى لا سبيل فيه ، يتحقق برؤية الجحيم رأى العين حيث لا سبيل إلى اتهام البصر واللياذ باحتمال الوهم فيه .

والصلة بين الآيات المحكمات :

« كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين »

جلية واضحة ، فلسوف يعلمون اليقين حق علمه ، حين يرون الجحيم عين اليقين . والنسق القرآنى لا يسمح بأن نفصل بين هذه الآيات ، فنقطع ما بين « كلا لو تعلمون علم اليقين » وبين الآية بعدها « لترون الجحيم » .

لكن المفسرين — فيما قرأت — أجمعوا على أن هذا القطع واجب ! وقرروا أن « لترون الجحيم » منفصلة عن « لو تعلمون علم اليقين » هذا مع تقريرهم أن كل آية منهما لا يمكن أن تستقل بمعناها : فالأولى شرط يحتاج إلى جواب والثانية جواب يحتاج إلى شرط أو قسم .

ولتسوية الصنعة الإعرابية ، مع فصل الجملتين ، راحوا يتأولون فى الموضعين كليهما ، ويتكلفون تتمة مفترضة لكل من الآيتين :

ففى الأولى قالوا : إن جواب الشرط يدل عليه ما قبله ، فيكون التقدير : لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم ، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره[1] ، أو لفعلتم ما لا يوصف[2] ودفعكم إلى السعى فيما تصلح به ظواهركم وتخلص به لله سرائركم وتتحد به فى تأييد الحق هممكم[3] .

وفى الثانية ، قالوا : « لترون الجحيم ، جوابٌ لقسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد » (الزمخشرى والرازى) .

وتسأل : فيم كل هذا العناء ؟ وما الذى منع ارتباط الجملتين عندهم ، بحيث تكون الثانية تتمة للأولى متعلقة بها وجوابًا للشرط فيها ؟ النحاة قرروا أن « لو » حرف امتناع لامتناع ، أى أن جوابها يمتنع لامتناع الشرط ، فلو أننا جعلنا « لترون الجحيم » جوابًا للو ، لاقتضى ذلك تحقق رؤية الجحيم مع لو ، وهذا محال فى حكم الصنعة !

---

(١) تفسير الطبرى والبحر المحيط (سورة التكاثر) .

(٢) الزمخشرى : الكشاف :

(٣) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده :

قال النيسابورى : « اتفقوا على أن جواب لو محذوف ، لأن قوله : « ثم لتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم » : أمر واقع قطعاً، فلو كان «لترون الجحيم» جواباً للشرط ، كانت الرؤية أمراً مشكوكاً فيه ، فيلزم المخالفة بين المعطوفات يعنى : عطف « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » على « لترون الجحيم » — أو الشك فيما هو واقع قطعاً ، وكلاهما غير سديد » .

وقال الرازى : « اتفقوا على أن جواب لو محذوف ، وأنه ليس قوله : « لترون الجحيم » جواب لو، إذ لو كان جواباً لوجب ألا تحصل الرؤية ، وذلك باطل » .

وهكذا تتدخل الصنعة النحوية فى نسق البيان الأعلى ، وتقطع ما بين الآيتين ، ثم تُحوِج إلى تأوِل تتمة مفترضة لكلٌ منهما، مع أن المعنى يقوى بلاريب ، لو وصلنا بين الآيتين ، إذ تكون رؤية الجحيم عينَ اليقين القاضية على كل شك ، المحققة لعلم يقين لاريب فيه

فهل تأبى العربية حقًّا ، ربط الآيتين ، بمقتضى ما قرره جمهور النحاة من امتناع جواب لو ، لامتناع شرطه ؟

« لو » تأتى فى العربية على خمسة أوجه ، بيّنها ابن هشام فى (المغنى) ونقل فى الشرطية منها اختلافهم فى الامتناع بها ، ومنه قولهم :

(أنها تفيد امتناع الشرط وامتناع الجواب جميعاً . وهذا هو القول الجارى على ألسنة المُعرِبين ، ونص عليه جماعة من النحويين . وهو باطل بمواضع كثيرة . . . ومنها قوله تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ») . . . إلى أن قال بعد استيفاء بيان بطلانه :

(وقد اتضح أن أفسَدَ تفسير لـ : لو ، قول من قال : حرف امتناع لامتناع . .)[(١)]

* * *

وأضيف إليه من الشواهد القرآنية ، آيات :

الشعراء ٣٠ : « قال أو لو جئتُك بشىء مبين : قال فأتِ به إن كنت

(١) ابن هشام : مغنى اللبيب ١/٢٥٨ — ٢٥٩ ط صبيح بالقاهرة .

من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين »معها آية الزخرف ٢٤

النساء ٩ : «وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم .. »

الأنعام ٣٠ : « ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربِّهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربِّنا » .

ومعها آيات : الأنعام ٢٧، ٩٣، والأنفال ٥٠

وقد أرى أن هذا الأسلوب ، أقوى من الجملة الخبرية ، فى تأكيد الجواب وعدم احتماله أى شك ، متى زال المانع [1] .

والبيان القرآنى المعجز يهدى إلى هذا الملحظ الذى غاب عمن قيدهم جمود المصطلح النحوى ، فطبقوه صنعة شكلية ، بعيداً عن ذوق العربية : فحين يقول تعالى : فى آية التكاثر :

«كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

لاوجه إطلاقاً لاحتمال الشك فى رؤية الجحيم ، لو علموا علم اليقين ، وسيعلمونه حتما حين يرون الجحيم عين اليقين ، وعندئذ يزول المانع ، ويتحقق بزواله جواب الشرط .

والقرآن الكريم جاء بشرط « لو » هنا فى مجال اليقين : * كلا لو تعلمون علم اليقين * بعد أن قرر على وجه التأكيد والجزم والحسم أنهم سوف يعلمون . وإذ تقرر – بما لا يحتمل أى شك – أنهم سوف يعلمون علم اليقين ، فقد لزم أن نقول إن امتناع شرط « لو » سيزول حتما باليقين الذى قررت الآية أنهم سوف يعلمونه يقيناً لاريب فيه ، ويومئذ يتحقق الجواب ، الذى ما منعه إلا أنهم لم يعلموا – حين ألهاهم التكاثر – علم اليقين .

---

(١) الكلام فى « لو» يطول . وللزميل الصديق « الأستاذ محمد الراوندى » بدار الحديث الحسنية » بحث قيم فى « لو » تقصى فيه أقوال النحاة بنظر ثاقب ، واستوعب الشواهد القرآنية والشعرية . عسى أن يتاح نشره كاملا ، بحول الله ، فى دراسة قرآنية لغوية .

وإيثار هذا الأسلوب فى تأكيد رؤية الجحيم والسؤال فيها عن النعيم ، وهو فيما أرى مناط البلاغة فى هذا الأسلوب . إذ إن جواب لو إنما يمتنع لامتناع شرطه ، أما حين يتحقق الشرط يقيناً فليس إلى الشك فى تحقق الجواب من سبيل . وقد سبق آيةَ « كلا لو تعلمون علم اليقين » التأكيدُ الجازم بأنهم سوف يعلمون ثم كلا سوف يعلمون ، فلم يبق شك فى أن جهلهم بعلم اليقين زائل لا محالة ، وعندئذ يتحقق جواب الشرط على وجه اليقين ، عين اليقين .

فالربط بين الآيتين ، ليس لاتقاء تمزيق السياق والإخلال بالنسق فحسب ، ولكنه يحتمق جواب (لو) تلقائياً ، بزوال امتناع شرطها حين يعلمون ، وسوف يعلمون علم اليقين .

من عجب أن المفسرين لكى يخلصوا رؤية الجحيم من الامتناع أو احتمال الشك الموهوم ، أكدوا امتناع شرط (لو) فى : « كلا لو تعلمون علم اليقين » مع أن الله تعالى يقول : «كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين » .

فلم يلتفتوا إلى أن احتمال الشك فى تحقق شرط لو ، وأنهم سوف يعلمون علم اليقين ، هو الباطل عين الباطل !

* * *

وتختتم السورة بالآية :

« ثم لتُسألُنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ »

فيبلغ الوعيد ذروته ، ويصل به إلى غاية منتهاه .

وقد اختلف المفسرون فى هذا السؤال عن النعيم :

ممن يكون ؟ ولمن يكون ؟ وأين يكون ؟

فى قول : إن السؤال يكون من الملائكة ، وقيل : إن السؤال من الله .

والقرآن سكت عن ذكر السائل ، تركيزاً للاهتمام فى السؤال نفسه ففيم هذا الاختلاف فيمن يكون السائل ، مع أن صنيع القرآن صريح فى الصرف عنه عمداً ؟

وقالوا : إن السؤال يومئذ للكفار ، وقيل : بل هو للبشر كافة : المؤمنون منهم والكفار « النيسابورى وأبو حيان » وسكت الزمخشرى فلم يتعرض هنا لتحديد المسئول ، لكنه — فى تفسير النعيم — اعتبر أن السؤال للإنسان ، على الإطلاق .

لكن كيف يمكن إدخال المؤمنين مع الكفار فى سؤال واحد ؟

الجواب عند المفسرين حاضر : « فالمؤمن يُسأل سؤال إكرام وتشريف ، والكافر يُسأل سؤال توبيخ وتقريع » — البحر المحيط .

هكذا يجتمع الإكرام والتشريف ، والتوبيخ والتقريع ، بلفظ واحد ، وفى جو واحد وسياق واحد !

وتوجيههم للآية بجعل السؤال فيها للإنسان بعامة : الكافر والمؤمن ، يعزل الآية عن الجو العام الحافل بالوعيد والنذير ، ويتناولها مقتطعة من السياق فى صريح دلالته على أن السؤال هنا نذير ، والخطاب فيه لمن ألهاهم التكاثر .

وللمفسرين فى : أين يكون هذا السؤال عن النعيم ؟ أقوال :

منها : أن السؤال فى موقف الحساب . فلما رُدَّ عليهم بأن هذا ليس السياقَ ، « لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن رؤية جهنم ، وموقف الحساب متقدم على مشاهدتها » أجاب الرازى :

« المراد : ثم أُخبركم أنكم تُسألون يومَ القيامة. . . وهو كقوله : " فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . . . ثم كان من الذين آمنوا " والإيمان متقدم على كل شىء » .

ومنها : أن السؤال يكون إذا دخلوا النار . واستأنسوا بآية المُلك : « كلما أُلقى فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .

وآية التكاثر فيما نرى تحدد وقتَ السؤال بيومئذ ، أى يومَ ترونها عين اليقين ، وهذا التحديد الصريح يعفينا من الوقوف عندما اختلفوا فيه .

• • •

واختلفوا كذلك فى النعيم الذى يُسألون عنه يومئذ ، وقد كثرت تأويلاتهم فيه حتى بلغ ما عده « الرازى »[1] منها تسعة وجوه : وتتفاوت هذه النعم المسئول عنها ، فأدناها النعلان ، وأعلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وبينهما يأتى : تخفيف الشرائع ، وتيسير القرآن ، والطعام والشراب والمسكن ، وصحة الأبدان والأسماع والأبصار ، والظلُّ البارد ، والفراغ والأمن والدعة ، ولذة النوم ، والحالة الحسنة ، واعتدالُ الخِلقة .

وهكذا لم يتركوا شيئًا يمكن أن يقال فى تأويل النعمة إلا جاءوا به ، وجاءوا له بشاهد من القرآن أو الحديث أو خبر مأثور : من ذلك مثلا ، أن تأويل النعيم برسول الله ، يؤيده عندهم قوله تعالى : « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا » .

وفى تأويله بالماء والطعام . ذكروا آية الأعراف : « ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنةِ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين » .

وفى تأويله بالظل والنعلين رووا حديثًا عن « أنس » أنه « لما نزلت الآية قام محتاج فقال : هل علىّ من النعمة شىء ؟ قال : الظل والنعلان والماء البارد» .

وفى تأويله بالشّبع والرِّى ، رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه « خرج ذات ليلة إلى المسجد فلم يلبث أن جاء أبو بكر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أخرجك يا أبا بكر ؟ فقال الجوع . قال : والله ما أخرجنى إلا الذى أخرجكَ . ثم دخل عمرُ فقال مثل ذلك . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : قوموا بنا إلى منزل أبى الهيثم . ففعلوا ، وأكلوا هناك خبزاً من شعير ولحمًا ، وشربوا ماء عذبًا . فقال صلى الله عليه وسلم : هذا من النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة » .

* * *

والنعيم قد يحتمل لغةً ، كلَّ هذا الذى قالوه ، فهو فى معاجمها :

---

(١) التفسير الكبير : ٨/١٧٤ .

الخفضُ والدعة ، والمالُ ، واليدُ البيضاء والروضةُ الناعمة . . . كما يحتمل : الدّين ، والهُدى ، والظلَّ والصحةَ والنومَ . . . .

لكن هل يحتمل البيان العالى ، كل هذه المعانى المتفاوتة فى موضع واحد ؟

وهل يسيغ الذوق المصفى ، أن تُفَسَّرَ الكلمة بالنعلين ، كما تفسر بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟

« الإمام الطبرى » يميل إلى تخصيصه بنعيم الدنيا ، قال : « ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا ، ماذا عملتم فيه ، ومن أين وصلتم إليه ، وفيم أصبتموه »(١) .

واختار « الرازى » إطلاق اللفظ على جميع النعم ، قال : والأولى أنه يجب حملُه على جميع النعم ، وأن تكون الألف واللام فيه للاستغراق(٢) .

وخصه « الزمخشرى » بنعيم « مَن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل ويشرب ويقطع أوقاته باللهو والطرب . . . فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التى لم يخلقها إلا لعباده ، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل ، وكان ناهضاً بالشكر ، فهو من ذاك بمعزل »(٣) .

وقال « الراغب » : والنعيم النعمة الكثيرة .

وأمام هذا الاختلاف ، بل أمام ذلك التفاوت بين تأول النعيم بالنعلين أو الظل مرة ، وجميع النعم على الاستغراق ، نلوذ بالقرآن الكريم لنحتكم إليه فيما اختلفوا فيه .

والقرآن استعمل النعمة ، والأنعم ، والنعماء ، والنعيم بملحظ من الدلالة لم يتخلف قط .

فالنعمة تستعمل فيما أنعم الله به على عباده من خير أو هداية فى الدنيا . وقد جاءت بهذا المعنى ٤٩ مرة ، مضافة إليه سبحانه وتعالى ، أو إلى ضميره

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠ / ١٨٤ .

(٢) تفسير الرازى : ٨ / ٤٧٤ .

(٣) الكشاف : ٤ / ٢٣١ .

جل شأنه ، أو هي نعمة منه جل جلاله . وجاءت مرة واحدة فى حديث موسى لفرعون بآية الشعراء ٢٢ : « وتلكَ نعمة تمنُّها علىّ أن عبدتَ بنى إسرائيل » وهى أيضًا نعمة فى الدنيا لا الآخرة .

وكذلك جاء الجمع منها : نعم، وأنعم فيما ينعم الله به على عباده فى الدنيا :

« وأسبغ عليكم نعمه » (لقمان ٢٠) — « فكفرتَ بأنْعمِ الله » (النحل ١١٢) « إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » (النحل ١٢١)

ونعماء أيضًا ، جاءت خاصة بالدنيا فى آية هود ١٠ :

« ولئن أَذَقْناه نَعْماءَ بعدَ ضَرَّاءَ مسَّته لَيقولَنَّ ذهب السيئاتُ عنى إنه لَفَرِحٌ فخور » .

وكما اطرد مجىء نعمة ونعم وأنعم ونعماء ، فى نعيم الدنيا ، اطَّرد كذلك مجىء « نعيم » خاصًّا بالآخرة ، فى كل الآيات التى ورد فيها لفظ نعيم بالقرآن الكريم ، على وجه الاستقراء

التوبة ٢١ : « يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم » .

الطور ١٧ : « إن المتقينَ فى جنات ونعيم » .

الواقعة ٨٩ : « فأَما إن كان من المُقَرَّبين * فرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وجنةُ نعيم »

المعارج ٣٨ : « أَيَطْمَعُ كلُّ امرئٍ منهم أَن يُدخَلَ جنةَ نعيم » .

الانفطار ١٣ : « إن الأَبرارَ لفى نعيم * وإن الفُجَّار لفَى جحيم ».

المطففين ٢٢ : « إنَّ الأبرارَ لَفى نعيم *على الأرائكِ ينظرون * تَعرِفُ فى وجوههم نَضْرَةَ النعيم » .

الإنسان ٢٠ : « وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ نعيماً ومُلْكاً كبيرًا » بياناً لقوله تعالى : « وجزاهم بما صَبَروا جَنَّةً . . » .

المائدة ٦٥ : « ولَأَدْخَلْناهم جناتِ النعيم » .

يونس ٩ : « تَجْرِى من تحتِهم الأَنهارُ فى جناتِ النعيم » .

الحج ٥٦ : « المُلْكُ يومَئذٍ للهِ يَحكمُ بينهم ، فالذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ فى جنَّات النَّعيم » .

الصافات ٤٣ : « أولئك لهم رِزْقٌ معلوم * فواكه وهم مكرمون * فى جناتِ النعيم » .

الواقعة ١٢ : « أولئك المقرَّبون * فى جنات النعيم » .

لقمان ٨ : « إنَّ الذين آمنُوا وعمِلوا الصَّالحاتِ لهم جنَّاتُ النَّعيم »

الشعراء ٨٥ : « واجعلْنى من وَرثةِ جنةِ النعيم » .

القلم ٣٤ : « إن للمتَّقِين عندَ ربِّهم جناتِ النعيم » .

ثم آية التكاثر .

وأمام هذه الدلالة القرآنية لكلمة « النعيم » خاصَّة بنعيم الآخرة ، فى كل المواضع التى ذُكر فيها النعيم فى القرآن ، لا مناص لنا من النزول على حكم القرآن هنا ، فلسنا مُخَيَّرين فى تأويل لفظ النعيم بما يحتملُه لغة أو مجازاً ، وهذا القرآن أمامنا لم يستعمل النعيم قط فى نعمة من نعم الدنيا ، وإنما هو فيه دائمًا ، نعيمُ الآخرة .

ولكن هذا المعنى المتعين ، هو الوحيد الذى لم يذكره المفسرون — فيما قرأتُ — وهم يعدون كلَّ ما يمكنه أن يقال فى تفسير النعيم ، ويذكرون فيه ذلك الحشد المختلط ، إلا نعيمَ الآخرة فى دلالته الإسلامية بالقرآن الذى يجب أن نحتكم إليه فى توجيه آية التكاثر .

فعلى هدى القرآن الذى خص صيغة « النعيم » وحدها بالآخرة ، دون نعمة

ونعماء وأنعم ونعم ، لا نملك إلا أن نفهم أن السؤال فى آية التكاثر ، إنما هو عن نعيم الآخرة . . . .

وسر البيان فيه ، أن هؤلاء الذين ألهاهم التكاثر فى الأموال والأولاد وغيرهما من أعراض الدنيا الزائلة ، وحسبوها النعيم الذى ما بعده نعيم ، وشُغلوا بها عن التزود لآخرتهم ، سيُسألون يوم يَرون الجحيمَ عينَ اليقينِ ، عن النعيم الحقِّ ما هو؟ ويومئذ يدركون يقيناً حقيقة النعيم الذى ألهاهم عنه التكاثر والتكالبُ على نِعم مآلُها احتشادٌ فى المقابر ثم بعث وحساب !

سر البيان هنا ، أن الموقفَ فى الآخرة هو موقف العلم اليقين ، والإدراك المتحقق الذى لا مجال فيك لشك وارتياب ، وإذ كان نعيم الجنة هو النعيم الحق ، كان السؤال فى موقف الحق عن النعيم الحق ، لا عن الأعراض الزائلة ، من صحة ومال وظل وماء ومأكل ومسكن ، وثياب ونعال . . . فما شىء من هذا كله إلا « نعمة » دنيا وعطية مستردة ، وإنما يسألون يوم يعلمون علم اليقين ، ويرون الجحيم عين اليقين ، عن النعيم الحق الذى أضاعوه ، والخير الباقى الذى ألهاهم عنه التكاثر فى العرض الزائل والحطام الفانى .

والإنذار بهذا السؤال عن النعيم ، يتسق على أكمل وجه ، مع الوعيد المسيطر على السورة كلها ، وبه تتلاءم آياتها وتترابط فى نسق معجز ، لا موضع فيه لخلل الصنعة واضطراب النظم وتفاوت جو الأداء وتغير روح الموقف ، مما أقحمته تأويلات يفوتها إدراكُ أسرار التعبير فى المعجزة الخالدة .

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

صدق الله العظيم

الفهرس

فراغ

دار المعارف

تقدم من مؤلفات الدكتورة عائشة عبد الرحمن :

فى مكتبة الدراسات القرآنية والإسلامية :

* التفسير البيانى للقرآن الكريم : الجزءان : الأول والثانى
* الإعجاز البيانى ، ومسائل ابن الأزرق
* مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية
* القرآن والتفسير العصرى
* مع المصطفى ، فى عصر المبعث
* نساء النبى — صلى الله عليه وسلم
* أرض المعجزات — رحلة فى جزيرة العرب .

وفى مكتبة الدراسات العربية :

* رسالة الغفران : نص محقق
* الغفران : دراسة نقدية
* قيم جديدة للأدب العربى ، القديم والمعاصر
* لغتنا والحياة
* تراثنا ، بين ماض وحاضر .
* الخنساء

* الصاهل والشاحج : نص محقق — لأبى العلاء

رقم الإيداع		١٩٩٠ / ٧٤١٨
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3072 - 3	ISBN

١ / ٩٠ / ١٠٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

فراغ

التفسير البياني للقرآن الكريم

تقدم الدراسة في هذا الكتاب ، محاولة جديدة في تفسير القرآن الكريم ، تتجه إلى فهم إعجازه البياني بعيداً عن شطط التأويل واعتساف الملحظ ، وإلى تذوق أسراره البلاغية . على هدى التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه ، والتدبر الواعي لنظمه الباهر ، والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في المعجزة البيانية الخالدة ، التي يجب أن يتصل بها كل ذي عروبة أراد أن يكسب ذوقها المصفى في الأداء . ويدرك مناط سحره : مسلماً كان أو غير مسلم .